فيـل أبيـض .. وحيـد

قصص

الدكتور محمد حسن عبد الله

المؤلف : محمد حسن عبدالله
الكتاب : فيل أبيض وحيد
الناشر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٤
رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٨٠٩٠

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى - القاهرة
ت: ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

ليس تقدمها ؛ لأن القصص .. مثل اللوحات ، مثل الألحان ، مثل القصائد .. مثل لاعب السيرك .. لا تحتاج إلى تقديم ، إن لم تدلّ بذاتها ، لن يدلّ عليها ، ولا يشفع لها أى كلام ..

الفن الإبداعى كان بداية .. وأرانى وقد بدت مشارف الأفق الآخر .. أعود إليه .. بشوق واقتناع .. قد يدفعنى - أحياناً - إلى القلق مما كان بين بداية الرحلة .. وختامها ، وأتساءل بحق : كيف غاب عنى ذلك الإيمان القديم ؟

دون بكاء على اللبن المسكوب .. هل يمكن تدارك شئ .. إشارة أخيرة ترسلها السفينة قبل أن تمضى فى القاموس المحيط ؟

الحصـــان

ضوء رمادى يتماوج ، مثل دخان السجائر ، يغلّف أشياء الحجرة ، تضيع المعالم ، لكنه يعرف مكان كل قطعة ، شكلها ولونها ، منذ كانت نظراته تميز الألوان . له مع الساعة الخامسة رباط مقدس ، منذ زمن لايدرك امتداده . يغلب على ظنه أنها الخامسة قرب الغروب ، إذ لاتزال رواسب من ضوضاء الشارع تطنّ فى فراغ رأسه ، ولكن متى فتح هذا الكازينو الصاخب فى صميم المنطقة السكنية ؟

هل يبلغ التسيّب إلى أن تمنح تراخيص الملاهى فى مناطق العائلات المحترمة ؟ ! مع هذا لايعرف كيف وجد نفسه فى حومة الرقص . وأنه كان مبتهجاً إذ يتحرك بخفّة شاب رياضى أصبح من ذكرياته الغابرة . كيف واتته العافية وتجاعيد يديه بادية وهو يشوّح بهما على أنغام الديسكو ؟ على أىّ حال لم يطل به الأمر . توقف طوعيا فى ناحية ، وراح يرمق القاعة المكتظّة بمزيج من الامتنان والحسد . من موقعه النائى لمح بابى القاعة المتقابلين ، كأنهما كوتان فى جدار قلعة . فى البداية لم يعرهما اهتماماً ، لكنه بالتكرار، لاحظ أنّ أفرادا يتقاطرون من إحدى الفتحتين ، فى إيقاع رتيب ، داخلين إلى القاعة ، إذا أشرف أحدهم رفع ساعدية ، وحرك قدميه ، وانخرط فى الرقص محافظاً على توافق حركته مع الإيقاع المستمر ، وعلى وجهه ملامح جدّية تناقض ما تصنع يداه وقدماه . حين دقق النظر فى الفتحة المقابلة رأى أشخاصاً يتسللون خارجين ، منسلخين عن طابور الرقص . كانت لحظة عجيبة:

فى ذروة الحماسة ، وفوران الدم ، وجلبة التصفيق والدق بالأقدام ، تنادى أحدهم فتحة الخروج ، على الفور تتدلى اليدان ، وتهدأ الانفعالات ، وتجمد الخطوات ، ثم يميل إلى جانب كسفينة جانحة ، وفى لمحة يمر من الباب الضيق،

ملقيا على القاعة نظرة منطفئة ، لاتلمح فيها غير بريق الحسرة ... ويستمر الرقص .

عجبا .. إذا كانت نظم البلدية أدركها التسيّب وسمحت بإقامة صالة للرقص بين البيوت فكيف سمح هو لنفسه بالمشاركة فى عمل من أعمال الطيش ؟! مع هذا كان جسده يهتز بالفرح ، بشئ من نشوة المغامرة وكسر حاجز المراقبة . تحركت يده نحو فمه ليكتم ضحكة تترقرق بها معدته ، توشك أن تصعد لكنها لم تطاوعه .. سقطت فى الطريق ، أشرع عينيه دهشا . كانت يد رقية تمسك برسغه بين إصبعين ابتسمت فى وجهه :

ـ نبضك باسم الله ما شاء الله ، ولاشاب فى العشرين.

امتعض قليلا ، كان قلبه مشغولاً بحلقة الديسكو .

استأنفت :

ـ شاب فى الثلاثين .. عشرة زيادة من أجلك !!

ابتسم بتحفظ ، اعتدل قليلا ، سارعت إلى وضع وسادة خلفه ، قالت وهى تمسح جبينه :

ـ صباح النور على البنور ... تحيتى المفضلة لا أرضى بها بديلاً.

ـ إنها الخامسة صباحاً إذن ؟!

ـ وهذا موعد برشامة الحديد .. يا حديد.

ـ لابد أنه قادم الآن ، أخشى ما أخشاه أن الصالة أغلقت الطريق أمام انطلاقته .

هذيان الشيخوخة ليس غريباً على طبيبة ممارسة مضى عليها فى تنقية أوجاع الناس ربع قرن ، لكنه ـ قبل كل شئ ـ والدها المحبوب . الذهب لايتحول إلى تراب غير أنها لن تعرف هل توافقه أم تراجعه ، الأمر يتوقف على نوعيّة القادم ، لهذا قالت بعبارة محايدة :

ـ هل تظن ذلك حقاً ؟

ـ بكل تأكيد . خمسين سنة ، خمسين سنة ، لم يتخلف يوماً عن الخامسة ، دقات أقدامه ثابتة الإيقاع .. لماذا يتأخر اليوم ؟

لم تفهم ، كان لابد أن تقول شيئاً :

ـ لم ألاحظ ذلك يا أبى .

ـ أنت صغيرة ، ومشغولة بعيالك ، كان الله فى عونك .. و .. لم تكن غرفتك على الشارع .

أمال رأسه لناحية ، استجمع عضلات وجهه حول أذنيه ، قال بجدل طفولى:

ـ هوذا ، ألم أقل لك أنه لايمكن أن يتأخر . أيام الخدمة كنت أضبط ساعتى عليه !!

حاولت أن تستنتج ، أن تتذكر ما سلف من حكاياته ، حول المائدة ، فى السرير فى ليالى الشتاء حيث تتلاقى الأقدام الدافئة تحت اللحاف ، على رمال الشاطئ تحت الشمسية . لم تفلح . صمتها أغراه بالمعاودة :

ـ هو فعلا . بصراحة ، أنا الآن مشغول جداً بالتفكير فى هذا الأمر . لاتنزعجى إذا قلت لك إننى أريد أن أصل إلى كلمة نهائية فى الموضوع . الحياة قصيرة ، ولازم نحصل على يقين فى أمور محددة.

ـ طبعاطبعا يا بابا (لطفك يارب ، إلى أين يشرد وتسوقه هلوساته ؟)

ـ ما يجذبنى إله إيقاعه الثابت الجميل .

استنتجت أنه شئ طيب يحبه ، سارعت فى إظهار تأييدها .

ـ ياه !! لم أكن أعرف أنك شغوف به إلى هذه الدرجة .

ـ ولم لا ؟ ! السجين يتعود قيوده . فى الزمن الذى تولىّ .. ياسلام .. آ.. قلت لى .

وسَّدَتْ يده إلى جانبه أحكمت الغطاء ، تململ كطفل مدلل .

ـ نعم يانور عينى !

ـ لم أرى زوجك اليوم .

ـ نوبتجى ، بات فى المستشفى .

أغمض عينيه ، ابتسم ، أضاف :

ـ والبلابل الموسيقية ؟

ـ نائمون ، فرصة ، المدرسة عطلة ، فيها لجنة انتخاب .

ردّد مستهينا :

ـ انتخاب !! (تنهّد ، استجمع فكره ، دعك ذقنه برويّة) تعرفين يا رقية أحسن انتخاب حصل ؟

ـ فى مصر ؟

ـ فى أى مكان .

ـ لا أعرف .

ـ الانتخاب الطبيعى . هذا أحسن وأدق انتخاب فى تاريخ البشرية .

اتسعت ابتسامتها ، لم ينس مهنته القديمة ، خريج زراعة عتيق ، موجّه علوم غادر مكتبه فى الوزارة منذ ربع قرن . لم تدر كيف تقول . فتحت زجاجة الكبسول ، قدمت إليه كبسولة سوداء طويلة ، وأخرى بيضاء مستديرة، أشار إلى كوب الماء ، ضحكت بصوت لتبدّد صمت الغرفة ، قالت وهى تشعر أن كلماتها زائدة عن الحاجة ، لكنه كلام والسلام :

ـ برشام لتنشيط الذاكرة وأنسى تقديم الماء معه !! أنا أحق به منك .

قال مباهيا عن اقتناع :

ـ أنا ذاكرتى حديد ، أحمد الله عليها ، أنا .. أنا طفولتى أراها الآن أمامى ، كأننى لا أزال فيها ، صدقينى ، يخيّل لى أحياناً أننى أستطيع ركوب الدراجة ويداى فى الهواء !! ضحك حتى سعل.

وضحكت رقية حتى دمعت عيناها .

بذلت جهدا أن تتذكر أمرا آخر مما كان يتحدثان فيه لتعيده إليه ، فلم تكتشف كيف بدأ الكلام . أنقذها جرس الباب ودخول زوجها الذى اتجه فورا إلي الغرفة المضاءة ، استهلّ بضوضاء محسوبة :

ـ ما شاء الله ، عينى عليك باردة ، شاب ولا فى .. السبعين !!

ارتفعت معنوياته ، اتجهت عيناه إليه فى انتقال سريع كأنما يّدخر كلامه حتى يلقاه .

ـ اسمع يا خليفة يا ابنى ، تاقت نفسى إلى صلاة الفجر فى الجامع ، سأفعلها .. غدا ، فاهم !! سأفعلها .

بدون تردّد :

ـ فاهم ، فاهم ياعمىّ .

اتجهت إليه عينا زوجته محذرة من مغبّة المجاراة ، لكنه استمرّ :

ـ هذه الرغبة دليل القوة الكامنة ، وقدرة الجسد محكومة أصلا بحيوية الروح ، ربنا يزيد إيمانك.

ـ هذا رأيى ..

استعدّت رقية لإبداء مخاوفها ، همس إليها زوجها :

ـ من هنا لبكرة تفرج ، ووالدك فى وضع لم يعد يضره فيه شئ . اتركيه يحقق أى رغبة ممكنة ، هذا ما بقى له .

قالها بثقة علمية باردة ، وتقدم لجسّ النبض ، قال فور ملامسة الرسغ النحيل :

ـ ماشاء الله ، ولا الحصان .

استردّ وعيه الحاد بمطلبه الذى يتراءى له ويختفى كالسراب ، تأوّه من شئ غامض يضنيه . ردّد كأنه يملى :

ـ الحصان .. الحصان .

أغمض عينيه ، استسلم لدفء الفراش وهجمة النعاس . انسحب الزوجان برفق .

حين سمع أذان الفجر استنفر تصميمه المؤجل منذ زمن لايدريه ، توضأ بالماء الدافئ ، احتاط بعباءة الصوف ، مشى على أطراف أصابعه ، وقف خلف الإمام وصلى بوقار من يستأذن للدخول إلى منطقة محميّة ترصدها شواخص لايراها . خرج ، اقترب من باب بيته ، جلس على مقعد حجرى مستنداً إلى جذع شجرة ، حين اقترب الإيقاع النشط وقف ، أشار بيده أوقف العربجى حصانه دون صياح يخدش صمت الصباح الباكر .

- أى خدمة ؟

- عندى سؤال :

أقصى الدهشة ، لكن ، فليكن ، ربما هى مقدمة إلى لقمة حلال :

- خير يا حاج ..

- أنا صاحب هذه الشقة (التفت إلى خلفه وأشار إلى فوق) أسمع خطوات حصانك هذا منذ خمسين سنة ..

لم يهتد الرجل إلى موضع ، فقال :

- ربنا يعطيك الصحة .. وبعدين ؟

استمرّ :

- فى نفس الوقت بالضبط . هل تتفضل بالتفسير ؟

زادت حيرة الشاب ، ماذا يقول ، أمعن فى وجه الشيخ ، تعاطف معه ، صباح الفل إن شاء الله الكلام الطيب حسنة . قال :

- بسيطة ياوالدى .. أنت تسمع الصوت من خمسين سنة كما قلت ..

- تمام ..

- من خمسين سنة كانت عربة غير العربة ، يركبها والدى ، وتجرها فرس ، هى جدّة هذا المهر.

أنهى كلامه وفرقع بكرباجه فى الفضاء ، تحركت العربة ، وانتظم إيقاع الأقدام ، تجدد لديه دافع لم يكن ، فارتفع صوته بالغناء .

موعد مع السفير

محض مصادفه ، لم يكن لى فيها قصد ، ولا أستطيع أن أحدّد مشاعرى: هل كنت سعيداً أو متضايقا . فجأة .. نزلت فرقة مسرحية فى نفس الفندق الذى نزلت به ، جاءت لتعرض فنّها فى تلك العاصمة النائية عن الوطن . عرفت فيما بعد أن « النجوم » فقط مع المنتج والمخرج هم الذين يقيمون فى هذا المستوى من الفنادق ، أما المساعدون ، والكومبارس ، ومن بينهما فينزلون . كلٌ حسب درجته - فى فنادق غربت بعض نجومها ، أو بغير نجوم . مهمتى تختلف كثيراً ، غير أننى معتاد على هذه العاصمة وهذا الفندق ، منذ سنوات أتلقى دعوة مجلس التخطيط لأنظر فى بعض شؤونه الإحصائية ، بخاصة فيما يتعلق بخطط التنمية ، باعتبارى أستاذا سابقا بالجامعة ، وعضوا مؤسسا لاتحاد المحاسبين العرب .. هذا يعنى أننى تجاوزت الستين ، وأننى - نسبيا لولا بعض هجمات الروماتيزم إذا اشتدّ البرد أو ارتفعت نسبة الرطوبة - أنعم بشيخوخة هادئة ، بل سعيدة ، إذا دخل فى التقييم اهتمام بعض الجهات الخارجية بخبرتى ، وعروضهم المتكررة لزيارتهم . هل يقرّب هذا وصف مشاعرى تجاه الفرقة المسرحية التى هبطت فجأة فى غرف الجناح الذى تقع غرفتى فى بدايته ؟ لقد بّددوا جانبا من الصمت الثقيل الذى يجثم أوائل الليل بعد أن ينصرف تلاميذى وأصدقائى القلائل فى تلك المدينة عائدين إلى حياتهم بين أسرهم . كانت غرف « النجوم السبعة» تظل مفتّحة الأبواب ، ثلاث فتيات فى ريعان الجمال وأبهة الاعتزاز بسلطانه ، وشابان وكهلان ..

الجميع يتنقلون بين الغرف كأنها ساحة ممتدة دون أى حذر أو تمهّل ، ثم ينتقلون بجملتهم إلى ساحة الفندق ، يحتلون مدخل الكافتيريا ، تسبقهم ضحكاتهم العالية ، وأهازيجهم المرحة ، ولا يلبث شبان المدينة ، وشيوخها ، وأطفالها ، ونساء من كل لون ومستوى ، حتى من المحجبات والعجائز ، أن يتجمعوا حولهم للحصول على توقيع ، أو التقاط صورة أو عرض مساعدة ، وأحياناً عرض خدمة أو تقديم هدية بسيطة .

هذا ما شاهدته دون تطفل ، أما الصحف فقد تولّت دفعى فى الاتجاهين المتعاكسين : تنشر صورهم وأخبارهم يومياً فأعرف كل شئ دون جهد ، وتغرى بطلب المزيد ، لأن شخصياتهم الشهيرة جدا ، المسيطرة على شاشة التلفاز دون منازع تجعل من مصادفة اقترابهم فرصة من الخطأ ألا تسفر عن شئ .. أىّ شئ !!

بعد استقرار المفاجأة وجدتنى جزءاً من الحركة المستمرة التى تجتاح الممر والغرف السبع ، وتكتسح موانع غرفتى من باب وجدران ، كما تلعب أمواج المد والجزر بقوقعه فارغة !! كان هذا مسلّياً أحياناً ، ومزعجا لى بصفة خاصة حين يعودون بعد انتهاء العرض ، قبيل الفجر ، لست أدرى على أى حال كانوا يعودون حاولت تخّيل ما يجرى فلم أوفّق ، غير أنهم - بكل تأكيد - كانوا يعتقدون أنه ليس فى الفندق سواهم ، أو - على أحسن افتراض - يظنون أن النوم استولى على النزلاء ولن يسمع أحد هرجهم الرهيب الذى يجّسده سكون الليل ، فتراه أعصابى المنزعجة فوضى هستيرية .

بعد يومين من وصول « النجوم » وجدت - تحت باب غرفتي - رسالة مكتوبة على أوراق الفندق ، قدّرت أنه صديق أو « معرفة » أسرعت عيني إلى آخر الورقة : هيثم الرفاعى ! من يكون هذا الهيثم الرفاعى ؟! لا أعرف أحدا بهذا الاسم ، قلّبت أوراق الذاكرة ، لم أجد له احتمالا ، قلت لعله طالب يتعلق بالدراسات العليا أو صاحب مؤسسة لم يحدد طريقة الاتصال به ، قلت لو كان لديه ما يريد بجد سيعاود الاتصال أو الحضور ، قبيل منتصف الليل جاءني صوته عبر الهاتف :

- أنا هيثم الرفاعى .

- تشرفنا .. أى خدمة ؟

- أنا الذى تشرفت يا أفندم صمت .

- هل طلبنى فى هذه الساعة المتأخرة ليتشرف ؟! اضطررت أن أفتح باب الكلام :

- تسلمت رسالتك ياسيد هيثم ، أىّ خدمة ؟

- يا أفندم . سعدنا كثيراً بتشريفك .

صمت مرة أخرى دون أن اكتشف ما وراء اتصاله :

- من إنسانيتك يا سيد هيثم .

- بل من واجبى يا أفندم . هذا الواجب أنا سعيد به غاية السعادة .

قلت باقتضاب يكتم عصبية محتملة :

- خلاص . أنت سعيد ، تمّ المراد .

- الله يخلّيك يا أفندم .

- طلبات سعادتك .

أخيراً ، وجد طريقا مباشرا :

- أبدا يا أفندم ، أنا مسؤول العلاقات العامة فى السفارة .

- آ .. تشرفنا .

- وسعادة السفير ، بمناسبة تشريفك هنا . يدعو سعادتك إلى حفل شاى فى حديقة السفارة ، غدا ، الساعة السادسة .

دهشت حقا ، لم أكن أتوقع . هل أملك وقتى غدا فى السادسة ؟! لكنه السفير ، الرجل الرمز للوطن ، من الصعب الاعتذار عن دعوة سفير .. مدى آخر للدعوة تمَّ اكتشافه فى هذه اللحظة ، قلت لأمنح نفسى فرصة للتفكير :

- هذا يسعدنى . اشكر سعادة السفير ، وسأراجع ارتباطاتى غدا ..

قاطعنى :

- لا يا أفندم ، أرجوك ، إنه حريص جداً على وجود سعادتك ، سيتصل بنفسه شخصيا ليتأكد من حضورك ، ويوجّه الدعوة بنفسه .. إننى أتصل للتمهيد فقط .

- آ .. شكرا يا سيد ..

- هيثم يا أفندم . هيثم الرفاعى .

ـ نعم ، ولكن ، حتى استعد للقاء ، ربما تعرف أننى كثير الشواغل ، هل هناك طلب معيّن وراء هذا الاتصال ؟

ـ أبدا ، أبدا ، مجرد أن تتشرف بوجود الجميع ويكتمل السرور .. و .. نقوم بالواجب ، بعض الواجب .

تمهلت قليلا لاستوعب المفردات الجديدة : الجميع ، السرور ، الواجب ؟ من هم « الجميع » ؟ وما السرور المنتظر ؟ ولماذا هذا الإحساس الفجائى بالواجب هذه المرّة بالذات ؟

قلت بشئ من المداعبة :

ـ سيد هيثم .. هل تعرفنى ؟ أقصد : هل أنت متأكد أنك لم تخطئ الشخص ؟

قال بحرارة :

ـ أبدا يا أفندم . هل يخفى القمر ؟ هذه المكالمة لتأكيد رسالتى ، أنا أعرف واجبى ، أنا مكلّف من سعادة السفير شخصياً.

ـ أعرف أنك مكلّف من سعادته شخصيا ، ولكنْ ، هل الدعوة لى .. تحديدا ؟

ـ مائه فى المائة .

ـ وما المناسبة ؟

ـ مناسبة وطنية كما لايخفى على سعادتك ، الصحافة تتحدث عن نجوم

بلدنا كل يوم، لابد أن نفعل شيئا ، هذا أقل واجب .

الآن .. تحددت المسائل . قلت :

- ولكنى لست من النجوم .

- هذا تواضع من سعادتك يا أفندم ، كلنا تلاميذ سعادتك ، سعادة السفير نفسه قال إنه درس على يديك فى كلية الحقوق فى عصرها الذهبى ، قال هذا بنفسه ، وكرر اسم سعادتك .

قلت بواقعية (دون ألم) :

- شوف ، مادامت الدعوة موجّهة أصلا إلى النجوم الذين تعرفهم فستكون ذات طابع معيّن ، أنا رجل متقدم فى العمر ، ولا أناسب هذه الجلسات اشكر سعادة السفير ، وبلّغه ...

قاطعنى :

- لا لا ، لن أبلغه غير أن سعادتك استجبت للدعوة . سيارات السفارة أمام الفندق قبل الموعد بربع ساعة .

- يا ..

- أرجوك يا أستاذنا ، لاتحرجنى .

- إذا ...

قطع الطريق بعبارة توشك أن تكون استنجاداً :

- يا أفندم ، يا أفندم ، أنا موظف علاقات عامة ، رضاء رؤسائى مرهون

بقدرتى على تنفيذ أوامرهم .

لم أجد ما أقوله غير :

ـ خلاص يا سيد هيثم ، أنا جاهز في الموعد إن شاء الله .

فيما بعد فكرت فى أمرين : أن أكون خارج الفندق حين يحلّ موعد الذهاب ، وبهذا يمكننى إذا ألجأتنى الضرورة أن اعتذر بالانشغال فى الخارج ، وأن أتحدّث مع جيرانى من نجوم الفن مباشرة وقد أصبح بيننا موعد مشترك ، لكننى رأيت أنه لايليق بى هذا الأسلوب فى التّهرب ، ولا أنكر أننى تألمت لهيثم ـ الذى لم أره ـ أن يشعر بأننى خذلته . ولعلّى أطلت التفكير فى الأمر الثانى وتحيّنت له الفرص ، غير أنى كنت أتراجع فى اللحظة الحاسمة ، واستكبر أن « أهبط » إلى رغبات العامة وأشباههم الذين يتفاخرون بأنهم صافحوا واحدا منهم أو التقطوا صورة مع آخر أو قضوا سهرة (ودفعوا الحساب) مع ثالث !! ترى : هل كانت هناك رغبة كامنة لا اتبيّنها ، وراء تراجعى عن فكرة ألاّ أذهب ؟!

قبيل الموعد المضروب ارتديت أبهى حلة معى ، ورباط عنق « آخر موضة » أهدى إلىّ عقب قدومى ، ومعه منديله من نفس اللون . نزلت لأودع مفتاح الغرفة لدى الاستعلامات . قال الموظف وراء الحاجز :

ـ بالسلامة . فى انتظاركم برنامج حافل .

قلت بدهشة : أى برنامج ؟

ـ الذى تستعد له سعادتك .. السفارة .

ـ السفارة !! ما أدراك ؟

ابتسامه ظريفة ناعمة ، تثبت حقه في خدمة نادرة أداها لى دون مقابل :

ـ هنا البداية !!

ـ البداية ؟! بداية ماذا ؟!

ـ ببساطة ، طلبوا الأسماء وأرقام الغرف ، أعطيتهم الأسماء والأرقام .. كل أسماء الجناح ... تركت الأمر لهم !!

فات وقت أى تصرّف غير الذهاب ، تلفتّ حولى، لم أجدا أحدا من أهل الفن ، كما هى العادة ، نائمون إلى آخر لحظة ، يذهبون متأخرين فتكون بداياتهم مع نهايات غيرهم .. ارتفع رصيد الضيق فى نفسى ، أحسست باختناق من يشعر أنه تورّط فيما لايجمل به أن يفعله ، حدقت فى ساعتى بذهن شارد ، الوقت أزف ولم اسمع نداءً ، وتعلّق الأمل بألا يحضر هيثم ، فهم موظف الفندق أسباب قلقى ، تطّوع :

ـ أكثرهم فى السوق ، سيذهبون إلى السفارة من هناك مباشرة . . بعضهم نائم ورفع السماعة .. هذه طريقة فى التمثيل والإخراج ، يذهب بعد أن يكتمل الجمع ويشعر بغيابه ، فيهل بطلعته وكأنه فتح الفتوح .. فنّ يا باشا .. فن !!

ظهر هيثم ، تقدم وعرفنى بشخصه ، لم يجد سواى ، دقّ على الغرف فذهب الرنين بغير جواب ، أمام ضيق الوقت أذعن مكرها ، حملنى وحيدا

بسيارة ، وترك الأخرى أمام الفندق ، لعل أحدا يأتى فجأة ..

لم أكن قادرا على تمعّن وجه هيثم ، كان فى قمه التوتر ، لكن العمل الدبلوماسى علّمه كيف يكتم انفعاله ، وأن يبقى معلق الأمل ولايظهر اليأس.

وصلنا متأخرين بضع دقائق . كان مدخل الحديقة غاصا بالسعاة وصغار الموظفين ، تقدمنى هيثم نصف خطوة تم استدار ليصافحنى بطريقة تمثيلية مضحكة ، إذ قال بكياسة لم أتقبلها لأنه كان بجوارى منذ لحظة :

ـ أرحب بسعادة الدكتور نيابة عن سعادة السفير .. تفضل .

تفضلت . فى نهاية الحديقة ثلاثة أشخاص يعزفون ، على جوانب المربع الأخضر موظفو السفارة فى رونقهم ، وبعض الضيوف يجلسون على موائد بيضاء نظيفة .. برقت فلاشات التصوير ودارت آلات الڤيديو وأنا أسير إلى وسط الحديقة . لم أشاهد أحدا من النجوم ، والسفير لم يكن موجودا ، يبدو أنه محتجب حتى يقال له هلّم فقد أقبلوا ..

جلست ، جاءنى فنجان من القهوة، ومعه الماء البارد ، اكتمل نصف الساعة ولم يتغير الوضع ، اقتربت الساعة ولاجديد !! فقد العازفون نشاطهم فتراخى العزف بالتدريج ، ثم توقف .

تذكرت الآن السفير لم يكن اتصل بى كما ذكر هيثم أنه سيفعل ، بحثت عنه عيناى فوجدته هناك مركونا ، ممطوطا فى تخاذل كأنه ثياب معلّقة على مسمار . أشرت إليه ، حاول أن يتصنّع أنه غير منتبه ، لكنى ألححت ، ناديت ، جاء .

لم أجد فى نفسى أية رغبة فى لومه ، بل مالت نفسى إلى مواساته . قلت :

ـ لاتتألم ، أنت أديت واجبك ، غيرك لم يفعل .

قال بصوت محايد ، عودته عليه طبيعه عمله :

ـ كانت فرصة لهم للتعرّف على سعادة السفير ، إنه شخصية رائعة ، لا أقول هذا لأننى أعمل معه ، لقد عملت مع غيره ولم يكن على هذا القدر من العظمة ، شخصية عظيمة بكل المعنى .. لكن ..

قلت :

ـ لاأمل طبعا فى حضورهم ، والناس يظهر عليهم الملل .

تمنيت أن أضيف : ويبدو أن السفير محتجب لهذا السبب .

قال : تقريباً .

قلت : إذاً ، نكتفى بالممكن الذى حدث ، وأعود إلى الفندق .

قال بثبات :

ـ أن على حق تشرفت بلقاء سعادتك .

أشار إلى سائق أن يتولى إرجاعى إلى الفندق . عند الباب صافحنى بيد باردة.

مناقشة

أشياء كثيرة لم يستطع أن يفهمها . محسن شرح له الأمر منذ سنوات . يحاول أن يتذكر فيحصل على ثوب ممزق يستعصى علاجه بالرقع . المناسبة القديمة يذكرها لطرافتها ، ولما هو حاصل الآن، دهش حتى أوشك أن يضحك ساخراً ، حين نادى بعض الأصدقاء أخاه بالدكتور . رأى وجه أخيه يتقبّل النداء بامتنان فتوقف عن شعور السخرية واستردّ الإحساس بقصور الفهم ، وأخذ يقلّب الأمر ، ، يؤمل أن يدركه أخوه . اليقين فى المسأله من أولها إلى آخرها أنه لم يرسل « محسن » إلى كلية الطب ، فى ذلك العام عرف كلمة جديدة : « المجموع » وعرف أن مجموع أخيه يحول بينه وبين كلية الطب التى تمناها. يومها كان موزعا بين الأسى لإفلات الأمل الذى داعب أخاه ، والفرح لتفادى كلية قال له الناس إنها طويلة وصعبة وباهظة التكاليف . قراريط الأرض الموروثة عن المرحوم لا تساعد . وهكذا عرف كلمة جديدة أخرى : كلية التجارة ، وكانت أحسن الممكن.

عجب كثيرا أن أخاه الصغير سيدرس التجارة . التجارة كما يشاهدها فى الكفر ، وما حوله من العزب لاتحتاج غير الفلوس ، والفهلوة . البقالون ، وتجاّر المواشى ، وتجّار القطن ، وبعد اتساع العمران وانتشار مبانى الطوب الأحمر والمسلّح : تجّار الأسمنت والحديد وغيرهم ، نشأوا فى المنطقة ، ومارسوا التجارة واغتنوا ، ولم نسمع أن أحدهم درس فى البندر أو ذهب إلى كلية محسن ، بل إن بعضهم لايعرف كيف يفك الخط ، مع هذا حافظة نقوده المصنوعة من الكتاّن تشبه جراب الحاوى ، تطلّ منها الأوراق الملوّنة ، وتضمن لصاحبها موقعا بين أعيان الناحية ، لايلبس غير الصوف « بجوز قطان »

وعلى كتفيه عباءة امبريال ، حتى فى عز الحرّ ، فهل يسعى محسن إلى أن يكون كذلك ؟ وهل الكلية هى الطريق الصحيح ؟

مع سنوات الكلية الأربع عرف بعض الأشياء . محسن شرح له دون أن يسأله ، محسن عطوف ، صاحب واجب ، بمجرد أن تخرّج واشتغل فى البنك تنازل لعبد الهادى عن نصيبه فى الميراث ، ولم ينقطع عن زيارة الكفر فى الأعياد ، وحين خاطبه بعض الأصدقاء بالدكتور كانت المباغتة مثيرة ، ولم يملك نظرات الدهشة : وصبر حتى أصبحا وحدهما :

- يعنى أنت الآن .. دكتور ؟

- سأكون ، بعد سنة أو سنتين .

- وتفتح عيادة فى الكفر ؟

ولم يضحك محسن : إنه يدرك الآن حجم المجاملة فى أنه لم يضحك . تحيّر قليلا ، ثم قال : الدكتور غير الطبيب ..

ردد عبدالهادى وراءه كأنما يستهدى بصوته فى ظلام دامس : الدكتور غير الطبيب .. مثلا ...

- مثلا .. طه حسين .. الدكتور طه حسين ..

استدعت ذاكرته اسم طه حسين مقرونا بتمثيلية سمعها مصادفة فى الراديو ، وحرص على متابعتها .. فرح بالمعلومة التى تعطيه موقعا إيجابيا فى الحوار :

- على هامش السيرة ؟!

قالها بتلذذ شديد ، وكأنما يسمعها بصوت المذيع ، الممتلئ الواثق

المتعالى..ضحك محسن بغير استهانة . قال :

- تقريبا . هو دكتور فى .. فى الأدب ، القصص ، التاريخ .. يعنى ..

- وأنت ؟!

- فى إدارة الأعمال ، إن شاء الله .. دعواتك يا عبد الهادى .سكت دون أن يسأله عن إدارة الأعمال .

حين ناداه فراش المدرسة ، المتطوعّ لتوزيع بريد الكفر ، عرف أن الجواب من محسن . نادرا ما يتلقى رسائل من غيره . صدق حدسه بمجرد رؤية الخط، نزل عن ظهر الحمار ليتمكن من القراءة . محسن يكتب إليه بخط كبير حتى لايحتاج إلى من يقرأ له ، وهو ما تضطره إليه مراسلات الجمعية التعاونية ومنطقة الإصلاح الزراعى .ذات مرة امتدح كتابة أخيه ، فقال :

- فاقد الشئ لايعطيه ، من مبادئ إدارة الأعمال أن تكون محددا ، واضحا . مرة أخرى سكت دون أن يفهم . ترك الحمار يدرج على جسر القناة ، وفرد الرسالة بين يديه ، يمسك طرفى الورقة بإحكام ، اختل وزاغت عيناه فى نطق بعض الكلمات ، وفهم بعض آخر ، لكنه اطمأن إلى الخلاصة : حضور مناقشة الدكتوراه بمقر الكلية يوم كذا وسيناقشنى الدكتور ، والدكتور ، والدكتورة .. ما هذا ؟ لم يصدّق عينيه .. أعاد النظر ، تمعّن ، تهجّى الكلمة حرفا بعد حرف ، وتأكد من وجود تاء التأنيث مثل صخرة .. دكتورة .. ست.. مرة ، تناقش رجلا فى حجم محسن ، وأبهته ، ووظيفته الكبيرة فى البنك ، وتقول له : اذهب فقد أصبحت دكتورا ، أو تقول له : على داركم أنت ساقط ؟! هذا ما لايمكن تصوره . لقد رأي أبلوات المدرسة ، مجرد بنات صغيرات يقمن بتحفيظ الأناشيد للأطفال ، إحداهن اخطأت فى تحفيظ سورة

« إقرأ » واكتشفها شيخ الجامع حين سمع ابنته تردد الخطأ ، فذهب إلى «الأبلة » وصحح لها . ورأى دكتورة فى مستشفى المركز تكشف على الحريم،وتعطى الحقن للأطفال ، وللكبار أحيانا . هذا يمكن فهمه .. أما أن تمتحن « محسن » فهذا مالايمكن قبوله . شرد خياله . كان الحمار قد شرد بعيدا فلم ينتبه إليه ، هل يحق للحاجة سعدية أن تناقشة ؟ إنها أم أولاده الخمسة ، ابنهما البكرى فى العام القادم ثانوية عامة ، أخذها معه إلى الديار المقدسة وعادا حاجين ، يزرع فدانها الذى ورثته عن أمها ، وبه وبما تنازل محسن عنه ، مع ما ورثه هو ، أصبح عبدالهادى ـ مع لقب الحاج وهو دون الخمسين ـ عينا من الأعيان . سعدية لم تخرج عن حدودها أبدا وكانت إذا أزعجه أمر ورغب فى أخذ رأيها ، أو الاطمئنان إلى رأيه من خلال إعلانه أمامها ، لاتزيد عن أن تهمس له : الرأى رأيك ، والشورة شورتك يا حاج !! مضى عليه زمن وهو يضيق بتكاليف فلاحة الأرض . العيال كلهم فى المدارس ، وعمال اليومية ذهبوا إلى الأردن والعراق ، وأسعار المحصول محكومة بتوريده إلى الحكومة .. فلو أنه ، يعنى ، لو أمكن ، يبيع أرضه ، وفدان سعدية ، ويشترى شاحنه بمقطورة . التوبة عن الفلاحة غنيمة . الذين سبقوه إلى كار النقل ، انتعشت حياتهم وتصدّر التلفزيون الملّون واجهات بيوتهم ، واعترف له أحدهم متخطيا حاجز « دارى على شمعتك » بأن النقلة الواحدة إلى الاسكندرية تأتى بمائتى جنيه فى أربع وعشرين ساعة ، ولعل المهنة التى يتوق إليها تقربه من أخيه أكثر . محسن لم يتأفف من عبدالهادى أبدا ، صاحب واجب ولايعرف العيب ، كان يلقاه فى ساحة البنك أو فى مكتبه فيعانقه ، ويقبله ، ويقول اسمه لجميع الجالسين فى المكتب . هذا الاستقبال كان يفرض على عبدالهادى طقوسا معنية : حلاقة جديدة ، وجلبابا مكويا ،

وحذاء لامعا، ومسبحة و عصا ، ومنديلا وربما أكثر فى جيب الصديرى ، وشيال يسير وراءه يحمل ما طاب من خيرات الريف . أما حين يركب الشاحنة إلى جوار السائق ، فإنه سيعدّ تقريبا من أهل البندر ،والتجار ، ويمكنه أن يرى أخاه في أوقات متقاربه ،ويفيد من توجيهاته . بعد « المناقشة » سيكون أخوه دكتورا ، والدكتور يناسبه أن يكون أخوه صاحب سيارة نقل ، أو سيارات نقل ، وهو توسّع ممكن ، ويمكن أن يمارسه دون أن يوصف بالكذب ، أما الفلاح فلن يكون إلاّ فلاحا ، وإذا قال « من الأعيان » ، فقد ألقى بنفسه فى متاهة ليس لها حدود .

ناداه صوت من بعيد ، استرده من شروده ، كان الحمار يهيم فى مساحات البرسيم الممتدة ، عرف صاحب الصوت ، ورآه يطارد الحمار ، ثم يقبض على عنقه ، ليعيده إليه . خاطب نفسه بصوت واضح : « لايهم . إنه من عيالنا ، ولاضرر فى أن يأخذ الحمار حنكين برسيم » قبل أن يطوى الرسالة قرأها مرة أخرى . بعد أن استوى على ظهر الدابة راح يستعيد كلماتها اكتشف العجب فى كلمة قرأها ، وشغلته عنها حكاية الدكتورة وهى لاتقل عنها إثارة للدهشة.. « المناقشة » !! إنه يعرف المناقشة ، وكثيراً ما شارك فى مناقشات، فى « المضيفة » فى ليالى رمضان ، بين أرباع القرآن ، وفى ظل الجامع حين يشتد هجير الصيف ، وفى ظروف مختلفة . لكن هذه المناقشات لايحدّد لها موعد ، إنها تبدأ حسب الظروف ، وتنتهى حسب الظروف أيضا ، ليس بالنادر أن تنتهى بتبادل الاستهزاء أو الشتائم .. وربما الضرب أو تبادل القذف بالأحذية، إلى أن يتدخل كبير من رجال الكفر فينهى المناقشة . لا أحد - فى مناقشات القرية - يعرف ما سيقوله قبل أن يقوله ، وقد يلزم الصمت غلباوى مناكف تعوّد الناس أنه يشعل الحرائق فى كل نقاش ، وقد يتهور

حليم ويتمادى حتى يخرج من المناقشة ضاربا ، أو مضروبا .. حسب التساهيل .

فكيف ستكون هذه المناقشة التى يدعوه محسن لحضورها ؟

وذهب ، مشدودا على كافة العناصر الطقوسية حتى أوشك ألاّ يعرف صورته فى المرآه . استدلّ على المكان فى المبنى المترامى ، مستخدما مفتاح «المناقشة » ولكنه لم يهتد إلى مكان أخيه ، وقف يدافع طوفان القادمين حتى داخ وأوشك على الغرق ، أدركته يد عاطفة لم يعرف صاحبها ، قال له : أنا تلميذ الدكتور وموظف عنده فى المكتب ، وسبق أن رأيتك .. اليوم عيد وأخوك العريس .. الدكتوراه بداية ، وسيكون وزيرا بعد سنة أو سنتين !! جذبه من كمّه الواسع وأجلسه بجانبه فى الصف الثانى وكان المدرج يمتلئ على مهل ، ولكن بتصميم . أدهشته مسأله الوزارة ، وقال هى مبالغات موظف فرحان برئيسه ، محسن لايزال صغيرا ، لم يتجاوز الثلاثين إلاّ بالقليل ، وكيف يكون وزيرا ويمتحنه هؤلاء الدكاترة الأكبر سنا ومقاماً ؟ أليسوا أحق منه ؟ وإذا كان وزيرا ، أو حتى سيكون ، يجب أن يمتحنه رئيس الوزراء مثلا ، أو الوزراء زملاؤه !! بحث عن شئ محدد ، فسأل جاره عن أخيه : قال :

- الدكتور فى استراحة الأساتذة مع اللجنة .

- اللجنة ؟! لجنة ماذا ؟

- المناقشة .

لم يفهم كيف تكون لجنة امتحان وتسمح للتلميذ بالجلوس معها ، حتى وإن كان كبيرا !! ألا يجوز أن يعرف الاسئلة ، أو أن يتحدث مغرض عن أن الامتحان شكلى وأن المسألة « كوسه » ؟! محسن أدرى بأموره ، ولكنّ الحذر

واجب قبل أن يفضى إلى جاره بشئ مما أقلقه انسحبت ضوضاء القاعة رويدا ، ثم فجأة ساد الصمت ووقف الجميع ، فوقف معهم ، ودخلت اللجنة . أربع عباءات سوداء فضفاضة ، تتحرك بداخلها شخوص . زاغت نظراته يبحث عن أخيه ، اكتشف أنه آخرهم ، وبعد أن أخذوا مواقعهم فى جانب ، وأخوه - وحده - فى جانب اكتشف أيضا أن عباءته ليست مزركشة باللون الأصفر مثل اللجنة. انشغل قليلا بمحاولة لفت انتباه أخيه إليه ، لم تنجح المحاولة ، كان غارقا فى تقليب أوراق صغيرة أمامه ، ومبادلة جلوس الصف الأول الابتسام . قام الموظف من مكانه ، صافح « محسن» وعدّل من وضع الميكرفون أمامه ، حين عاد تبعته عينا محسن فالتقتا بعينى أخيه . أحّس عبدالهادى بروعة اللحظة وجلال الموقف حين صافحه وجه أخيه . وقال رجل الوسط « بسم الله الرحمن الرحيم » وهنا تركزت الأنظار على المنصة ، وتذكر عبدالهادى وجود الدكتورة، فطرح الدهشة وتمعّن فى الوجوه كانت على الشمال . يا للروعة !! لم يستطع أن يجمع بين السماع والمشاهدة ، كانت جميلة فى وقار وهيبة تشكك فى طبيعة الأنثى كما يعرفها . ضايقه أن رئيس الجنة ذكر اسم أخيه مسبوقا بصفة « الطالب » وأرضاه ماعدد من نشاطاته ، وعناوين كتبه حتى أيقن أن هذا الأخر جديد تماما لم تسبق له معرفته .. الدكتورة شديدة الاعتناء بحاجبيها وشفتيها .. لها لغد خفيف ناعم تحت ذقنها ، ينسجم تماما مع امتلاء وجهها ونظارتها الذهبية .. حتى لوكانت صففت شعرها فى بيتها ساعة حضورها ، كيف حافظت على تنسيقة الرائع إلى هنا ؟ ولكن العجب كيف يتسع هذا الرأس الجميل لكلام أكثر من الذى يعرفه محسن ، مع أن الناس جميعا تشهد له بالذكاء والقيمة ؟!

وبدأ محسن يلقى خطبته ، فهم الكلمات الأولى ثم غاب كل شئ ، ولم

يبق إلاّ وجه الدكتورة . تأمل وجهها الهادئ ونظرتها المستقرة وتساءل : هل هي امرأة عادية تؤدى دورا إستثنائيا ؟ حين تعود إلى بيتها هل تطبخ وتكنس ؟ طبعا عندها خادم ، وربما أكثر ، ولكن هناك من أعمال المرأة مالايغنى فيه الخدم .. واجبات الزوجية !! هل يعقل أن تتجرد دكتورة من ثيابها ، هذا الوقار وتلك النظرات الرزنية ، هل تتحول أمام رجلها إلى نزق واشتهاء وإثارة ؟!

لم تكن هذه طريقة تفكير عبدالهادى فى النساء ، إنه يتعامل عادة مع الأشياء كما هى ، كما تبدو مرتبطة بظروفها ، مرة أذيعت صلاة الجمعة فى التلفزيون ، وكان شيخ الأزهر يخطب ، كان عملاقا فارها يقذف بالكلمات وكأنها أحجار البراكين ، قال ولد خبيث من عيال العائلة : عندما يريد شيخ الأزهر أن يستحم اعتقد أنه يقف تحت الدش بالعمة والجبة ولايقف عاريا مثلنا. قبل أن يضحك أحد كان عبدالهادى قد أعلن غضبه وأسكت الجهاز لكنه واجه شيئا من هذا حين رحل مع زوجته للحج . حين برح الشوق واستبدّ الزهد والتجرد بالنفوس تراجع حنينه إلى سعدية ، وأوشك أن يستنكر تطلعه إلى جسدها ، وهكذا وجدها ، ولكنهما ما أن انفصلا عن اليابسة ، وركبا سفينة العودة ، حتى عاد إليها ، وعادت إليه أكثر رغبة فى إرضائه مما كانت، لأنها عثرت فى المواعظ على أساس دينى لتفنن المرأة فى استجلاب محبة زوجها . غير أنه وقد أعياه تتبع المناقشة المحتدمة لاحظ أن كل مشاجرة حوارية تنتهى باستسلام أخيه وإقراره بالخطأ ، أو بالصمت وإمساك القلم وتعديل بعض الكتابة الممتدة بلا نهاية فى دفتر ضخم أمامه . وفى مرة ضحك الحاضرون وصفق بعضم طربا لأن عضو اليمين قال : أنت تحدد

مواصفات المدير وكأنه الذى يدير ظهره للعاملين ، ويفكر فى العمل وحده .
انتشرت حبات العرق على وجه محسن حتى استعان بمنديلين على التتابع ، واغتاظ عبد الهادى حتى فكر فى الردّ على عضو اليمين ولو بأى كلام ، ولكنه خشى نتيجة هذه الاندفاعة على أخيه .. قال فى نفسه :« ساقط ساقط وعليه العوض » ويبدو أن جاره الموظف كان منتبهاً إليه أكثر مما يظن ، فلاحظ تفززه ، ومن ثم قال مطمئنا : ولايهمك يا أخ .. النتيجة مقررة .. دكتور يعنى دكتور ..

ـ وهذه الأخطاء ؟ وهذا الضحك ؟

ـ استعراض عضلات .

« وهذا الوجه الممتلئ بالجمال والوقار ، هل سيستعرض عضلاته أيضا ؟ وكيف ؟ يا سلام لو أن هذه الدكتورة البطة عندنا فى الدار تجتاز حوش الدجاج وهى بقميص النوم ، وتحمل إناء دشيش الذرة تنثرة على الكتاكيت!! » تطلع إلى يديها ، وكانت تخرج منديلا من الحقيبة أمامها : « أصابع ملبن مسقى بالحليب » ولاحظ خاتما ماسيا يشعّ نورا ، فشم أريج الياسمين يتنشر ، يفوح من جسدها المضئ ، ورقّ قلبه لها فرفض العبث بها ، وألغى بحزم موقعها بين الدجاج ، وقرر أنها فى مكانها المناسب فعلا ، وبعد قليل أتى بالحاجة سعدية مكانها ، وأجلسها على المنصة ، ورآها تعدّل من وضع شالها الأحمر ، وتمسح جانبى فمها بإصبعيها ، ثم تصلى على النبى وتقول : «محسن عم عيالى ، وطول عمره مجتهد ، ولكل مجتهد نصيب ، والدكتور حلال عليه » ابتسم لحالة العجز الى تعانيها سعدية ، وكيف أنها ـ حتى على لسانه ـ لم تقل أكثر من ثلاث كلمات ، واتسعت ابتسامته حتى ظهر صدأ

أسنانه حين أمر سعدية بالانصراف ، ووضع مكانها البنت عزيزة التى تساعد الحاجة فى شغل الدار . عزيزة أقرب إلى البلاهة ، هو نفسه يسميها « أبو الهول » ولهذا فإنها حين أخذت مكان الدكتورة على المنصة لم تزد عن أن قالت :« بلاوى ايه دى يا أخواتى .. مين اللى جابنى هنا ؟! » ولم يملك عبدالهادى نفسه من الضحك والتصفيق طربا لمشهد البنت وهى محاصرة بمئات العيون ، واندمج طربه وتصفيقه فى تحية الجمهور للدكتورة التى بدأت مناقشتها لأخيه .

خطف عقله بريق أسنانها ، طريقة نطقها لحرف القاف ، الشبكة السوداء الرقيقة المزينة بحبات اللؤلؤ الصغيرة ، تغطى بها شعرها ، ولم يتبّينها من قبل ومحسن يردّ عليها بعبارة ثابتة : أستاذتى الفاضلة ، أستاذتى الكريمة ، أستاذتى الجليلة .. والأستاذة لاتترفق به ، وقد دار بينهما حوار ملتهب عن «السياسات ». طول عمرة يسمع « السياسة » ، وهو معدود بين أهل الكفر ممن يفهمون فى السياسة ، ويعرفون الكثير عن الصراع بين روسيا وأمريكا ، ومواقف الدول العربية بين العرب وإسرائيل ، ولكن « السياسات» هذه لم يسمع بها من قبل . لابد أنها تتصل بالبيع والشراء ، لأن الدكتورة تقول : «السياسات التسويقية » وقبل أن يحسم القضية كانت قد انتقلت إلى المستوى التكتيكى والمستوى الاستراتيجى للتخطيط . أعياه الجهد ولم يستطع نطق الكلمات أو تخيل حروفها مكتوبة ، فقرر الكف عن المحاولة .. ولم يدرك أبدا ما يقوله محسن عن الفرق بين كسب معركة ، وكسب الحرب ، فالمعركة هى الحرب بعينها ، لكن الدكتورة توافق « محسن » على ضرورة وجود فروق فى السياسات ، واتفاق فى الأهداف .

انتهت المناقشة ، صفق الحاضرون ، وقفوا ، انصرفت اللجنة وبقى محسن

هذه المرة ، رأى الناس يندفعون إليه مهنئين ، تعجب لأنه لم يسمع ما يستحق عليه أخوه التهنئة ، لكنه انساق فى الطابور وصافحه ، محسن انحنى وقبله.. كان سعيدا جدا بهذه القبلة المعلنة .. وبعد دقائق أصبح محسن دكتورا بالفعل، التقطت صور ، انصرف الناس فى مجموعات ، اختفى الدكتور الجديد ضمن إحداها ، وجد عبد الهادى نفسه وحيدا قرب باب المدرج .. التمس العذر لأخيه ، قرر العودة إلى البلد ، فلابد أن أخاه سيلحق به ليرى فرحة الناس باللقب الجديد . كان شديد الانبهار بكل ما رأى وما سمع ، بذل مجهودا عنيدا فى استعادة بعض الكلمات ، وتخيلها منغمة على إيقاع عجلات القطار . لم يستطع أن يستعيد التكتيكى والاستراتيجى أبدا . رنا إلى وجه الدكتورة فى عتاب ، واستحضر شفتيها الوردتين فى الوجه الممتلئ الوقور ، ولكنه أبدا لم يعرف كيف ينطقهما .. غادر المنطقة الصعبة وراق له أن يرى صورة المدينة من خلال جلسة المناقشة ، المدينة الأخرى التى لم يعرفها ، قرر أن يطلب من سعدية بيع الفدان لشراء الشاحنة والمقطورة .. سيكون بهذا أقرب إلى المدينة .. وخطرت الدكتورة فى قميض النوم تحمل إناء دشيش الذرة تنثره بين الكتاكيت فى باحة الدار ، فتقدم إليها يطلب أن تبيع الفدان الذى ورثته عن أمها ليتمكن من شراء الشاحنة .. اعتقد أن صفته كزوج تعطيه الحق فى أن يطلب فيجاب ، لكن الدكتورة رفعت وجهها حتى انعكس الضوء على مرايا نظارتها وبرق اللؤلؤ فى شبكة شعرها ، ثم قالت وهى تنقر سطح المنصة بكعب القلم : الأرض لاتباع يا عبدالهادى ، وركوب الشاحنة يقضى على الرسوخ والاستقرار . حاول أن يغضب ولكنها حدجته بنظرة تقوّس لها حاجباها الجميلان فى تحذير محبوب ، فجمدت ملامحه ، وتناسى ما كان فيه ، وكأنه لم يعبر بفكره.

حين نزل فى محطة الكفر حمد الله أنّ سعدية غير الدكتورة .. تخلّص من تسلّط المناقشة على رأسه ، وتأهب لاسترداد كل ما كان يشغله قبل سفره وأعدّ خطته لمفاتحة الحاجة فى بيع الفدان ، وهو يمنى النفس بموافقة فورية لايشك فيها ، هذه ليلة مسرات ، محسن أصبح دكتورا ، ورجل الدار عائد من البندر ويريد أن يأوى إلى فراشة مبكرا ، والحاجة طلبت نوعا من الحلوى ، فجاء بنوعين وضاعف الكمية . حين جلسوا إلى العشاء ، قال عبد الهادى وكأنه لايعطى بالاً لما يقول :

ـ سنعرض الفدان مع أرض العلو للبيع ، ونشترى الشاحنة .. يمكن ربنا يصلح حالنا زى ما صلح حال الدكتور ..

قال ذلك وهو يقضم فخذ البطة ويرمق المتحلقين حول المائدة من تحت لتحت. لم تقل الحاجة ما كان يتوقع منها : « الأمر أمرك والشورة شورتك » توقفت عن المضغ ، وكوّمت أمامه مزيدا من اللحم وهى تقول :

ـ الأرض ضمان .. العجلات على كف عفريت ..

ـ يعنى ؟

ـ استخرت الله وفكرت .. فدان أمى لايباع أبدا ..

وقبل أن يستوعب عبدالهادى معنى ما سمع ، كان ابنه البكرى يقول :

ـ وقراريط العلو خسارة .. كفاية فيها رائحة جدى .. كيف نعوضها .

غرس الملعقة فى تل الأرز أمامه ، قام دون كلمة .. لم يتوقف ابنه البكرى عن تناول الطعام ، بل أضاف فى هدوء :

ـ لماذا الغضب والأمر لايزال فى حدود المناقشة ؟!

الكابوس

فوق جسر ترابى منهار جلس ينظر إلى لاشئ ، وينتظر شيئا ، لاح سرب الفتيات من بعيد ، وجرار الماء قد مالت فوق رؤوسهن بزاويا متعانقة . تحسس صدره ، فوقعت يده على البطاقة ، وتنبهت لدقات قلبه . اختلط فى الدقات ايقاع الحب بتوتر الغضب الحزين ، لايدرى ما يفعل بالبطاقة . أصبحت مثل البغيض الذى ما من صداقته بد . لو ترك الأمر له لألقاها فى الترعة يجرفها التيار ، لعلها تخفف من معاناته العالقة بضميره مثل رائحة السمك ، تزداد حدة كراهة كلما امتدت بها الساعات !! أصبح السرب أمامه فيما يشبه نصف دائرة . أخرج البطاقة من جيبه ولوح بها ، محاولا أن يفرش على وجهه ابتسامه.

قالت وصبية ذات الثوب المطرز ، وقد اكتسى وجهها بابتسامة فيها العافية :

ـ مبارك عليك .. صرت رجلا ..

قال شكرى ، ولايزال يلوح بالبطاقة ، كأنما يجلب نسمة شاردة ، مع أن الجو كان فى أصيل يوم من بواكير الربيع :

ـ أنا طول عمرى رجل .. يا بنت !!

ضجت رفيقاتها بالضحك للخيالات المتوالدة من عبارته . ازداد وجه ذات الثوب المطرز احمرارا فازداد فتنة ، وأسبلت عينيها المشرعتين الواسعتين ، وأنتابها القلق للموقف فقالت :

- اذا كان كلامك صحيحا ، لماذا كل هذا الفرح بورقة لاتقدم ولاتؤخر ؟

- ماذا أفعل ؟ تعليمات الحكومة ، والمدرسة جعلت ذلك شرطا للتسجيل . كل من يبلغ السادسة عشرة عليه أن يذهب إلى البندر ، ويستخرج بطاقة من السجل المدنى .

قالت واحدة فى آخر الصف :

- أنا تجاوزت السادسة عشرة ، وليس عندى بطاقة !!

ضربت احدى رفيقاتها بكفها على كتفيها وكفلها ، وهتفت مازحة :

- مثل القطط تأكلين وتنكرين ، تجاوزت السادسة عشرة ، فأين اللحم ؟

غضبت غضبا سعيدا . قالت :

- اللحم (موضة) قديمة ، تفرح به الفتيات مثلك .

استولت على ذات الثوب المطرز رغبة فى استعادة الصدارة قالت :

- ماذا أحضرت من البندر ؟

- البطاقة !!

- غير البطاقة ؟

تلعثم . اضطرب ، فكر و فكر فيها بشغف :

- الحقيقة .. تمنيت أن أحضر شيئا أخر ، ولو رطل هريسة أو منديل نايلون، لكن للأسف . دخلت معركة .

شهق البعض ، وهتف أكثر من فم بخوف حقيقى :

ـ معركة !!

ـ وفى قسم الشرطة .

ـ الشرطة !!

جحظت نظرته وهو يطوى البطاقة ويعيدها إلى جيبه . قالت ذات الثوب المطرز :

ـ العساكر ليس فى قلوبهم رحمة .

قال شكرى :

ـ صحيح . لكن : أنا شكرى والأجر على الله ، كسرت أنفه .

ـ كسرت أنفه ؟! مصيبة ، لابد من تلفيق تهمة .

ـ كسرت أنفه يعنى : دست كرامته ، وجعلته يستجير .

حظى بنظرة اعجاب منها . اعجاب ممزوج بالتمنى ، وكأنها تقول : (عسى أن يكون ذلك صحيحا) . أما التى تجاوزت الستة عشر ربيعا فقد قالت متشككة :

ـ أنت تدوس كرامة عسكرى ؟

قال مندفعا :

ـ طبعا ، ولايهمنى . مادامت لم أبدأ بالاعتداء . المواطن لازم يعرف حقه ويدافع عنه بكل الوسائل المشروعة .

لم تفهم العبارة الأخيرة . عادت تقول :

ـ كلام مدارس ، مثل أكل المطاعم ، منظر ولا فائدة .

ـ صحيح كلام مدارس يفهمه المتعلمون ،ولهذا حين هددنى العسكرى دخلت إلى ضابط القسم ، وشرحت له الموقف .

كانت ذات الثوب المطرز تشرب كلماته ، ولهذا ضايقها اعتراض صاحبتها بين آونة وأخرى ، أرادت أن تصيب هدفها المزدوج بكلمة واحدة .فقالت :

ـ لماذا لا تقص علينا الحكاية من أولها ؟

قرنت كلمتها بأن انحنت إلى الأمام قليلا ، وتلقت جرتها بين يديها ، معلنة بذلك استعدادها لوقوف طويل ، وما لبثت الجرار أن نزلت تباعا.

قال شكرى :

ـ المسألة بسيطة ، أنا فى البداية لم أفكر فى التدخل . كل شخص مسئول عن نفسه . قدمت الاستمارة ووقفت أنتظر نداء اسمى . جاء فلاح معه صرة طعام ، وتقدم إلى العسكرى ، ورجاه أن يتيح له مقابلة أخيه العجوز فى سجن القسم للتحقيق .

احداهن شرد خيالها ، تساءلت ببراءة :

ـ المحجوز أخو العسكرى ، أم أخو الفلاح ؟

تضايق شكرى للمقاطعة التى تدل على قصور واضح فى استيعاب كلامه، أما التى تجاوزت الستة عشر ربيعا فقد قالت ساخرة :

ـ أخو العسكرى !! ربنا يشفى الكلاب ويضرك ، هل سمعنا عن عسكرى

سجن أخاه ؟!

وتدخلت أخرى :

ـ ولو سجن العسكرى أخاه سيفرش له السجاد ويجلس واضعا رجلا على رجل !!

وثالثة :

ـ ولا لزوم للفلاح فى الحكاية !!

صرخت صاحبة التساؤل البرئ :

ـ خلاص يا جماعة . هل أنا كفرت ؟ أنا غبية ، تبرأوا منى ، وينتهى الأمر .

استأنف شكرى حكايته وكأن شيئا لم يحدث :

ـ فاتنى أن أذكر أن الفلاح كان معه ابنته الصغيرة . المهم . تقدم ضارعا نحو العسكرى ، وجرى بينهما الحوار بهذه الطريقة :

ـ وحياتك يا سيدنا العسكرى ، أنت رجل شهم ، وفيك مروءة .

ـ خلصنا .

ـ أخى !!

ـ ماله ؟ حكمدار القسم ؟

ـ محبوس تحت التحقيق .

ـ حصل لنا الشرف . وبعدين ؟

- وأريد رؤيته خمس دقائق أطمئنه أن الصلح سيتم .

- ممنوع .

- كلمة واحدة تطمئن الولد .

- ممنوع .

- ممنوع ممنوع . طيب ، فضل منك ، توصل هذه الصرة فيها رغيف وقطعة جبن ، أنظر بنفسك .

- قلنا .. منوع .

- أكل .. لانسان .. القسم لن يصرف له طعاما اليوم والتحقيق تأجل للغد.

- صحيح ، وأخوك مجرم لايستحق الأكل .

- استغفر الله العظيم ، أخى لم يسرق أحدا ، أخى حاول الحصول على أجره المغتصب.

- أخوك مسجون ، والمسجون مجرم ، هذا ما أعرفه .

- والأكل ! الرحمة فوق العدل.

- أنت رجل رذل ، ولا ينفع معك إلا الضرب .

قال شكرى :

- لحد هنا لم أستطع الصبر ، وخصوصا أن العسكرى خطف الصرة من يد

الرجل وضربها فى وجهه حتى تناثرت محتوياتها البائسة ، ودفعه إلى الخارج. شهقت الفتيات فزعا وألما :

ـ يضرب نعمة ربنا ؟!

ـ الضرب ضرب ، ولكن الذى آلمنى أن الفلاح وقف عاجزا . العساكر يملأون ساحة القسم مثل الدبابير ، وآلمنى أكثر أن بنته أجهشت بالبكاء ، وهى تتعلق بثوب أبيها المهزوم.

قبل أن تسقط بعض الدموع من الماقى الحزينة ، سارع شكرى لتأكيد دوره فى الحكاية :

ـ لم أصبر أكثر من ذلك . خرجت من الصف ، وتوجهت نحو العسكرى . قلت له :

ـ أنت لايحق لك اهانة مواطن بهذه الطريقة ، حتى لو كان على خطأ.

بصراحة اصفر وجهه .طبعا ، لم يتعود أن يعارضه أحد فأراد أن يرهبنى ، جعر صوته :

ـ وأنت ، ما دخلك ؟ إذا لم تلزم الصمت ألحقتك به.

فقلت دون اكتراث :

ـ افعل ان استطعت .. أليس فى البلد قانون ؟ أليس لهذا القسم رئيس ؟

وارتفع صوت العسكرى أكثر ، فرفعت صوتى أكثر وأكثر ، وهنا خرج الضابط من مكتبه يهرول نحونا.

قالت التى تجاوزت الستة عشر ربيعا :

ـ هنا الكلام .

ـ تمام !! حاول العسكرى أن يسبقنى بالكلام ، ويصور المسألة من وجهة نظره ، ولكنى منعته ، أوقفته عند حده ، وشرحت للضابط الموضوع من كل الجوانب .

عادت التى تجاوزت الستة عشر ربيعا تردد :

ـ هنا الكلام .

ـ فعلا . الضابط فكر فى الموضوع ، وفعلا وبخ العسكرى وأمره بجمع ما تناثر من الصرة ، واعادتها إلى الفلاح ، وتوصيله إلى أخيه فى الحجز.

قالت ذات التساؤل البرئ :

ـ ربنا يخليه ، ضابط ابن حلال صحيح .

خشيت ذات الثوب المطرز أن يتجه الاعجاب إلى الضابط ، فسارعت تدافع عن شكرى :

ـ المهم من الذى أسس الموضوع وأقنع الضابط ؟

واستدرك شكرى منقذا نفسه من الوضع السلبى الذى انتهى اليه ، فقال:

ـ الحقيقة أن الضابط قال أمام الجميع : أنا أشكرك يا أستاذ .. أنت مواطن صالح ، ولو أن كل شخص يدافع عن المظلوم بهذه الطريقة ، كان النظام يسود الجميع .

قالت ذات الثوب المطرز من أعماق قلبها :

- صح !!

* * *

بعد الانصراف من صلاة العشاء تجمع أصحاب الكفوف الناعمة من تلاميذ القرية ، وانطلقوا إلى الطريق الزراعى يتضاحكون ويتمشون فى ليل الربيع المقمر . كان الهم لايزال يجثم على صدر شكرى ، لم يجد إلى الفرار منه سبيلا .

وتسلسل الحوار بين الأصدقاء ، والتقط شكرى طرف الكلام وراح ينسجه فى أناة وهو يتخيل كل عبارة يقولها مجسدة تجرى أمامه ، ويتصور أركان المشهد ماثلين فى مواجهة وحضور كأنهم يؤدون أدوارهم المحفوظة فى تمثيلية محبوكة . لقد أدخل تعديلات مناسبة لمقتضى الحال ، فلم تكن مع الفلاح ابنته الطفلة ، بل أمه العجوز ، وحين خطف منه العسكرى صرة الطعام ودفعه خارجا ، فان هذه الأم تدهورت على الأرض وارتطم رأسها بالحائط ، ولكنها لم تأبه لما أصابها ، بل أخذت تولول : (ابنى . ابنى) لاتدرى على أى واحد من ابنيها تصيح : السجين خلف القضبان ، أم المضروب فى ساحة القسم !! كل هذا والناس فى الطابور يشاهدون !! يمصمصون شفاهم ثم تهرب نظراتهم ، وقد يلوم بعضهم الفلاح ، اذ كان الأولى به أن (يغمز) العسكرى بقطعة فضية وينتهى الاشكال .. قال شكرى :

- لم أستطع السيطرة على مشاعرى . صحت فى العسكرى :

تضرب امرأة فى عمر أمك ؟

قال العسكرى والشرر يتطاير من عينيه :

ـ الزم حدك ، اذا تدخلت فى شغلى تعرف شغلك .

بصراحة . فكرت فى التراجع لحظة ، لكنى أدركت أننى إذا تراجعت سأصير موضع سخرية الواقفين . وهنا قلت له : هل شغلك أن تضرب الناس ؟ افرض أنها أمك أو أمى أو أم أى واحد من هذا الجمهور ..

وهنا همهم بعض الواقفين . قال أحدهم : صحيح . وقال آخر : قلوب عديمة الانسانية . وقال ثالث : ويقولون الشرطة فى خدمة الشعب !! وهكذا .

وهنا أحس العسكرى أن دائرة الرفض تتسع ، فأسرع مهرولا يستنجد بالضابط ، وما لبث أن عاد خلفه يلهث ..

حين أدرك الواقفون أن العسكرى ذهب يستنجد برئيسه تحيرت خطوات بعضهم وفكر فى الانصراف تجنبا للشر ، ولكنى صحت بهم : كل واحد يلزم مكانه . الضابط متعلم ويفهم واجبه أكثر من العسكرى .. وساعدنى شخص آخر فقال : الضابط أو العسكرى ، ماذا تأخذ الريح من البلاط ؟!

وفعلا جاء الضابط وخلفه العسكرى يلهث وقد أشار إلى قائلاً :

ـ هذا الولد هو الذى يثير الشغب يا أفندم .

تتباعت ألوان مختلفة على وجه الضابط ، وتقدم نحوى .. وهنا تحفز جسمى كله للدفاع عن النفس ، وقلت فى سرى : هى موتة أو أكثر ؟! اذا مد

يده سأكسرها . وهنا تدخل عنصر جديد لم يكن فى الحسبان . قال الواقفون : هذا الشاب لم يخطئ ، الشرطى أهان المرأة العجوز وضرب ابنها أمامها ، وكلنا اعترضنا على سلوكه ..

اضطرب الضابط قليلا ،ولعله فكر أن القبض على هذا العدد الكبير غير ممكن ، ويسئ إليه عند رؤسائه ، فصمت قليلا ، ثم قال :

- خلاص يا جماعة .. اعتبروا المسألة منتهية ، تعال يا عسكرى .. وانصرف وأنا لا أكاد أصدق ، ولكن نظرات الاعجاب من الواقفين كانت تغرقنى فى الخجل ، لأنهم تأكدوا أنه لولا انطلاق أول اعتراض ما كان للاعتراض الثانى أن ينطلق !!

* * *

حين توغل ليل القرية ، واقترب من منتصفه ، وتأكد له أن والده راح فى سابع نومة ، وتفرق الأصحاب ، قصد دكان عبده الدخاخنى منسربا كالشعاع فى الحارات الضيقة . هناك وجد بعض الساهرين مصفوفين على أريكة فى مدخل الدكان ، وعبده يتسلى باستخراج قطع الصابون من صندوق ، ورصها على الأرفف .كان على الأريكة شيخ الخفراء ، وخياط القرية ، ومدرس بالمدرسة الابتدائية الوحيدة . ألقى شكرى السلام ، وناول الدخاخنى قرشين ، وأخذ سيجارة ، وما لبث أن أشعلها من المصباح المهبب فى المدخل ، ثم مال بشقة على الحاجز الخشبى ، وأخذ نفسا طويلا . شرد خياله إلي هناك ، لم يعرف كيف يفتح الموضوع من جديد ، لكن الخياط رفع عنه عناء المحاولة ، اذ

سأله :

ـ صحيح يا شكرى أنك ضربت العسكرى داخل القسم فى البندر ؟

ضحك بصوت عال ، دخان السيجارة جسد الضحكة فى دفعاته المتقطعة . أتاحت له الضحكة الطويلة أن يفكر بأناة فى الاجابة المناسبة . اهتدى إليها ، نثر رماد السيجارة بأن ضربها بسبابته برفق ثم سحب نفسا هادئا طويلا ، وترك الدخان ينغم كلماته :

ـ الأمر فيه مبالغة ..

ـ الحكاية ملأت البلد ، يقولون : لويت ذراعه ، ويقول آخرون أنك ضربته على أنفه وأسلت دمه !!

تهرب من تحديد ما حدث ، هو نفسه لم يعد يعرف الفرق بين ما حدث وما تمنى أن يحدث ، والآن لامفر من جواب مناسب :

ـ الحقيقة أن العسكرى أخذ صرة الطعام من الفلاح ، وقذفها بأقصى قوة إلى الشارع . انطلق الفلاح خلف صرته يستعيدها ، وكأن معه ابنه الصغير لايقدر المسئولية ، فشتم العسكرى وانطلق يلحق بأبيه ، لكن العسكرى طارد الصبى وضربه بكعب البندقية على كاحله فسقط على الأرض يتلوى ، وتركه وانصرف . هنا خفت أن يكون قد حدث لساق الصبى مكروه ، فذهبت فاستدعيت الاسعاف ، ثم توجهت إلى مكتب الضابط وأدليت بافادة حددت فيها مسئولية العسكرى عن اصابة الولد .

قال المدرس :

ـ والله أنت ضربته قاضية ، على الأقل يعرف أنه لن يمر دون عقاب .

قال شيخ الخفراء :

ـ والضابط ، ماذا فعل ؟

سأله الخياط :

ـ ماذا تظنه فعل ؟

داعب شيخ الخفراء ذؤابتى شاربه بلذة ، وهو يريح بندقيته الضخمة على رجليه وكأنها طفل يتوسدهما ،

ـ الضابط لايؤذى العسكرى .. مهما عمل ، حتى لو قال له كلمة أمامكم، سيرجع فيها ، ويطيب خاطره على انفراد .

قال الخياط بقلق :

ـ هل هذا ما حدث يا شكرى ؟

لم ينتظر المدرس جوابا ، اذ قال :

ـ الضابط متعلم ، ولايمكن أن يتفق سلوكه مع سلوك العسكرى ، وخصوصا حين يكون العسكرى على غلط .

حرك شكرى رأسه موافقا وانصرف ، وقد كادت سيجارته تنتهى . تسارعت خطواته فى حارات القرية ، وقد غرقت فى ظلام دامس ، اقتحم جوانب نفسه وأخذ يضغط كأنه وحش عملاق جثم على فريسه . نسى لشدة حزنه أن ينفخ كم نفسا فى الهواء ليطرد رائحة الدخان عن فمه فلا تشمه أمه.

وقف أمام الباب قليلا كأنه لايريد الدخول أحس برعشة تهز كيانه ، وندى الليل يتساقط غزيرا على رأسه وكتفيه . طرق الباب برفق ، لكن أمه التى اعتادت أن تظل قلقة حتى يعود ، التقطت أذناها الطرقات . نهضت تفتح له. ما كاد شكرى يرى قامتها تسد الباب ، ودفء جسمها يشع على روحه المقرورة، حتى ألقى بنفسه على كتفها كطفل ، وانسابت دموعه :

- لم أخطئ فى حقه يا أمى . قلت له عيب يا عسكرى تضرب رجلا مثل والدك . قال غاضبا : عسكرى يا ابن الكلب ، ثلاثة أشرطة وتقول عسكرى ، وتريد أن تعرفنى ما هو العيب ؟!

ذهبت إلى الضابط شاكيا ، لم يسمع منى ، استمع إليه ، ثم أشار إلى القيود الحديدية المعلقة فوق رأسه ، وقال : خلاص .. لم يعد عندنا شغل غير العيال. وقذف البطاقة فى وجهى وبصق ، وهو يقسم أنه لو رآنى مرة أخرى سيجعلنى أكلها أمامه .

مسألة ضمير

أحمد وسامى صديقان منذ أيام التلمذة الباكرة وفريق « النمر المفترس » ، للعب الكرة الشراب طبعا - فى حوارى المنصورة ، ولكنهما الآن أصبحا لايلتقيان إلا فى الاجازات ، فأحمد يعمل فى القاهرة ، أو بالأحرى يسكن القاهرة ويعمل بحسابات شركة الحديد والصلب فى ضاحية حلوان ، وسامى يعمل بأحد بيوت التصدير والاستيراد بالأسكندرية ، ولا سبيل إلى تلاقى الصديقين القديمين إلا على سبيل المصادفة - التى قد تفرضها ظروف ما - أو حين يعودان فى الصيف إلى مدينتهما - المنصورة - ليقضيا الاجازة السنوية .

وكانت تلك الليلة هى أخر ليالى أحمد فى المنصورة ، فأجازته تنتهى غداً، وعليه أن يتسلم عمله بعد غد . وقضى الصديقان ليلتهما على شاطئ النيل الأسمر المتدفق فى غير انقطاع - حول الحسان من رواد كازينو منيرفا . وحانت لحظة الفراق فوجبت المصافحة وكلمات الوداع ، وأزاح أحمد كرسيه لينهض، فدار إليه سامى معانقا ، وهو يردد أمنيته التقليدية الى ينهى بها حديثة كلما التقيا بعد انقطاع :

- أرجو أن نلتقى فى الأجازة القادمة ومعك امرأة وطفل !!

كان أحمد يلقى إلى صديقه بنصف اهتمامه ، اذ كان مشغولا بحساب ما تحتاجه رحلة الغد من لوازم ونفقات ، فقال معقبا ، وأنه لايعنى ما يقوله :

- أتزوج ؟!

قال سامى ضاحكا وهو ينفث ذيلا متقطعا من الدخان :

- لا .. تستأجرهما للتمويه !!

ـ ياه .. أنت متفائل جدا .. بمثل هذه السهولة .. فى عام واحد .. زوجة وطفل !! فارس .. فارس بدون شك .

فقال الآخر جادا وكأنه يعرض بعض مشكلته الخاصة :

ـ والله يا أحمد .. ماذا أقول ؟ المسألة لاتحتاج إلى فروسية .. ظروف .. ظروف لا أكثر .. هذا الحبل الذى تمتد بامتداده الحياة .. أعنى الزواج .. أحياناً يجدل فى بساطة متناهية ويتم فى هدوء وأحيانا تتشابك الخيوط وتتعقد فلا يتم الأمر إلا بعد جهد وعناء .. وقد لايتم ..

فطن أحمد إلى ما يعانى صديقه فقال مهونا دون أن يعنى الدخول فى جوهر الموضوع :

ـ يا شيخ .. فال الله ولافالك..

فاستمر الآخر وكأنه لم يتوقف :

ـ لقد وقعت فى يد جماعة اسكندرانية أوصلتنى اليهم ظروف العمل فخطبت ابنتهم .. انهم الآن يتسلون بعذابى . . ربنا يحميك من أمثالهم .. يذلوننى اذلال دولة ألقت السلاح أمام سطوة غريمتها ، فاستمر أحمد فى تهوينه متضاحكا :

ـ اذن لاحاجة بنا إلى خوض هذه الحرب غير المضمونة .. وكفى الله .. فقال سامى :

ـ أبداً .. المسألة محسوبة .. الزواج أو .. ولا ثالث لهما .. أنهم يقولون أن القاهرة مملوءة بذلك .

ـ وحياتك ياسى سامى لابذلك ولابهذا ، ثم انهم يقولون عن اسكندرية

نفس الشئ ، فهل هى دعابة تطلقها كل مدينة للتشنيع على غيرها ؟! ثم كيف تظن بى مثل هذه الأمور وأنت تعرف تاريخى ؟!

ـ ولكننى لا أعرف جغرافيتك وتضاريسك .. وسبحان من يغير ولايتغير..

ـ الا الضمير .. وأنا ضميرى من الماس ..

ـ وأين الانسان الذى يعيش بلاضمير ؟ كل انسان يولد بضميره كما يولد بأنفه أو عينيه ، ولكن بعضنا نجح فى تخديره .. أو خنقه أحيانا ، تحت شعارات مختلفة ، الظروف ، الوضع الاجتماعى ، حق الشباب فى المرح !! أشياء كهذة نقولها لضميرنا عند اللزوم فنكتفى شر العراك معه . ان الضمير كحارس الأرض الفضاء ، فى الواقع لايؤدى أية مهمة ، الا يذود الناس عنها ليثبت سلطانه عليها .

ـ ولكن الأرض فضاء بالنسبة لك فحسب .. أعنى .. بالنسبة للرجل ، لأن الاضرار لاتقع عليه فى صورة مادية منبوذة . أما الفتيات .. الامر يختلف.. تماما !!

ـ اذن لنحمد الله أننا نجونا من ضربة قدر لايرحم .. فخلقنا رجالا ..

قال أحمد جادا وقد استأثرت به الفكرة :

ـ هذا تفريق يقوم على الانانية ..

قال الآخر مندهشا :

ـ أتريد أن ترخى العنان للفتيات ؟

ـ على العكس .. اننى أنكر على نفسى ما أنكره على أختى .. حتى لو كانت الأرض فضاء .. يجب أن تظل بكرا ، يحميها حارسها إلى أن يسلمها

إلى صاحبها الشرعى ، والا تحولت .. ما تعرف . حملق سامى فى السماء ، وعد سبعة نجوم ، ثم نظر إلى صاحبه قائلا فى لهجة جدية مصطنعة :

- هل انضممت إلى جماعة صوفية ؟

- لا ..

- هل تلعب اليوجا ؟

- أبدا ..

- هل تأكل بعض الحلبة على الريق ؟

- أحيانا ..

- دوام على ذلك وسترى أن المغص سيزول بإذن واحد أحد .. وتعانقا ، وافترقا بعد أن تواصيا بكتابة الرسائل .. وهذا دأبهما عقب كل لقاء ، يبدأ بالعتاب على اهمال المراسلة ، والاعذار معروفة ومكررة .. وان كانت فى النهاية صادقة .

وما كاد أحمد يأخذ مكانه فى إحدى عربات الدرجة الثالثة ويضع حقيبته على الرف أمامه حتى رأى صديقه سامى يسير على الرصيف وفى صحبته فتاة عرفها على الفور ، إنها نبيلة أخته .. كم صارت جميلة ناضجة . تلك التى كانت تنط الحبل مع صويحباتها منذ سنوات قلائل ؟! وحسب ذهنه بسرعة المدة التى قضاها فى الوظيفة ولم ير فيها نبيلة ، فوجدها أربع سنوات أتبعها بآهه حزينة .. وقبل أن يستقر على رأى : هل من اللائق أن يناديه أو يتركه ، التقت عيونها ، فهتف سامى على الفور وهو يمسك بيد التى معه :

- بس .. ضاعت والتقيناها .. هذا هو الحارس الأمين !!

فوقف أحمد منحنيا حتى خرجت كتفه من نافذة العربة ، وقال متصنعا المرح :

ـ ذاك هو الكلب يا صديقى !!

ـ كلب .. قط .. أنت أيضا على كثب من عربة السبنسة .. المهم .. (وتأخر خطوة ليقدم أخته التى كانت تنظر إلى أظافرها وتداعب مفتاح ساعتها الصغيرة) هذه أختى نبيلة .. وأختك طبعا .. أنت تعرفها .. لاتدعها حتى توصلها إلى منزل خالتها .. الدقى ٣٧ شارع الدكتور كامل .. هى تعرف العنوان .

ـ ولماذا لم تحدثنى عن سفرها أمس ؟ أم أن السفر فجأة ؟!

ـ لا والله .. فقط أردت ألا أقلقك وأغير نظام سيرك ، وهى أيضا قد سافرت من قبل بمفردها وتعرف الطريق ..

تحركت الفتاة لتصعد إلى عربة القطار وقد أرسل زفيره وشهيقه استعداداً للانطلاق .. وأخوها يعتذر بصوت يحاول أن يغطى على ضجيج القطار :

ـ الذنب ذنبك .. أنت الذى وضعت نفسك فى طريقها .. مع السلامة ..

كانت نبيلة قد وصلت إلى مكانها ، فجلس أحمد ليتيح لها مبادلة أخيها التحية من النافذة ، وحين تحرك القطار أخذت مكانها المقابل له .

ـ « جميلة » هكذا قرر أحمد فى نفسه .. « جمال منصورى أصيل » .. واختلس نظرة أخرى أطول .. جمال منصورى أصيل .. القسمات واضحة .. العيون عسلية .. عميقة صافية .. الحاجبان متباعدان قليلا مما يعطى الوجه مسحه حلوة باسمه .. الشعر الملتهب المجدول يصل إلى الخصر .. الشفتان رقيقتان حانيتان .. القوام رشيق ملفوف .. تبارك الخلاق ..

ووقف القطار فى المحطة التالية ، وصعد رجل إلى العربة ، وحملق فى الممر بين المقاعد ثم نقل عينيه بين المقعد الخالى إلى جانب نبيلة والمقعد الخالى إلى جانب أحمد !! ومن الطبيعى جدا أن يختار الأكثر رفاهية .. وبسرعة أدرك أحمد الموقف ، فلم يتردد فى الانتقال إلى جانبها وترك المقعد الآخر كله خاليا .

كانت نبيلة قد جلست إلى جوار النافذة وألقت بنظرتها إلى الحقول الخضر، وراحت مع أفكارها ، فلما فوجئت بحركة أحمد عادت بانتباهها وعينيها إلى داخل العربة وأراحت ظهرها على المسند فلامس جنبها ذراع أحمد الذى أحس بطراوة الجسد ، فجذب نفسا عميقا ، وأرسله متقطعا على مهل حتى لاينهد الحجاب ، وعاد يهمس لنفسه وهو يلحظ خالا صغيرا مختبئا تحت منحنى الاذن : « تبارك الخلاق » .

وفى الواقع أن أحمد لايستطيع أن يقول أو يفعل أكثر من ذلك فضميره له بالمرصاد ، يؤنبه ويؤرقه على أقل غفوه .. وفى هذه المرة بالذات كشر ضميره عن أنيابة وشرع أسنته ليسيل دمه مع أول حركة .. إنها فتاة .. وأخت صديقه .. وأمانة فى عنقه .. ضمير تكعيب ! ووصل القطار المحلة الكبرى ولم يتبادلا كلمة ، وأحس كل منهما على نحو غامض أنه يجب أن يقول شيئا ، ولكن كيف ؟ وصعد بائع المثلجات وملأ العربة صياحا . فرأى أحمد أنّ من واجبه أن يحييها وشربا . وتعازما على دفع الثمن . وتحادثا بعدها حتى بلغا القاهرة وبلغ الحديث مجاهل حياة كل منهما فكشف عن بعض جوانبها .. فهى مرحة جرئية تأخذ على عاتقها جانب الترفية عن المدرسات زميلاتها فى مدرسة القرية الى تعمل بها . وهى تدخر نصف مرتبها الشهرى ، تحول نصفه إلى أساور وخواتم وفساتين .. وعرف أيضا أن من عادتها أن تقضى بعض

أجازتها عند خالتها فى القاهرة ، وبعد أسبوعين ستنتهى أجازة سامى ويعود إلى اسكندرية ، وستلحق به لتتفرج على البلاج . لكنها لن تلبس المايوه ولو شنقوها .. وعرفت منه - دون أن يحدثها بذلك أنه خجول ، أعزب قريب من المثالية ، يقرأ أحيانا لكتاب مهذبين ويعتنق ما يقرأ .. اذ أنه يعتقدان الكتاب لايكذبون أو يتصنعون !! ما الذى يحملهم على الكذب ؟

وعندما صار إلى جدران رمسيس لم يركب الباص . وإنما أشار إلى تاكسى، وجلس إلى جانبها فى المقعد الخلفى وهو يهتف بالسائق :

- الدقى يا أسطى .

« خمسة وعشرين قرشا .. ايه يعنى !! لكنها .. نبيلة .. إلى جانبه .. ألا يساوى ذلك ربع الجنيه ؟

وانطلقت السيارة بهما حتى انعطفت فى شارع الدكتور كامل فبدأ - كأكثر شوارع الدقى - خاليا من الناس موحشا - تتلاقى ذوائب أشجاره المغروسة على الجانبين ونثار زهورها يفرش الأرض بألوان بهيجة .. ثلاثة وثلاثون . . خمسة وثلاثون .. سبعة وثلاثون .. سبعة وثلاثون .. حاسب يا أسطى .. وتوقف الأسطى.

- اليس هذا منزل خالتك ؟

قالت وهى تفتح الباب من جانبها :

- هو كما تركته منذ عام ..

وتقدمته قفزا على السلم ، ووجد نفسه - عفويا - يبحلق فى ساقيها المتناسقتين ، وخاصة فى تلك المواقع التى يكشفها انحسار الفستان نتيجة لصعود السلم .

وتصور أخته مكانه وتتصرف نفس تصرفه فتعجب بساقى شاب غريب . فأحس بالاشمئزاز حتى أوشك أن يبصق على السلم .. لم يمنعه الا أن رخام الدرجات نظيف جدا .. ها هو يتصرف مرة أخرى وكأ نه فتاة !! أليس هذا ما قاله سامى على الكازينو ؟! انه لايزال تحت سلطان المعادلة « اياها » بدليل أنه أخذ فى تقريع نفسه ورميها بكل نقيصة ، ولم ينقذها ـ نفسه ـ منه الا وصوله إلى الدور الثالث وكانت نبيلة قد سبقته ببضع درجات ، ووقفت تنتظره أمام الباب ، وكانت تنتظرهما معا مفاجأة .. القفل فى الباب !! هكذا بكل بساطة .. الباب مغلق بالقفل ، والقفل لايستطيع أن يجيب عن أى سؤال ووقفت نبيلة مبهوتة وقد شحب وجهها ، أما أحمد فقد أدركه لون من الجمود وكأنه لايفهم ، ثم ما لبث أن انتفض قلبه وتملكه دوار خفيف جعله يميل معتمدا على درابزين السلم .. تماما كالسيارة التى نفد وقودها فمالت إلى جانب الطريق !

وران صمت قصير ..

ـ ما العمل ؟

قالتها نبيلة ببساطة وهى تنظر إليه نظرات تائهة ، فيها الاحساس بالذنب. وكأنها ـ بالمقابل تترك قيادها له .. انه الرجل وعلى الرجل أن يتصرف !! وحاول أن يتمالك نفسه :

ـ لاشئ .. لعلهم فى الخارج .. فى زيارة أو يشترون شيئا .. أو أى أمر من هذا القبيل .. لاداعى للانزعاج .

وقالت وهى تلقى بنظراتها فى بير السلم ولاترى قرارها :

ـ أنا لست منزعجة . . هل ننتظرهم هنا ؟

ـ طبعا لا (وتلفت حواليه) .. حتى الشقة المقابلة مغلقة هى الأخرى .

اف .. حظ طبعا وقوفنا هنا فى انتظارهم غير معقول .. ننزل لعلنا نجد البواب ونستعلم منه متى يعودون .

ونزلا .. ولم يجدا البواب .. ووقفا فى الباب قليلا .. وأخذ أحمد يتلفت حواليه فى حيرة وكأنه يبحث عن شئ ضائع وخيوط من العرق تجرى على جانب عنقه . ويده اللزجة تركت رسمها على الزجاج النظيف ... وكان العابرون يرمقونها بنظرات مستطلعة وجدت الفتاة ضيقا فى مراقبتهما ، فقالت هامسة :

ـ أنا أعرف أنك مكسوف تقولها .. ومع ذلك .. أنت أخى تماما .. سأقولها أنا .. أننا لانعرف متى يعودون .. ولا نستطيع الاستمرار هكذا .. وأنت متعب من السفر .. وكذلك أنا .. سنذهب إلى مسكنك .. أنت أخى ولاعيب فى ذلك .. نستريح ساعة ، ثم نعود .

واهتز فى داخله ، وتململ ضميره لينهض معترضا .. حقا لو كانت أخته فى موضعه !!

ولكن نظرة مريبة رشقة بها فتى عابر جعلته يفضى ويكف عن المناقشة . لقد اقتنع أن هذا حل اضطرارى .. وانه الحل الوحيد . وتاكسى مرة أخرى .. وإلى المنيرة يا أوسطى ..

ومسكن أحمد ـ إن كنت لاتعرفه ـ حجرتان صغيرتان وممر ضيق ، ففى احدى الحجرتين سرير قديم من ذوى الأربعة ... الأعمدة ، يعزف لحنا جنائزيا متهدجا عندما تعلوه أو تتقلب فيه أو تهبط منه .. لقد علم صاحبه فضيلة النوم فى وضع « انتباه » وفى الحجرة الأخرى أربعة كراسى ونضد من

الخامات الشعبية .. من القش ، ودولاب صغير للثياب أحسن حالا من السرير وهذا ما منحه حق النهوض فى حجرة الجلوس ، لأن حجرة النوم سر حربى !!

وكان أحمد يتقدمها إلى حجرة الجلوس وهو مكسوف من الغبارالذى يكسو كل شئ فيها ، ومن الفوضى الواضحة فى بعثرة محتوياتها .. وأخيرا لقلة اثاثها .

وكان ضروريا ـ مادام سيستمر إلى ما بعد العصر ـ أن يبدلا ثيابهم ، يتناولا طعاما .. وأن يتكلما .. وأن يضحكا على المقلب أحيانا .. وأحيانا لغير سبب واضح !!

وعند الأصيل استعادا ثياب السفر ، وأرادت أن ترحمه من أجر التاكسى فتوقفت عند محطة الأتوبيس ، ووافقها متمنعا ، وفى زحمة السيارة ـ وكانا واقفين ـ صنع من حولها نطاقا بساعدية ، وشم مفرقها وتأمل منابت شعرها فى الفة وتحبب واضطرت هى للتعلق بساعده مرة ..

وصعدا السلم وهما لايشكان فى أن هذا موعد معقول لوجود أى أسرة فى بيتها ، ولكن القفل كان ما يزال ممسكا بزمام الباب !!

واختلط حنقه بارتباك حقيقى غرق فيه حتى أذنيه ، وطاشت تصرفاته حتى إنه ضغط على الجرس ضغطا متواصلا ، وهنا فتح الباب .. المقابل وأطلت منه سيدة عجوز يوحى وجهها البيضاوى بأنها ثقيلة السمع ، وتدل لكنتها على أنها أجنبية .. يونانية أو إيطالية .. وأمالت رأسها نحوهما وكأنها ديك يوشك أن يصيح ، وقالت بغير سؤال : إنهم يغادرون منزلهم عادة فى مثل الآن ، ربما يتنزهون على النيل أو لعلهم فى طريقهم إلى سينما صيفية .. وعادت العجوز وأغلقت بابها دون أن تنتظر جوابا .

واحس أحمد أن أية بادرة تأفف ، أكثر مما صدر منه ، ستكون قاسية على الفتاة ، وتأنيبا لهما على ذنب لم تصنعه ، فقرر التزام الصمت ، بل لعله أصبح أكثر ميلا إلى تهوين الأمر عليها ..

وملاطفتها .. وكأنما كانت كلمة العجوز اشارة إلى الطريق ، فحين تمتمت نبيلة :

ـ سينما !! ياه .. السينما الصيفى تعمل حتى منتصف الليل !!

اعتبر أحمد أن ذلك ايذان بحقه فى « تضييع وقتها » كما يتراءى له حتى وقت عودتهم . واقترح أن يقصدا أقرب سينما صيفية فلعلهما يجدان أسرة الخالة هناك .

وأمام باب السينما ـ وكان غبش الغروب يغطى الحى ـ تأكدا من شيئين : أن الأسرة ليست فى السينما وأنهما يرغبان فى مشاهدة الرواية المعروضة ، فاذا ما ثبت أن الخالة فى سينما أخرى فسيحدث التوافق فى مواعيد الانصراف وينتهى كل شئ . وفى السينما جلسا متلاصقين .. وكانت الرواية عاطفية ملتهبة ، جعلت أحمد الطيب الوديع كالحمل يتمنى لو كان ممثلا ، أو ضابطا طيارا كبطل الرواية ، إذن لنال من الدنيا الكثير !! وكانت تمضى به الامانى أبعد من ذلك ، ولكن ضميره كالشيخ الهرم .. لا يذوق النوم الا لماما ... يسعل دائما ويزوم ... متيقظ.

وخرجا من السينما بعد روايتين واهملا الثالثة لتأخر الوقت ، ومع ذلك فقد كانت الساعة تقترب من منتصف الليل ، وقدرت نبيلة شيئا ، فلم تتردد ، ونظرت فى عينيه بثبات وقالت دون حرج ، كما الغت الالقاب :

ـ اسمع يا أحمد .. دعنى اقترح هذه المرة أيضا .. كيف نذهب اليهم مع

منتصف الليل ؟ ماذا نقول لهم ؟ وكيف نعلل وجودنا منفردين ؟

سنجعل من هذا اللقاء قصة لاتنتهى على ألسنتهم .

ورأي موجات من النور والظلام تجتاح عقله على التتابع .

وعادت الفتاة تكمل :

- أنت أخى .. دعنى اقترح .. لنذهب إلى شقتك !!

واهتز كأنما قذف بحفنة من الماء البارد فى صميم وجهه ..

- لاتعترض .. اننى لا أخاف .. غدا نعود إليهم ولا نخبرهم بما كان ، ويضيع هذا اليوم بين المنصورة والقاهرة ..

واحس بانتشاء خفيف للفكرة الجرئية التى اهتز لها قلبه ، حتى لقد عضد نفسه فى اعتناقها أنه لايستطيع أن يبرر وجود الفتاة عنده تلك الساعة ، ولعله حاول أن يعترض ، ولو على سبيل الاحتياط ، لتكون لديه ذخيرة تتيح له أن يقول : «لم اكن موافقا»، و«ألم أقل لك ؟» ولكنها كانت متحمسة فلم تعبأ بتردده ، وحين وضعت أطراف اصابعها فى راحته تبعها ، فلا يدرى أهى التى تقوده أم تتبعه ؟!

وفى الشقة ترك لها الحجرة اليتيمة التى تصلح للنوم وأغلقها عليها ، وجلس على كرسى فى الحجرة الأخرى ووضع ساقية على النضد ، الذى متهالكا فأخذ يتأرجح ويئز .. فنام نوما قصيرا ..ومتقطعا .

ولأول مرة فى حياته نهض من جلسته ليجد فتاة جميلة وجهها نضر،وجسمها رائع وشعرها مبتل أمام المرأة تمشطه وهى تميل برأسها إلي جانب فى دلال الفرس الأصيلة المختالة.

هـــــه ...

ولبس ثيابه وتناول الافطار وصافحها مودعا ، ولكنها أخبرته بأنها ستنتظر حتى يعود فيوصلها حفاظا على شكليات السفر !!

وقضى أول أيامه فى العمل بعد الأجازة متوتر الأعصاب .. دخن ثلاثين سيجارة وشرب عشرة فناجيل قهوة حتى مغصت بطنه .. وخرج على كل عاداته حتى لقد شتم عم زكى فراش المكتب العجوز الذى يعامله الجميع كأب!!

وقد يبدو ذلك محتملا أو ممكنا ، الا أن حدوثه فى اليوم الأول عقب الأجازة - والمفروض أن يكون يوم ملاطفات وتحايا وحكايات مسلية عن الأجازة - لفت إليه الانظار حتى لقد تطرف أحد زملائه ، فعلق على التبدل الملحوظ قائلا :

- أيوه يا عم .. راحة وبط وفراخ لمدة ثلاثة أسابيع .. لابد أن شمس المنصورة لطشتك .. هو أنت دايخ من شوية !!

« كأنك تقرأ ما فى نفسى .. شمس المنصورة لطشتنى بالفعل .. ربنا يستر ».

وانتهى من عمله فى المصنع قبيل العصر ، وركب سيارة المؤسسة العائدة إلى القاهرة فتعطلت فى الطريق .. نهايته .. وصل مسكنه فى السادسة .. وهناك وجد نفسه فى جنة صغيرة لم تخطر له ببال .. آنسة رشيقة انيقة معطرة .. والشقة رغم فقرها - بدت آية فى النظافة والراحة .. والغذاء ينتظر .. والقلة باردة تغرى بالشرب .. وقد خلا المطبخ من الصراصير تماما !!

- « الله » .

هكذا أفلتت من قلبه كلمة الاستحسان .. وأكلا .. ونزلا سلما وصعدا سلما آخر .. وكنا بعد المغرب بقليل .. وكان القفل فى الباب !! وتمثلت المشكلة لأحمد على حقيقتها وعنفها فى لمحة خاطفة ، ودارت به الأرض ، فقد صوابه حتى راح يصفق بعنف كالمجنون ، فى حين وقفت نبيلة هذه المرة كالغريق .. لاتدرى ماذا تفعل وبمن تستنجد !! وانفتح باب صغير تحت السلم وأطل منه بواب هزيل :

- مين ؟ مين ؟

- البواب !!

ونزلا مسرعين .

- أين أسرة الاستاذ خليل ؟

قال فى اهمال :

- كلهم فى اسكندرية .

وشهقا معا ؟

- اسكندرية !!

- هذا ثالث يوم لهم هناك .

قال أحمد وهو يزفر غيظا :

- ولماذا لم تقل ذلك من أمس ؟

وأمسك بذراع نبيلة وقد بدت له خالية من الحياة ، وسحبها إلى الخارج ذاهلا ، يلعن البواب فى سره !!

وسكتت نبيلة هذه المرة ، إنها لاتستطيع أن تقترح شيئا .. إن الحل يفرض نفسه .. ستنتظر هذه الليلة أيضا .. ماذا يحدث بعد ذلك ؟ ماذا تقول لاخيها ؟ إلى أين تذهب غدا ؟

ووجد أحمد نفسه فى دوامه عنيفة ، ليس أمامه إلا أن يؤويها هذه الليلة أيضا والامر لله . ومن الفجر تسافر إلى الاسكندرية فتنضم إلي أسرة الخالة .. وهناك ربنا يحلها .. تعرف شغلها .. إنها السبب !!

وأفضى إليها بخواطره ، فوافقته وهى تحس بالمتاعب التى خلقتها له ، وكانت مطاوعتها له سببا لاحساسه بالألم وخجله من تهربه فى حمل بعض العبء . ولم يتحدثا هذه الليلة ، وأن كانت تصرفاتهما فقدت « الحرج » الذى كانت تتسم به من قبل : مد أحمد ساقيه أمامها فى وضع مريح .. واخذت هى تنثر ضفائرها لتغسل شعرها غير منتبهة .. أو غير مكترثة لنظراته التى يرسلها ويستردها كومض البرق .

وعند النوم بدأ أحمد يستعد للنومة الجالسة . ولكنها نظرت فى عينيه بتمعن ، وقالت بحزم :

ـ سأقترح عليك للمرة الأخيرة .. لاداعى للتفكير فيما كان .. أنت أخى إننى أغتصب راحتك .. هذا شئ غير لائق .

وهمس لنفسه : « ماذا تريد أن تقول ؟ » ونهض ليضع النضد فى مواجهة الكرسى وهو يقول :

ـ ولكن ذلك هو الحل الوحيد .

ـ مطلقا .. لقد تبينت أنه ليس فى البيت مكان يصلح للنوم غير هذا السرير .. وسننام فيه معا .

ـ معا !! ماذا تقولين ؟

ـ أقول اننى اعذبك .. هذا حرام .. لن تجلس طول الليل .. سأنام ملتفة فى الغطاء وتنام أنت بغير غطاء ... شئ خير من لاشئ .. هذا كل مافى الأمر !!

ـ لا استطيع .. هذا غير ممكن .

ـ إنه ممكن .. وسترى ،واذا لم تفعل فسأجلس هكذا طول الليل .

ونظر اليها فى استخذاء كأنه يساومها على أمر محرج .. لكنه وجد وجهها مكتسيا باصرار عنيد .. بعيد عن فكرته تماماً .. فلزم الصمت .

قامت إلى الحجرة الأخرى ، وأطفأت النور ، وسمع اطيط السرير بعد قليل ، فتشاغل فى قراءة الصحيفة لدقائق ، ثم مضى إلى الغرفة وصورة نبيلة تحتل جانبا من خياله ، وصورة أخرى تشوه صفاءها . تحتل الجانب الآخر!! وارتطم أصبع قدمه برجل السرير فاستلقى على حافته كأنه متخشب ، وادار ظهره لجارته راح يفكر فى حل مشكلتها وكيف يواجه الصباح ، ثم راح يقسر نفسه على الاستمرار فى مناقشة هذه القضية حتى لايتحول عنها إلى التفكير فى أمر آخر غير مضمون العاقبة . لكنه شرد أكثر من مرة ، وراقب النافذة يتمهل الليل أكثر من مرة . لكن النوم لم يقترب من عينيه ، وقضى الهزيع الأول يتقلب وينظر إليها من زاوية فيجدها قد استلقت كطفل برئ ، قسماتها حالمة .. واهدابهاالطويلة متعانقة . وانفاسها تصمد هادئة .. دافئة .. تغرى.. هيه ..

وتقلبت فى رقدتها فألقت بذراع طرية دافئة على صدره ، سرعان ما انزلقت حتى التفت حول عنقه وكأنها توشك أن تعانقه .وأحس بالاختناق ..

بأنفاسه ثقيلة متقطعة كأنه يجذبها من أعماق بئر .. لكنه ظل متصلبا لايتحرك ويحث عن شئ يفكر فيه .. فتوقف عند كلمة سامى التى قالها على الكازينو أول أمس .. وتذكر فكرته عن الضمير ولكن .. « حقا .. هل أنا الذى أخدر ضميرى ؟ أو أن أخته هى التى صرعته برصاصة من .. آه ».

وتحركت مرة أخرى فرفعت ذراعها ، فأخذ يتحسس مكانها الدافئ على عنقه فى تحسر .. إن ضميره لايطاوعه على أن يصنع حركة مثل هذه وهو مستيقظ ، ولو حدثت وهو نائم فإنها ستخلو من كل متعة !!

وأحس بتثلج قدمية ، وحاول أن يبعد عن خاطره فكرة دسهما تحت اللحاف، ولكن برد الدنيا كلها قد تجمع فيهما ، وأصبح الحل الوحيد لانقاذهما من الشلل هو أن يضعهما تحت الغطاء .

وتسلل بهما فى رفق حتى لامستا قدميها الصغيرتين الناعمتين ، فأحس بالخدر يسرى فى جسده كله ، وتمنى لو يتم ذلك على نطاق أوسع قليلا .. وكان هذا الخاطر كافيا لان يجذب قدميه ويعيدها إلى البرد متحديا . وأدار لها ظهره مرة أخرى . وسمع آذان الفجر ففكر كيف يستطيع أن يذهب إلى عمله اليوم ... و .. راح فى النوم ...

وتنبه على لحن نشرة الاخبار آتيا من ردايو الجيران .. وجد الضوء يعمر الحجرة من زجاج الباب .. ووجد نبيلة مستلقية على ظهرها وذراعه هو مستلقية فى دعة .. بين نهديها تماما ..

وأحس بخدر لطيف يعاوده منطلقا من ذلك المنخفض الناعم وما يعمره من بضاضة ودفء . واراد ضميره أن ينهض ولكنه تردد وراح يناقش الوضع : لو اننى رفعت يدى فربما تنبهت فيدركها الحرج ، فلعل الأوفق أن تستيقظ هى

أولا ، وستظنني نائما وستنحى يدى وتنهض وهى تحسبنى غافلا عما حدث . ونظر إليها من زاوية عينه ، وخيل اليه أن أهدابها المتعانقة تتحرك ، وأنها توشك أن تفتح عينيها فحاول استجماع ارادته ليرفع دراعة ولكنه كان عاجزا تماماً .. كأن ذراعه خلت من الاعصاب .. الا أن طرقا شديدا على الباب جعله يقفز من فراشه مذعورا ويتجه كالمنوم إلى الباب ويفتحه من فوره .

ـ سامى !!

ـ نعم سامى .. أتعجب من وجودى فى القاهرة ؟؟ المسألة فى غاية البساطة . واتخذ طريقه إلى حجرة الجلوس وكان باب الحجرة الأخرى مواربا ـ أ.. أ .. أختك هنا .. إنها .. نائمة ..

ورشقه بنظرة حارقة :

ـ أعرف ذلك ..

ـ وجلسا وجها لوجه وظل سامى صامتا . وطال الصمت وأحمد يبحث عن كلمة بداية قبل أن تصحو نبيلة فتجدهما كصنمين، يجب أن يتضح الأمر قبل يقظتها ..

ـ سامى .. هل تشك فى صديقك ..

ـ أنا .. أنت .. محال !!

ـ أمر غريب حقا .. و ..

ـ وواضح ..

ـ وأنا ... استنجد بثقتك فهى الحل الوحيد .

وأحس أنه أخطأ فى عبارته الاخيرة ، فاستجداء الثقة قد يؤدى إلى

العكس ، وقد تأكد له ذلك حين قال سامى ونبرة تهكم يستعد للغضب تلسعه.

ـ أما عن الثقة فحدث ولاحرج .. وحين تكون كلمة الدفاع الوحيدة ، فقل يارحمن يارحيم ..

ثم أضاف بعصبية وكأنه على وشك التشنج ـ وهو يلوح بيده فى وجه صديقه :

ـ يا أستاذ .. يا .. أستاذ ..

« متى تنجلى هذه الغمة ، أى كابوس ؟ هل أنا أحلم ؟ لو شاركتنا هذه اللحظات لزاد الأمر سوءا . يجب أن ينتهى كل شئ بسرعة .. »

ـ مهما تظن يا سامى . فنحن صديقان . وأرجوك أن تتمالك .. لدقيقة واحدة .

ـ أتمالك ؟! ألا يدل موقفى إلا على منتهى التمالك ؟!

إننا لم نجد خالتك عقب وصولنا ..

ـ قديمة .. استدعتنى الشركة فقطعت اجازتى أمس ، وهناك وجدت خالتى تحتل شقتى .. ف ...

ـ لم نكن نعرف أنها بعيدة عن القاهرة .

ـ فخمنت كل شئ !!

وعرفت نبيلة صوت أخيها فأقبلت من حجرة النوم حافية منقوشة الشعر لحد ما .. وانتقلت عينا أحمد من وجه نبيلة إلى وجه أخيها ليرى آثار مقدمها عليه .. فرأى عضلات وجهه تتقلص وأسنانه تتضاغظ حتى وضحت تقاسيم

فكة من الخارج ـ بينما تطلق عيناه شررا ـ وران صمت عميق ووقفت نبيلة فى زاوية الحجرة ولم تجد شيئا تقوله غير أن تردد بلا معنى :

ـ سامى .. هل جئت .. اننى .. اننى ..

فقاطعها بلهجة حاسمة :

ـ ما الذى اخرك حتى الآن ؟

قالها ويده تهتز فى تشنج وكأنه يستجمع كل قوته فيها ليصبها صفعة قاتلة على وجه أخته .. وشحب وجه نبيلة وعادت تردد فى بلاهة :

ـ أنا .. إنى ..

كان قلب أحمد يتمزق والموقف الحرج يضغط على عنقه وصدره فيسحقه ويشل تفكيره لكنه كان يجب أن يقول شيئا ، وليس من الممكن أن تستمر المحاكمة على هذه الشاكلة . أى شئ قد حدث . وأحس فى نفسه إحساسا غامضا بأنه لايمكن أن يسمح لسامى بضرب أخته أمامه مهما يكن .. وتمنى لو أن سامى ظل على تعقله ولم يزد الوضع تحرجا .. وزاد إحساسه بأنه يجب أن يقول شيئا .. انه طيب .. ولكنه لايستطيع أن يتحدث .. أن يدافع عن قضية يشارك فيها .. عن تلك الفتاة المظلومة .

ـ سامى .. لاداعى .. لهذا الحديث الآن :

ـ بل مكانه وزمانه الآن .. هنا .

ـ بالعكس .. هنا .. والآن لن ينصف أحدنا الآخر ..

ونحن صديقان ..

ـ ما أحلى الصداقة .

- ولو .. سأتحمل سخريتك على أن تخرج معى لنتحدث فى مكان أخر.
وسأحكى لك بأمانه عن كل شئ .

وحكى له بأمانه عن كل شئ ..

ولكن سامى لم يقاطعه بكلمة أو إستفهام أواعتراض مما جعل أحمد يشعر بأنه يتحرك فى الظلام ويخاطب الجماد ، ويحلم ببراءة لن تبذل له ابدا .. إنه على الأقل متواطئ .... ان لم يكن محرضا !!

- سامى .. عندى كلمة .. قبل أن نعود .

- تفضل .

- أريد .. أعنى .. هل ..

- هيه ..

- من الطبيعى أن تدوم الصداقات النزيهة .. وانى ارجو (بدأ سامى يبتسم ابتسامة غامضة) أن تعرض على الأسرة .. رغبتى فى الزواج .

اكتملت الابتسامة الغامضة .. بل اتسعت لتوحى بمعنى العارف ببواطن الأمور .

- هيه .. و .. هى .. موافقة ؟

- لم أحدثها بالطبع .

- لماذا ؟

- لم تكن هناك فرصة ..

- ليس عندى اعتراض بالطبع ولكنى لا أستطيع أن أقطع برأى ولا أظن

الموقف صالحا لاعلان خطبتكما اليوم وزواجكما غدا .

ازدرد أحمد ريقه بصعوبة حقا .. ماذا يفكر سامى ؟ ليس لدى ما أخاف منه .

ـ وانا أيضا غير مستعد للزواج غدا .. بل أفضل أن يكون بعد ذلك فى الاجازة القادمة مثلا .. إننى لست متعجلا ..

ـ سأعرض الأمر ولكنى لا التزم بالنتيجة .

ـ سأتوقع أن تكون فى صفى .

ـ بالطبع بالطبع .

ورأى أحمد نظرة الشك تذوب من عينى صديقه لكنها لاتنمحى نهائيا . وأيضا .. فقد ظل يعانى وقع كلماته الأولى « ولكن ماذا يهم مادمت قد رسوت فى مرفأ الامان .. انه ما يزال يظن أن فى الأمر شيئا .. مع أنها مسأله ضمير لا أكثر .. ولو كانت أختى فما كنت أقبل نهاية لهذه المشكلة غير الزواج .. مهما كانت بواطن الأمور .. ويكفى أننى أخيرا سأصير زوجا .. أية نبوءة أطلقها سامى فى كازينو منيرفا وصدقت بسرعة عصر الصواريخ!! هذا الحبل الذى بامتداده تمتد الحياة قد تعقد عنده ، لكنه وجد الحل بأهون سبب عندى ».

ســـرّ الأســـرار !

... ومع ذلك جاء اليوم الذى فتحت فيه شبابيك الدار الصغيرة ، التى أوشكت أن تنطمر فتحاتها بتراكم التراب أمامها ، وانطلقت منها سحب دخان أبيض لطيف يحمل فى طياته رائحة بخور عطر تجذب الأنوف التى اعتادت رائحة السباخ ودخان المدامس ، وفى الوقت نفسه يعمى عين الحاسد الذى لابد أن ينطوى عليه هذا الجمع الداهش الذى ينظر بعيون مسحورة لدار خالتى فطومة ، وقد دبت فيها الحياة فجأة بعد اظلامها الطويل ، وتصاعدت منها نداءات فطومة وابنها حامد بعد أن غيبتهما السنوات المتلاحقة.

ومع أن حامدا هو هو لم يتغير فيه شئ .. اذا صرفنا النظر عن البدلة والشعر المسبسب ، ومع أن خالتى فطومة هى هى كما اعتادها الناس وكما ارتسمت فى خيالهم لسنوات طويلة .. فإن أحدا لم يصدق بسهولة خبر عودتهما .. وعلى تلك الصورة !! ولم تستطيع خالتى فطومة بفستانها الأسود قطيفة الزبدة ، والشنطة اللميع . والسنة الذهبية التى تبرق فى عين محدثها .. لم تستطع أن تمحو من أذهان الناس صورتها القديمة .. المألوفة لهم .. وقد عقدت ذيل جلبابها الأسود حول خصرها ، وظهر هناك ـ تحت الركبة بقليل ـ كرنيش السروال الأحمر الفاقع ، وقدماها المعروقتان تثيران من حولها زوبعة خفيفة من الغبار الحار ، وهى لاتزال تنادى بصوتها المدوى فى حارات القرية كل ظهيرة « لوبيا يا فجل .. لوبيا .. !! » والمشنة الخضراء يسيل ماؤها على وجه خالتى فطومة فتمسحه بيدها ، بأن توزعه على وجهها بين كل نداء ونداء .

وفى الحق كان ظهور حامد وأمه وملحقاتها على تلك الهيئة الغريبة مثار

دهشة القرية كلها ، وتساؤلاتها . ولقد راح الأطفال والصبيان يتحدثون من جديد عما كان أشيع حول الدار وسكانها من الجن ابان انغلاقها الطويل .. ولقد أقسم الكثير من الناس أنهم سمعوا العفاريت تتصايح فى غرفاتها اذ يهبط الليل ، وأنها توقد سرجا باهرة ترى على ضوئها العابرين وتعاقبهم بالمس وأحياناً بالموت اذا ما تعاظم الذنب .. وقد انتهى الأمر بالدار الصغيرة أن قل المرور أمامها فى النهار .. وصار فى الليل من المستحيلات .. حتى الشيخ رضوان .. حافظ كتاب الله .. يمسك إلى المسجد طريقا دائريا ولايمر بالدار اذا ما أراد رفع أذان الفجر !!

ويظن بعض الصبيان أن حامدا ليس الاعفريتا من عفاريت الدار المهجورة أراد أن يخدع الناس عن حقيقته فاتخذ صورة غير مألوفة . ويعترض صبى آخر قد اخضّر شاربه :

ـ طيب .. وأمه ؟

ـ أمه !! هى الأخرى عفريته !!

ويقول صبى فى يده « لوح » الكتاب :

ـ العفاريت لاتؤذى المسلمين .

وتهمس احدى النساء الواقفات على مدخل الحارة يرقبن الدار فى استغراب:

ـ والنبى ما غير أنه تاجر فى المحروق .. واغتنى على قفا المساطيل .

وتميل أخرى لمعارضتها وان كانت لاتملك ايضاحها للترف البادى فى هيئة فطومة وابنها :

ـ مساطيل ايه يا شيخه ؟ والحكومة فين ؟ كان زمانه فى طوكر من بدرى!!

ـ يمكن اغتنى من زمان وخبا فلوسه لما الحالة هديت .

ولمحتهم خالتى فطومة ، فخرجت اليهم تتمايل فى تيه يغلبها وتحاول أن تواريه ، وينم صوتها على كامن رغبتها فى تأكيد رفاهيتها :

ـ اتفضلوا يا ستات ..

واضطرب جمع النساء للمفاجأة .. مفاجأة النداء بـ « ستات » ومفاجأة هيئة فطومة نفسها ، وعادت تقول :

ـ اتفضلوا اشربوا الشاى معانا .. احنا نسينا بعض ولا ايه وبعد دقائق كانت دار خالتى فطومة تعج بخليط كقطيع الغنم .. من النساء والصبيان والأطفال ، وكانت تلك لحظة العمر بالنسبة لها .. لعلها لو ماتت بعد تلك اللحظة بساعات ما خالط قلبها أدنى درجات الشك فى أنها نالت من الدنيا كل ما تشتهى .. فقد شمرت عن ساعديها .. فأعدت الشربات ووزعت الملبس والحمص على الأطفال والحلقان التى جلبتها من رصيف محطة طنطا على البنات ، وخمسة وخميسة للرضع .. وزجاجات الكحل للعجائز .. وأطلقت إحداهن زغرودة مستبشرة ، اهتز لها قلب خالتى فطومة ، فانطلقت الزغاريد فى أرجاء بيت عتيق مهدم ظل مغلقا أكثر من خمس سنوات.

أما حامد فقد كان يجلس على حافة المصطبة فى الحجرة التى تواجه باب الدار مرتديا بيجاما من الحرير وإلى جواره زوجته صغيرة فاقعة الالوان كأنها عروس المولد ، وبين يديه ابنته ناهد .. رقيقة ناعسة ملائكية .. كأنها ننوس.. والتواضع الصامت مسيطر على الثلاثة ، وبسمة خجول تلوح على فم

حامد وزوجته ، ونظرة حائرة دهشة تلوح فى عينى ناهد الصغيرة التى حارت فى تفسير الزغاريد .. كما حارت فى تفسير إعجاب النساء بها .. ومضت ساعة وساعة وأكواب الشربات تحيى كل قادم جديد يضاف إلى الموجودين الذين استمروا التفرج على المفاجأة التي لم تكن فى حسبان أحد ، وأحس حامد بالتعب فوارب الباب واستلقى .. ربما لم يكن التعب داعيه للاستلقاء !! لقد كان فى حاجة لان يحلم .. لان يتملى على مهل وضعه الجديد .. أن يستعيد ماضيه ويضع صورته أمام حاضره .. وحين يبدو له الفرق أكبر من خياله .. شاسعا .. كان يقبل ظهر يده فى رضاء وحمد تؤكده دقات قلبه الواجف . أما الست أم ناهد فقد انطلقت لتشارك حماتها فيما تقوم به حيال جيرانها القدامى ، ولقد صدمها ـ أول الأمر ـ مظهر من تقدم لهن الشربات وتسعى لتحيتهن ، ولكن عينيها الجميلتين سرعان ما ألفتا المنظر القاسى واستمرأت التواضع ، بل وجدت له مذاقا طيبا يغرى بالمزيد ويكمل جمالها وهندامها المحبب ، فراحت تبالغ فى ازجاء التحية والتودد حتى ليظن من يراها أنها بنت الحارة أبا عن جد.

أما الصغيرة ناهد فقد أزعجتها الاصوات الصاخبة فى الدار الصغيرة ، فانصرفت إلى ذراع والدها فتوسدتها .. ثم نهضت إلى حقيبة ثيابه ففتحتها وأخذت منها كتابها العزيز الذى حوى الصور الملونة لحيواناتها الاثيرة وراحت تقلب صفحاتها . ولكن حكايات جدتها لجيرانها ما لبثت أن جذبت أذنيها ، فأعادت الكتاب وأمسكت بثياب جدتها وتابعتها فى انطلاقها بين الحجرتين الحقيرتين .. ثم أفلت ثوب الجدة من يد الصغيرة ، فوجدت نفسها بين أطفال الحارة الذين تطلعوا إلى فستانها بتعجب .. فابتسمت .. فقالت طفلة :

تعالى نلعب يا اسمك ايه ..

فأجابتها ناهد وهى تنطلق معهم إلى الخارج : قولى لى يا ناهد .. وانت اسمك ايه ؟

وطالت ظلال البيوت والاشجار ، وارتفعت أصوات أبى قردان على ذوائب النخيل وارتقى الشيخ رضوان مئذنة المسجد وراح يراقب قرص الشمس تارة وساعته تارة أخرى ، وحين استطاع التوفيق بينهما تنحنح مرتين وضغط عنقة قليلا إلى الخلف كديك يتأهب للصياح استعدادا للآذان .. وحينئذ ظهر فى مدخل الحارة مصطفى أبو جريشة وأمامه ابنه منصور ساحبا النعجة والجاموسة معا .. وما كاد يلمح فى غبش الغروب مشهد الحركة أمام دار فطومة حتى انخلع قلبه ، وقفز من فوق حماره وهو يخمن ما يمكن أن يكون قد حدث .. حقا .. كيف تفتح الدار بعد خمس سنوات دون أن يكون هناك حادث مكدر ؟! ولأنه صاحب الدار المواجهة فالغالب أن يكون ذلك مع زوجته أو أحد أطفاله الصغار!! « يخرب بيتهم .. كم حذرتهم من هذه الدار الملعونة » قالها مصطفى فى نفسه وهو يعدو نحو دار فطومة فى خطوات واسعة ، ولكن قبل أن يمس عتبتها قابلته الضحكات المتصاعدة كأنها رايات الامان !! وانعقد لسان مصطفى أمام غرابة الخبر ، فليكن مذهولا !! هل يمنعه ذلك من ملاقاة صديقه القديم ؟! وهكذا اتجه من فوره إلى حيث استلقى حامد ، وطرق الباب برفق ، وبعد لحظات كانا فى عناق حار قطعته خالتى فطومة لتؤدى واجبها المعبود فى تقديم الحلوى والفاكهة إلى مصطفى الذى جلس إلى جانب صديقه مشتت الخاطر بين الانبهار بمنظر حامد وثيابه وحديثه وبين جودة الفاكهة ودسامة الحلوى !! واذا كان حامد مهتما باظهار التودد وازالة الوحشة

والتهيب من نفس صديقه القديم ، فقد كانت هناك نقطة تشابك بين خواطرهما البعيدة فى تلك اللحظات .. برغم بعدها لايمكن تجاهلها.

كانا ـ حامد ومصطفى ـ صديقين منذ الصبا الباكر .. صداقة تفرضها جيرة الحارة ، والطريق الذى يقطعانه معا كل صباح قاصدين المدرسة فى القرية المجاورة وبعد أن أمضى الصغيران عامين انقطع مصطفى عن المدرسة ، منعه أبوه لأن :« احنا لنا أرض .. نفلحها كويس وهى تطرح لنا دهب » أما حامد فلأنه ليس له أرض ينقطع لزراعتها فقد استمر فى الذهاب إلى المدرسة ست سنوات كاملة .. ولماذا ينقطع وأمه تسرح كل يوم بمشنة الفجل وتعطيه قرشا صباح أكثر الأيام .. فان لم يكن فبيضة مما تبيع به !! ويظل حامد راضيا بوضعه هذا غافلا عن نفسه إلى أن .. يحب !! ويحب من ؟ زينب .. رفيقته فى المدرسة ، وبنت شيخ القرية التى بها المدرسة وتكتسب المدرسة عند حامد معنى جديدا وأهمية مضاعفة ويظل فى تلك القرية الأخرى طول يومه بين المدرسة والحومان حول دار المحبوبة ، ولكن شباب القرية لا تعجبهم خطوة الغريب وتجواله ، فيتربصون به وينال من عصيهم قدرا طيبا لولا بناؤه القوى لخلف به آثارا لا تنمحى . ويستنجد حامد بصديقه مصطفى ليعينه على الثأر لنفسه والابقاء على مودة محبوبته ، ولكن مصطفى ـ يا للأسف ـ لايريد دخول معارك من أجل البنات ، ولا يرغب فى القتال خارج قريته !! ويتألم حامد كثيرا حين يقول له مصطفى : الميه ما تطلعش العالى يا حامد .. يعنى ضرورى تحب بنت شيخ الخفر !! شوف ناس على قدك .. وأحسن من ده وده.. تكون من بنات بلدك .. ناس يعرفوك وتعرفهم .. وتبعد عن وجع الدماغ !! ولكن الحب .. آه منه .. لقد صارت زينب هى كل شى يفكر فيه حامد ، أو

هو يفكر فى أشياء كثيرة ، لكنها تعود - فى البداية أو النهاية - إلى الارتباط بزينب !! اذا كان الماء لايصعد إلى أعلى فليس قلبه ماء !! انه عصب ودم .. دم حار فوار يجيش لها ويجذبه اليها .. سامحك الله يا مصطفى .. ولكن ما العمل ؟

ويصارح حامد أمه فلا يعجب فطومة تمرد صغيرها المبكر فتزجره .. وحينئذ يفكر - لأول مرة - فى الانقطاع عن المدرسة والاعتماد على نفسه . وهكذا صار مكانه كل صباح فى حقل .. أي حقل يدفع للعامل أجرا .. وتعلم قيادة جرار الحراثة .. وصلاحه . وقبل أن يركب الجرار كسائق محترف تسلل إلى سمعه نبأ زفاف زينب !! إلى من ؟ إلى مصطفى !! « آه النذل .. استنجدت به فعرفها وسرقها .. آه .. انه الفدان ونصف .. قطعة أرض حقيرة.. جعلت مياه مصطفى تطلع العالى ، بينما ينهمر الطين على رأسى أنا.. نعيش نتعلم ».

وبرغم تأكد حامد من نبأ الزواج فقد وجد لذة فى انتظار رؤيتهما جنب إلى جنب ليلة الحنة أراد أن يرى أركان الخيانة مجتمعه ؟ أو أراد أن يرى المجنى عليها - كما تخيلها - تحبه هو ولاتحب عريسها ؟ أو أراد أن يرى وجه الصداقة وهو يتحول إلى خيانه كريهه مرائية إلى آخر لحظة ؟ .. ربما بقى لكل هذه الأسباب .. هو لايدرى بالضبط ولكن الذى يدريه أنه تعذب كثيرا ، وعرف معنى الكراهية ، كما عرف لوعة الوحدة في التعلق بالامل .. وفى ليلة الحنة وقف حامد بعيدا .. يرقب الماشطة وهى تنقش أيديهما . ثم ترسم عروسين بالحناء على الحائط خلفهما .. وتوقد صينية الشموع .. وينطلق الغناء .. وعندئذ فقط تأكد لحامد ما كان متأكدا منه من قبل .. إنهما صارا

زوجين .. وإنه ـ هو فقط دون كل الناس ـ الغريب على الموقف وعلي القرية !! وهنا يملأ عينيه بنظره طويلة منها .. من زينب .. ثم ينصرف .. عن القرية .. مستترا بالظلام .

وتصبح خالتى فطومة فلا تجد ولدها ، فيتسرب الشك إلى قلبها ، فتبحث هنا وهناك .. ولا خبر !! وشائعات القرية ترسم له أكثر من مصير مؤكد..فقيل أنه أغرق نفسه فى الرياح .. وقيل ألقى بها تحت القطار .. وقيل أنه شوهد فى سوق الماشية على حافة المدينة بثياب مستعارة يعمل فى السمسرة .. والنشل اذا استطاع !! وتبكى خالتى فطومة وتطلق عويلها وصواتها .. ولكنها تسلو مع الأيام .. وتعود لتنادى على فجلها وجرجيرها ، وإن اكتسبت نبرات النداء عمقا حزينا يذكر بالشكل الاليم.

وذات مساء معتم ، وكان قد مضى أكثر من عام على تلك الليلة التى شهدت اختفاءه فتح حامد الباب دون صوت ، وهجم على أمه فاحتضنها بذراع ، ويده الأخرى تغلق فمها حتى لاتصيح !! وبعد أن لمت أشتات نفسها المبعثرة وتأكدت من وجود ابنها إلى جانبها أبهى مما كان أخذت فى بكاء صامت حزين وهو يحكى لها ما كابد ولاقى .. وكيف تحول الحال .. ولم تكف الا حين نبهها إلى اقتراب الفجر ، وأنه صمم على الرحيل قبل أن يراه أحد ، فما يحب أن يعود موضوعا لحديث ، وتلبس فطومة ثوبا أحضره لها ابنها ، وتدع كل شئ فى الدار على حاله ، وتغلقها ، وترحل معه .. مستترين بالظلام .

وتصبح الحارة فلا ترى فطومة تسعى إلى الترعة بجرتها ، ويتوسط النهار فلا يرتفع صوتها فى ساحات القرية وحاراتها مناديا على الفجل الأخضر ..

ومرة أخرى تنطلق الحكايات .. أشهرها وأكثرها استمرارا أن عفريت ابنها زارها وخدعها وأغرقها فى الرياح..

وتكثر الحكايات وتتفرع حتى تضل بينها حكاية فطومة نفسها .

وظل حامد فى غربته أربع سنوات أخرى يشده أمل واحد ، أن يعود إلى قريته يوما فى هيئته الجديدة وأسرته .. فيكون مفاجأة مذهلة .. للقرية .. ولزينب .. آه .. زينب .. ولمصطفى !! وقد كان .

وقال مصطفى وهو يقضم حبة من حبات التين ، ويناول ابنه منصور - الواقف بالباب - تينة أخرى :

- والله زمان .. انت يا أخى مش لك أهل تسأل عنهم ؟

كان قلب حامد خاليا صافيا لايكدره شئ .. ولايحمل حقدا لانسان .. بل كانت تستولى عليه نزعة صوفية شديدة الاحساس بالله منذ حقق أمله وشاهد سلطانه فى الخلق والتغيير .. منذ أعوام ومصطفى كما تركه .. لم يزد غير شعرات بيضاء خالطت سواد رأسه على غير ميعاد بل لعل احساسا حزينا مقبضا قد سيطر عليه حينا عندما رأى زينب وقد جف عودها وذوى الورد الذى كان يطل من خديها وخبا النور الساحر الذى كان يرسله وميض عينيها!!

- مشاغل يا مصطفى يا خويا .. أكل العيش عاوز كده .

قال مصطفى وأصابعه تبحث عن تينة جيدة فى الطبق :

- لكن .. برضه .. مهما كان .. على كل حال نورت البلد وجيرة الجيرة كمان (كان قد عثر على التينة الصالحة وقذف بها فى فمه) والحمد لله عشنا وشفناك .. هه .. لكن .. متأخذنيش فى السؤال ده .. خدنى على قد

عـقلى .. أنت عـملت ايه فى السنين الطويلة دى .. ورحت فين ؟ أنا مـا أكرهش لك الخير .. لكن يعنى .. عـملت ايه .. ورحت فين ؟ كل واحد من أهل البلد زمانه فى عقل باله بيسأل السؤلات دى !!

ـ واحنا مالنا ومال الناس يا مصطفى .. كل واحد يخليه فى حاله ويخلى الناس فى حالها .

وفى الواقع كان حامد مسرورا لكونه موضع اهتمام القرية كلها ومثار تساؤلاتها ودهشتها .. أليس هذا ما تمناه يوما بالضبط ؟

ما أسهل تحقيق الاحلام .. وما أجمله ؟!

وتمهل قليلا ليرى آثار كلامه على وجه مصطفى ، ولكن مصطفى كان مسحورا بكل ما يرى ويسمع من حامد .. يتخيله غريبا طريفا لم يسبق لأحد أن شاهد مثله .. حتى طبق التين الذى يلتهم حباته واحدة اثر أخرى فى ثنايا الحديث .. حتى صديقه نفسه ..تخيله شخصية أسطورية أتت من الغيب لتعلن معجزة .. ولم يكن .. ولن يكون لها وجود !!

وأخيرا قال حامد :

ـ وعلى كل حال يا سيدى المسألة بسيطة جدا ، وما فيهاش أسرار والصبح نشوفك ، وأحكى لك ما حصل ، أحسن الوقت تأخر والجماعة تعبانين من السفر وناهد عاوزة تنام .

وهنأ حامد نفسه ـ فى سره ـ على صبره وعدم تسرعه بالافضاء بكل شئ.. وانه بذلك يسيطر على أفكار القرية كلها أطول مدة ممكنة .. وما يتبع ذلك من اعتباره مكمن سر خطير .

وطلعت شمس اليوم التالى ، ولم يذهب مصطفى إلى حقله كالمعتاد . إنه فى انتظار السر. سيسمع حديث حامد بلهجته الجديدة الناعمة وهو يحكى له وحده كيف تحول إلى هذا الشئ الانيق المعطر الذى يملك زوجة جميلة لاتخور أو تجعر فى حديثها ، وطفلة فى رقة فراشات البرسيم . ولكن الذى لايصدقه خيال مصطفى هو كيف أمكن تحويل فطومة بياعة الفجل إلى سيدة يجد أمثاله أنفسهم مضطرين إلى تسميتها الست فطومة أو خالتى أم حامد على أقل تقدير ؟!

كل هذه الأمور شغلت مصطفى جزءا طويلا من ليله ، وكانت زينب إلى جانبه تحس تململه وقلقه، ولكنها لن تطرق هذا الموضوع معه .. وما كان هو بأحمق إلى درجة أن يحادثها فى شأن فتى أحبها يوما . وعندما فتح مصطفى عينيه فى الصباح ظن أن كل ما حدث بالأمس لم يكن الا حلما . وكان أول ما فعله أن تطلع إلى دار فطومة فوجدها على حالها المعهودة .. مقفلة الباب والنوافذ .. فازدرد ريقه فى ارتياح وعجب .. ولكنه ما لبث أن رأى علب الحلوى الفارغة وأوراق الشيكولاتة مبعثرة أمام الباب .. فأدرك ما تردى فيه من وهم ، وأن الأمر لايعدو أن حامدا أصبح مثل كل الأفندية المعتبرين .. لايصحو مع الشمس ليذهب توا إلى الحقل !! « وحتى لوظل نائما للغد .. سأنتظر لاسمع السر ».

وأخيرا .. اجتمع الصديقان فى مدخل الدار ، وقد اكتسبت لونا جديدا بوجود شخصيات جذابة فيها .. حقيقة أن الدار تستمد الكثير من قيمتها من أصحابها أنفسهم . فمن أمس ومصطفى وسائر سكان الحارة يتهيبون دار فطومة ويطرقون بابها مستأذنين .. ومن قبل ما كان أحدهم يعبأ بأن يركل

الباب بقدمه سواء كانت الدار خالية أو كانت فطومة فى داخلها.

وانطلق حامد فى حديثه معتذرا عن تأخره فى النوم واصفا مشاق السفر وخاصة لمن كان معه « حريم » . وكان مصطفى غائبا عما يسمع ، كان يريد أن يسمع شيئا واحدا :

ـ السر .. السر يا أخى !!

وقال حامد متجاهلا :

ـ السر !! سر ايه ؟

ـ عملت ايه .. ايه اللى عملك كده ؟

ـ وده سر (ومصمص شفتيه) ولا سر ولايحزنون .. الحكاية فى كلمة ونص اننى لما سبت البلد (هنا غض مصطفى طرفه وازدرد ريقه) .. فضلت ماشى أدور على شغل لغاية ما وصلت كفر الدوار .. كفر الدوار بقى يا سيدى فى آخر الدنيا .. أبعد من اسكندرية . اتعرفت براجل طيب زى حالاتك كده.. طلع أوسطى فى مصانع النسيج .. خدنى .. وعلمنى .. وبقيت أوسطى زيه.. جوزنى بنته .. وبعدها جيت أخدت أمى .. واحنا دلوقت فى أجازة .. قلنا نقضى يومين معاكم يعنى .. ونرجع .

وهنا انطلقت صرخة أمام الدار عرف فيها مصطفى صوت ابنه منصور ، فصاح وهو فى مكانه يضغط حبة من حبات الفول السودانى :

ـ ايه ياواد .. مالك .

وقذف بحبة الفول فى فمه ويده تبحث عن أخرى وهو يستطرد :

ـ يومين وترجع تانى ؟ حقه ده كلام ؟ ولا سنة الواحد يشبع منك .

ـ أكل العيش يا مصطفى يا خويا .. ووردياتـ ليل نهار .. مصانع .. دنيا مهولة . . ناس بتجرى على رزقها .. احنا ايش نكون ؟! كانت عدة أصوات قد ارتفعت أثر صراخ منصور ، فلم يكن بد من أن يقطع مصطفى حديثه ليخرج فيرى ما حدث . وما أن أطل من الباب حتى بادرته امرأته زينب فى صباح مزعج :

ـ قلت لك سيبه يروح المدرسة على الأقل كان زمان دماغنا مرتاح من بلاوى عيال الحارة ..

ـ بس صلى ع. النبى وقولى ايه اللى حصل .

فقالت ساخرة : اللى حصل وصل .. ابن حسنين خطف طاقيته وقعد يملاها تراب راح يجيبها منه قام راميها فى وشه .. واحنا طبعا مش قد أمه اللى عليها لسان طول دراع.

وهنا تذكرت زينب شيئا أعاد إليها زمام أعصابها وجعلها تكف عن جر العراك ، حامد فى البيت الذى أمامها .. انه يسمع صوتها .. وانه لايليق بها أن تتحدث بهذه اللهجة أمامه ، ولعل نفس الاعتبار هو الذى أسكت مصطفى فلم يشتم أو يلعن ، واعتدلت لهجة زينب فاتجهت إلى زوجها بالحديث وقد نفضت عن نفسها رغبة الدخول فى معركة :

ـ قلت لك يروح المدرسة يتعلم له كلمتين .. قلت يقعد يفلح معايا ويتعلم صنعتى !! كان زمانا ع الأقل مرتاحين من وجع الدماغ . قال مصطفى مصطنعا الحكمة والتريث :

ـ فين الولد ؟

ـ أهو عندك .. عمال يعيط .

كان منصور واقفا وعلى وجهه آثار تراب علق به حين القاه ابن حسنين على الأرض ، وكانت طاقيته ما تزال فى يده والتراب ينثال منها ، وكان كل ما فى وجهه يسيل .. عيناه وفمه وأنفه .. وكانت الصغيرة ناهد شاهدت الاعتداء عليه من بعيد فتملكها اشفاق شديد ، وما كاد ينهض ويأخذ فى البكاء حتى اتجهت إليه ناهد وهى ترمقة بعطف وتحاول اسكاته بقطعة من الحلوى فى يدها.

وقف مصطفى يرقب محاولات الصغيرة لاسكات ابنه ، ونقل عينيه بينهما . فاهتز قلبه اهتزازة رقيقة ، ومسح بيده على وجه ولده فى حنان غير مألوف ، وقال كأنما يحادث نفسه :

- من بكرة تروح المدرسة يا منصور .. لازم تروح .

الدرس الأول

حين صدرقرار تعيينه كانت التسمية الوظيفية للعمل المنوط به :« عضو فنى بالمراقبة » . لم يفكر كثيرا فى طبيعة هذه التسمية ، كما لم تتضح أمامه حدود العمل الذى ينبغى أن يقوم به ، وعلاقة هذا العمل بالأعمال الأخرى الى يقوم بها موظفون كثيرون فى هذه المراقبة ، وفى غيرها من المراقبات المنطوية تحت إدارة واحدة . هذا الغموض لم يزعجه كثيرا . فسيأخذ مكانه فى مكتب ، عليه لافتة نحاسية أنيقة ، ولن يعدم أن يجد ما يشغله من شئون نفسه ، فاذا كان فى رؤسائه أو زملائه من يحتاج إلى عونه ، فان بابه مفتوح وتليفونه جاهز للاستقبال ، وفى استطاعة مثل هذه المطالب أن تحدد له ، ولو على المدى البعيد نسبيا ، الدور الذى سيقوم به كعضو فنى .

هكذا بدأ يعد غرفة مكتبه بحماسة ، وغير قليل من الزهو ، لما تضفية صفة « فنى » من احساس بالخصوصية ، والمهارة المتميزة فوضع خلف كرسيه عددا من الكتب الضخمة ، ذات الأغلفة الملونة ورأى أن يكون بعضها بلغة أجنبية ، مع الحرص أن تكون كلمة « الفن » ومشتقاتها واضحة على جميع الأغلفة ، ووضع على يساره ، فى مقابل حامل التليفون عدد من «الكتالوجات » الخاصة بالمعلومات والاحصائيات ، وعلق فى مواجهة الداخل لوحة سيريالية الطابع ، مساحات لونية متداخلة ، وخطوط متقاطعة أو متوازنة ، وطوفان من النقط الصغيرة ، المتراصة أو المبعثرة .. لوحة يمكن أن تقرأ على أى وجه ، ويمكن ألا تقرأ مطلقا .

وجلس ينتظر ، محافظا على سمته المتفائل ، ومعنوياته العالية ، مضمرا الاستعداد لبذل أى عون يطلب منه . لكن الأيام تمضى وباب مكتبه مغلق ،

وتليفونه صامت ، وبريده اليومى لايزيد عن استلام نسخة من نشرة أو تعميم .. غير أنه بترادف الأيام تناسى الزمن ، أو غفل عنه ،وأوشك أن يسلم بأن هذا هو الوضع الطبيعى الذى لاغرابة فيه ، وأن وظيفته الحقيقية هى أن يظل حبيس مكتبه ما استطاع ، وأن يتسلم النشرات والتعميمات الى أن مر عليه أحد زملائه ، فذكره بأن اليوم هو أول الشهر ، وأن عليه أن يذهب إلى خزينة الوزارة ليقبض راتبه .

« راتب !! » كم بدت له الكلمة عجيبة نابية ، مثل شخص ألقى بعبارة تهنئة اكتشف على أثرها أن المجلس كان للعزاء !! ومع ذلك فقد ذهب إلى الخزينة ، وصرف المبلغ دون اعتراض من أحد ، وهذا يعنى أنه يستحقه فعلا ، ولكنه لم يستطع أن يحول دون تساؤل ظل يدوى فى ضميره ، كعاصفة مطلقة السراح فى أرض خلاء : هذا الراتب .. فى مقابل ماذا ؟ ويشاغل نفسه أو يحاول أن يلجم العاصفة بالبحث عن جواب : فى مقابل أننى منقطع لهذا العمل ، وعلى استعداد لبذل العون لمن يطلبه ، ولا على أن أحدا لم يطلب الاستعانة بى !! ويعود التساؤل يلح من جديد : ولكن ، اذا كان قد مضى شهر ، ولم يطلب أحد منك شيئا ، وقد يمضى شهر آخر على نفس الوتيرة ، ألا يدل ذلك على أنك فى الحقيقة لاتعمل شيئا ، وأن العمل ليس فى حاجة إليك.. إنك زائد عن الحاجة ؟! وهنا يتصدى الجانب الآخر من عقله بالجواب السريع ليجابه الخطر الماثل : اذا كنت زائدا عن الحاجة فعلا ، لماذا اذا صدر قرار التعيين ؟

هاهنا واجه عقدة مميتة ، انقض على حل سريع لها قبل أن يجرح نفسه بما ينال من كرامته . صحيح أنه عين فى وظيفته مستندا إلى « واسطة » قوية ،

وضغوط واحراج لمن بيدهم قرار التوظيف ولكن من المؤكد أن « الواسطة » لا تصنع وظيفة ، لا تنشئها من العدم ، « الواسطة» و « الضغوط » ، عادة تؤدى إلى تفضيل شخص على آخر ، لعمل مطلوب أصلا ، هذه هى الحقيقة ، وهى تعنى هذه الوظيفة من الأساس ؟ هل نقطة البداية أن يبدأ الآخرون فى الاستعانة به ، وطرق باب مكتبه ، أم أن يتحرك هو بالذهاب اليهم وطرح أفكاره عليهم ؟ ! واذا كان الوضع الأخير هو واجبه ، لماذا لم يطالبه رئيسه بأى شئ على مدار شهر كامل ؟!

وقرر أن يقدم « ورقة عمل » وأعجبته جدا هذه التسمية التى التقطتها أذنه فى مكان ما ، قد نسيه ، كما نسى المناسبة . سمى ورقته « العمل خارج الجدران » فقد تراءى له أن أكثر ما تقوم به المراقبة ، هو مجرد تداول أوراق مكتوبة ، مملوءة بالتوقيعات والاحالات ، فلماذا لانتنزل بجهودنا إلى العمل الميدانى ، بين الناس ؟

كتب هذه الديباجة فى الأسطر الأولى من الورقة ، ثم رأى أنه لابد أن يضع بعض المقترحات لتطبيق فكرته ، فسجل كل ما تراءى له ، للوهلة الأولى ، كما توارد إلى خاطره : « الطبيعة حبيسه الجدران - الطفولة والفن سلبا وايجابا - رجل القانون : وقوانين حياته الخاصة - حين تجدين نفسك وحيدة فى شارع خال - أصحاب الأعمال الليلية ، ماذا يفعلون فى النهار ؟» . لقد أعجب كثيرا بغرابة الموضوعات التى وقع عليها ، ولم يستبعد فى هذه اللحظة أنه يملك موهبة كبيرة لم تتح لها فرصة التعبير عن نفسها . وحين أعاد قراءة ما كتب ساوره القلق الغامض بأن شيئا ما ليس فى مكانه ، أو أن هناك شيئا ناقصا . غير أنه لم يجهد عقله فى اكتشاف ما يحسه ، فبعد

أيام تعرض ورقته فى اجتماع ، وتناقش ، ومن خلال المناقشة يمكنه استدراك ما فاته ، وتحسين ورقته البكر ، التى ستعلن ميلاد عضو فنى حقيقى.

قدم ورقة إلى رئيسه ، المراقب ، ولعله توقع أن يسأله : أين أنت منذ زمن؟ أو : لماذا لم تأخذ رأيى فى ورقتك قبل أن تقدمها إلى ؟ولكن شيئا من ذلك لم يحدث !! ألقى المراقب نظرة سريعة على الورقة ، ثم وضعها منكفئة على زجاج مكتبه ، وضغط الجرس ، وطلب له قهوة ، ثم عاد يقرأ الورقة بتمعن ، دون أن يبادله كلمة واحدة ، ثم فتح الدرج أمامه وأسقط فيه الورقة ، وهو يقول : عظيم !! ونظر إليه نظرة تحتية كأنما يكتشفه ، أو يراه لأول مرة، وقال دون أن يهتز فى كرسيه : شكرا . وفهم العضو الفنى أن هذه ال ـ «شكرا » هى اذن بالانصراف ، فخرج وهو لايدرى كيف يحكم على محاولته ، وهل أحسن أو أساء ، غير أن الملابسات تدل على أنه قبل أن يدخل على المراقب ، كان فى وضع أكرم ، فخروجه دون أن يكون بينهما حوار ، ودون وداع يليق ، هو بمثابة طرد له ، أو على الأقل : رفض مهذب لمحاولته . وعاد يفكر : فماذا ينبغى أن يفعل ؟ وهل أخطأ حين غادر القوقعة ؟!

بعد يومين اثنين رن جرس التليفون فى مكتبه فى أول ساعات العمل ، وكان الصوت نسائيا ، عرف أنها سكرتيرة المدير العام وعجب لهذا الاتصال الذى ليس له سابقة ، وزاد عجبه حين عرف أنه مطلوب لمقابلة المدير العام فورا . وشغل نفسه قليلا بأمر يتعلق بالتدرج الوظيفى ، اذا كيف يطلبه المدير العام مباشرة ، عن غير طريق رئيسه ؟ ولكن الأمر بدا له تافها حيال السؤال الذى كد ذهنه فى البحث له عن جواب دون ثمرة : ماذا يريد منه المدير العام؟ولو أن الاستغناء عن خدمات الموظفين ، أو طردهم من العمل ، يتم دون

مقابلة المدير العام ، لما استبعد أن تكون هذه هى النتيجة المتوقعة . على أية حال . لقد ذهب مهرولا.

لم يتوقف عند السكرتيرة دقيقة واحدة ، ما أن رأته حتى وقفت باسمة ، وفتحت باب المكتب ، فدخل ، وأغلقت الباب من خلفه . استقبله المدير بنصف وقفة ، ومد يده مصافحا ، وعزم بسيجارة ، وسأله عن أخبار العمل فى المراقبة ، ولم ينتظر الجواب وقال له : اننى أريد أن أخذ رأيك فى مسألة فنية، وأريد أن يبقى الأمر بينى وبينك لايعلم به أحد !!

اهتز قلبه بنشوة الثقة التى بلغها ، ولم يعباء بأن هذا كله يستعصى على الفهم ، فليس فى الإدارة كلها عمل له طبيعة السرية وهو بالذات - العضو الفنى - لم يسند إليه أى عمل من قبل : لاسرى ، ولاعلنى . ومع هذا فانه سرعان ما استجاب لرغبة المدير العام ، فأكسب وجهه ملامح جدية اكتسحت بقع القلق والحيرة التى كانت تسوده ، وحرك كرسيه قليلا فى اتجاه كرسى المدير ، زيادة فى الحرص ، مع أن المكتب المترامى كان خاليا تماما.

بعد دقائق كانت بين يديه ورقة ، مطبوعة على الآلة الكاتبة بعناية فائقة ، تصدرها عنوان : « نحو رؤية جديدة : العمل بين الجماهير ». وتحت هذا العنوان وضعت عباراته التى خطها فى « ورقة العمل » كما هى دون أية اضافة ، وفى ذيلها توقيع المراقب ، وقد أرفق خطابا موجها إلى المدير العام ، للنظر وتدبير الميزانية المطلوبة لبدء الخطة ، ودون أية اشارة إلى العضو الفنى ودوره فى العملية .

للوهلة الأولى لم يعرف ما المطلوب منه ، وللوهلة العاشرة لم يعرف أيضا. لقد ظن أن الرجل سيسأله : بذمتك ، ألست أنت صاحب هذه الورقة ؟ ولو أنه

فعل فإن هذا يعنى أنه مدير حقيقى يعرف القدرات الحقيقية لجميع العاملين فى إدراته . ولكن المدير رمقة بنظرة متفحصة ، ذكرته بنظرة المراقب من قبل ، وتنهد وتعانقت أصابعه فوق بلور المكتب ، وهو يسأل : هيه .. ما رأيك ؟

مارأيه فى ماذا ؟ انه لايعرف ما هو المطلوب على وجه التحديد ولقد أوشك أن يتسرع فيكشف للمدير أنه صاحب الورقة المقدمة اليه بتوقيع المراقب ، ولكنه ألهم الصمت ، اذ بدأ الرجل يوضح ما يريد :

- كما ترى .. مراقبكم أرسل الينا هذه المقترحات من بنات أفكاره ، وأنا ، كمدير عام ، لايجوز أن أوافق على الفور على كل ما يقدم إلى من مقترحات . لابد من طلب ايضاحات ، وتحفظات ورفض لجزء وقبول جزء ، والمطالبة بتعديل ، ثم ندخل بعد هذا كله فى جدل حول الميزانية وكيف يمكن تدبيرها ، إلى آخر ما تعرف .

إلى الآن .. لم يفهم . وعجب المدير العام كيف أنّ ما قاله لم يوصل ما يريد إلي العضو الفنى ، فاضطر إلى الاستمرار ، مع مزيد من الوضوح والتحديد :

- كما ترى .. أنا مشغول لقمة رأسى ، عندى ثلاث مراقبات أصغرها مراقبة صاحبنا ، ولايمكننى أن أفرغ لمثل هذه المسائل الفنية جدا ، ولهذا سأعطيك الورقة لتقوم باعداد رد عليها ، فى اطار ما ذكرت لك من الايضاحات ، والتحفظات ، والتساؤلات .. ألخ.

ولاتنس ما اتفقنا عليه ، أن يبقى هذا الأمر بيننا ، وهذه بداية تعاون أرجو أن تستمر وتنال ثقتى !!

هكذا وجد نفسه أمام ورقته وجها لوجه ، مطالبا بالرد عليها ردا لابد أن يشتمل على تخطيئ وتصويب ورفض ، وربما تنديد ، وارشاد الخ . مصيبة انتساب ورقته إلى شخص غيره تهون أمام المصيبة الجديدة ، فإنه حين يكتب الرد ، لايستبعد أن يعرف المراقب حقيقة ما حدث ، وهنا قد ينزل به عقابا رادعا ، اذ كيف قدم إليه خطة لايوافق هو نفسه عليها ، ويضمر نقدها ، ويتولى أظهار عيوبها ؟! حاول أن يطمئن نفسه بنفسه أنه لابد أن السرية مقدسة تماما فى هذه الإدارة .. وإلا كيف جرؤ المراقب نفسه على انتحال ورقة العمل دون أن يدرى أحد بمصدرها الحقيقى ، فكذلك سيكون الحال مع الرد عليها . ولكنه ما أن فرغ من تجاوز هذه المصيبة الوظيفية حتى وجد نفسه فى مواجهة مصيبة فنية أشد ، فهو حين وضع ورقته الغبراء ، ولم تكن فى نظره تتجاوز العبث وشغل الزمن الفارغ ، لم يفكر مطلقا فى أنها تستحق الرد ، وأنه حين يتعين الرد عليها ، ستكون المهمة من نصيبه أيضا . فكيف يمكنه الآن أن يرد على نفسه ؟!

حبس نفسه فى مكتبه يوم عمل كاملا ، وظل يجوب أطراف الغرفة كالنمر فى القفص ، يقرأ الورقة بصوت مسموع ، ويرددها من ذاكرته محاولا اكتشاف ثغرة فيها ، دون جدوى . فكر أن يستعين بصديق ، لكنه خشى تسرب الموضوع فتكون نهايته فى الوظيفة . واكتشف أنه يمكن اقتراح تغيير نظام الموضوعات : نبدأ بالطفولة مثلا ، ثم المرأة ، ثم الرجل ، وتكون الطبيعة خاتمة المطاف . ونشط ذهنه لتبرير هذا التبديل ، ولكنه بعد أن أتمه ، رأى أنه أقل من مآخذ « مدير عام » على خطة وضعها « مراقب » ، فغلبه الهم مرة أخرى ، ورجع إلى تلاوة الورقة ، وتنغيم كلماتها ، وتقليب معانيها،

دون أن يهتدى إلى مكان يوجه اليها فيه « ضربة قاضية » تليق بمدير عام يمارس رقابة جادة على ادارته .

فى لحظة كرب أليم ، جاءه الحل السعيد : أنّ الخطة المطبقة حاليا لم تستنفد أغراضها بعد ، والخطة المقترحة تحتاج إلى مناقشة وتعديل ، كما أنه من الضرورى أن تسبقها عملية تدريب لكوادر خاصة ليست متوفرة الآن ، مما يعنى أن هذه الورقة ، فى هذا الوقت ، لاتستند إلى نظرة عملية تضع الامكانات المتاحة فى الاعتبار ..

« المراقب » يستدعى العضو الفنى : خطتك لم يوافق عليها .. هناك اعتراضات جوهرية ، انتظر ، باعتبارك المسئول عنها ، أن تتولى صياغة الرد ، وتسلمه إلى غدا ، إنّ كرامة المراقبة كلها فى خطر .

« المدير العام » يستدعى العضو الفنى : مراقبكم رد على الاعتراضات بتعديل الخطة ، والاكتفاء بالموضوع الأول كتجربة ، لا أريده أن يفهم أنه هكذا ببساطة يمكن أن يملى ارادته وأفكاره علينا . اجلس هناك وحياتك ، وجهز لى ردا مختصرا يثير غيظه ..

تحددت أماكن وجود العضو الفنى ، بين مكتب المراقب ، ومكتب المدير ، وتحدد نشاطه بأن يكتب ، ويفند ما يكتب ، ويدأ يتخذ احتياطاته فيترك فى كل موضوع ثغرات يمكنه أن يرد عليها ، وأن يرد على الرد .. انه لم يقدر من قبل أنّ ما يكتبه يمكن أن تكون له كل هذه الأهمية .. وأنه أصبح « فنيا » إلى هذه الدرجة !!

مشاعرمتناقضة من الدهشة وعدم التصديق . الفرح بانبعاث ذكريات قديمة عزيزة ، أوشك غبار الزمن أن يخفى ملامحها ، الدهشة من جسارة المحاولة ، وعدم المبالاة بالاحتمالات الخاسرة .

حاولت أن أسحب ملامحه الطيبة التى غابت تفاصيلها فى قرارة بئر لاتدرك العين قاعه . لم يجتمع تحت الضوء غير القليل جدا :

عينيه العسليتين الصافيتين ، وذقنه الحليق الأخضر ذى النغزة وشعره الأسود الناعم الحاد ، كشعر الماعز . لم تكن هذه الملامح أخر ما رأيت ، على العكس ، كانت أول ما رأيت ، حين جلست أمامه فى المدرسة ، ورمقته بخوف واعجاب ، وهو يوزع علينا أوراقا ملونة نقشت عليها الحروف الهجائية ، ثم طلب منا أن نردد وراءه : ألف . باء . تاء .. رأيته بعد ذلك مرارا على سنوات متقطعة ، بعد أن رحلت إلى المدينة ليتيسر لى تلقى التعليم الثانوى ثم الجامعى .

إذا لم تكن العينان الصافيتان أخر ماتراءى لى . كان فوقهما ـ آخر مرة أو قبلها لست أدقق ـ اطار نظارة ذهبية مستديرة ، كما انبعث دخان أزرق من بين الخصل السوداء الناعمة الحادة وانضافت ـ منذ زمن طويل ـ تجاعيد أفقية بمساحة الجبين تجاعيد حمراء بينها مسافات أو خطوط بيضاء .. ولم تستطع الذاكرة امدادى بالمزيد من التغيرات فى شكل محمد أفندى متولى ثلاث سنوات وربما أكثر مضت على آخر رؤية ، غير أنه لم يغب عن خاطرى طويلا ، كثيرا ما أواجه مواقف وأقوالا تذكرنى به ، كثيرا ما أقيس تصرفاتى إلى تصرفاته كما شاهدتها ، أو كما أظنها فيما لو كان فى موقعى ، ويعانى ما

أعانيه ، وغالبا ما أنحاز إليه وأقف فى صفه وأحكم بصوابه اذا ما اختلفت بنا السبل فى هذه المقايسات المتخيلة . أما هذه المرة فإن دوافع الدهشة ظلت تتأرجح بين الاعجاب والاستغراب ، بين الايمان بقوة محمد أفندى متولى وحكمته ، والسخرية مما يمكن أن يعد ضربا من الانتهازية ، يستغل فيه مشاعر الناس الذين أخلصوا له الحب طويلا ، وكأنه يصفى حسابات قديمة ، يسترد حقا ضائعا ، بعد أن قدمه اليهم فى هيئة تبرع أو هبة ، وقبلوا منه المنحة ، وفرحوا بها ، عاد يعلن أن ما قدمه لم يكن الا قرضا واجب السداد ، مع الفائدة ، وغرامة التأخير !!

قلت لزميلى القديم :

- متأكد ؟

- ألف بالمائة !!

- محمد أفندى متولى ؟!

- بعينه . خامس اسم فى قائمة المرشحين لمجلس القرية . حسب الترتيب الأبجدى نقلت صورة من الكشف لأنى لم أكن أصدق ولم يصدقنى أحد ، الجميع يعيشون حالة من الحيرة والشك وبخاصة حين يقرؤون أسماء المنافسين، انهم جميعا تقريبا من تلاميذه.

قلت بحسرة :

- هذا ما يحيرنى حقا ، ليسوا تلاميذه وحسب ، فكلنا تلاميذه ، اننا نحمل له أجمل الذكريات . هل تنكر ذلك ؟

قال :

- كيف أنكر ؟ ولماذا ؟ كلنا أحببنا محمد أفندى متولى ، ولانزال نحبه ، رغم العصا الغليظة التى كان يعاقبنا بها اذا لوثنا أيدينا بالحبر أو أخطأنا فى

قاعدة املائية . أتذكر العصا التى كانت رجلا لكرسى قديم ؟ ما أفظعها .

سرح الخيال إلى ذلك الزمن الرومانسى ، زمن البراءة والاكتشاف والاستجابة الحارة الفورية لكل نوازع الطفولة . كانت العصا غليظة ، لكنى لا أذكر أنه أصاب بها أحدا ، كانت ضرباته « تهويش » ، وفى حالات نادرة ، ولم نكن نخافها وانما نتظاهر بالخوف ، كما كان هو يتظاهر بالقسوة ، ولم يكن هذا المشهد « الاحتفالى » يمنعنا من أن ..

قطع صاحبى سيل ذكرياتى العزيزة ، وكأنما كان يجرى معى « سرا » فى نفس الطريق . قال :

ـ كانت فظيعة ، غير أنه اذا وضعها على حافة السبورة وانصرف فى الاستراحة ، تدافعنا بقاماتنا القصيرة ، ورحنا نقفز لأسقاطها من مكمنها ، أتذكر لماذا ؟

ـ طبعا .. لنشم مكان قبضة يده على العصا ، كان العطر يفوح منها .. عطر هادئ ، لكنه نافذ ، تنتعش به الروح.

عاد زميلى القديم يكمل حديث الذكريات ، والنسر والنجمة الذهبيان يلمعان فوق كتفه الضخم المستدير :

ـ أتدرى أنّ رائحة هذا العطر لاتزال تعشش فى خياشيمى إلى اليوم ، وأننى حين كبرت ، وتنقلت بين مدن العالم ، كنت أبحث بين وقت وآخر ـ عن الرائحة القديمة ، فلم أعثر عليها.

قلت بعجب :

ـ لماذا لم تسأل محمد أفندى نفسه ، انه لن يضن عليك بما ليس من أسراره؟

قال باقتناع حقيقى :

- من تظننى ؟ هل أجسر على مفاتحه مدرسى فى هذا الأمر الشخصى ؟ وبخاصة اذا كان هذا المدرس محمد أفندى ؟!

لم أعجب كثيرا لسماع هذا التعليق ، محدثى مهندس قديم بالمصانع الحربية ، يحمل رتبة عقيد ، وقد أنجب طفله الرابع منذ عامين ، لايزال يشعر بأن محمد أفندى الذى علمنا الحروف الهجائية منذ ثلاثين عاما يملك من المهابة ما يحول دون مناقشة هذه المسألة العادية جدا معه . لم أعجب كثيرا ، وقد شاركت قديما فى جلسات مع محمد أفندى ، ورأيت ابتسامته الطيبة تنفرج عن أسنان بيضاء تميل إلى الطول ، لكننى أبدا لم أضحك فى حضرته.. ولم أنهض عن الكرسى قبل أن يفعل .

عاد زميلى القديم يقول بفرح :

- لقد أعفانى الله من الحرج ، نحن العسكريين بعيدون عن الانتخاب وهمومه .

قلت بحيرة حقيقية ، وكأنى أبحث عن منفذ من ورطة :

- وأنا ؟!

- عقلك فى رأسك ، اعرف خلاصك .

- هذه أنانية منك ، فكر معى على الأقل .

قال بجدية بالغة :

- المشكلة أن المتنافسين مع محمد أفندى من تلاميذه ، وهذه مشكلته ، أما مشكلتنا المزدوجة ، أعنى : مشكلتك وآخرين فى مثل حالتك أن هؤلاء التلاميذ زملاء لنا ، وهنا الصعوبة ، هل ننصر الأستاذ أو الزميل ؟

قلت بتجرد غاب عنه الواقع المحدد :

ـ العنصر الأصلح للموقع المتنافس عليه .

قال محاربا :

ـ هل تجد في محمد أفندي ما يعاب ؟ تاريخ الرجل ناصع وأياديه وخدماته للجميع .

قلت :

ـ صحيح !!

قال :

ـ وأحمد حسن ، ومصطفى الضيف ، ومحيى صديق .. كلهم .. هل تجد فيهم ما يعاب ؟

قلت بإيمان :

ـ مطلقا .. شرفاء ، جادون ، راغبون في خدمة قريتهم باخلاص ، يؤدون وظائفهم كأحسن ما يكون . لكن .

قال صاحبي ضاحكا :

ـ آه .. هذه الـ « لكن » هي الزاوية الحرجة .

لم أجد في نفسي رغبة لدخول مباراة الذكاء ، واصلت فكرتي حتى لايفلت الخيط :

ـ هل نحن نختار من يمثلنا على أساس ماضية أو مسقبله ؟

قال :

ـ الاثنين معا ، بالنسبة للشخصية الانسانية لايمكن الفصل بين ماهو ماض وما هو مستقبل . لكن .

قلت مقلدا ضحكته السابقة :

ـ ها أنت تعود إلى « لكن » تطلب فيها النجاة من الحكم القاطع ، فماذا

ترى ؟

قال مجازفا :

- هناك حقيقة أساسية ، وهى أنه لولا محمد أفندى ما أجريت انتخابات أصلا .

لم أفهم للوهلة الأولى ، أضاف :

- بدونه ، ينجح الباقون بالتزكية ، المجلس خمسة والمرشحون ستة .

أسرعت للدفاع عن أستاذى القديم :

- ولماذا يكون هو بالذات العضو الزائد ؟ انك بهذا تظلمه وتنحاز ضده دون مبرر فى شخصه أو فى طموحه المشروع .

عبرت بوجه صاحبى مسحة من اللامبالاة ، وقال بشئ من السخرية الخفية:

- طموحه المشروع !! لا أعتقد أن محمد أفندى لايزال عنده ما يرغب فى فعله ، أظنه على المعاش من نحو عشر سنوات ، يعنى قارب السبعين أو تجاوزها ، لا مستقبل ، ومن هنا يكون الترجيح ..

قلت بحرارة منطفئة . اذا لا أعرف كيف أنمى موقفى :

- من رؤية علمية بحتة ، ليست هذه بحجة ، ريغان يقود أكبر بلد فى العالم وهو فى السبعين لماذا لاتثق .

قاطعنى :

- ليس عندى شك فى مقدرة محمد أفندى حتى لو كان فى المائة ، ولكن.. الشباب أيضا لهم الحق فى أن يأخذوا فرصتهم .

تنهد فى حيرة ، جاوبته بمثلها ، زاد ثقل الأمر عى كاهلى أن أهل القرية يتأثرون بموقفى ، هنا الخطورة وصعوبة الاختيارذكرياتنا العزيزة كلها مع

صاحب العصا المعطرة ، أول من علمنا الحروف ، والثقة فى حق الشباب ومقدرته أقوى . قلت مغامرا بالرأى :

ـ ما رأيك فى دعوة الجميع إلى لقاء مكاشفة ، يقدمون فيه برامجهم ، لعل بعضهم يشعر بضعف موقفه فيتنازل أحدهم ، وتنتهى المنافسة إلى التزكية .

قال بثقة استغربتها :

ـ وإذا لم يتنازل أحد ؟

قلت :

ستكون لهذه المواجهة فائدة أخرى ، هى تحديد المواقف من جانب المرشحين، وظهور اتجاهات الناخبين .

قال صاحبى بثقته المستغربه :

ـ لا أظن أن مثل هذه المواجهة ممكنة ، فقد لايوافق التلاميذ على مواجهة أستاذهم .

قلت بلهفة :

ـ لماذا لانجرب ؟!

قال :

ـ هل تحب أن أدهشك من جديد ؟ لقد عرضت الوساطة للحصول على تنازل سرا ، فلم أتمكن ، فعرضت ما تقترحه الآن ..

حوار مواجهة أمام الناس فلم يمكن أيضا .

استفزنى هذا التطور الجديد ، وسألت بلهفة :

ـ معقول ؟!

قال وكأنه يسدد ضربة قاضية :

ـ غير المعقول هو ما سنسمعه الآن . كان محمد أفندي صبري هو الرافض في المرتين ، رفض التنازل عن الترشيح ، كما رفض الحوار . صمم على ما يطلق عليه المنافسة الحرة .

رحت أردد دون وعي :

ـ أهذا معقول ؟ أهذا معقول ! لابد أن الرجل أدركته أمراض الشيخوخة .

ـ انه في منتهى العافية .. البدنية .. والذهنية .

تلفت حولي أبحث عن حل أو وضع احتمي به :

ـ والناس ؟

ـ حائرون ، منقسمون . الرجل خدمهم وعلم عيالهم نصف قرن ، لكنهم يقولون سرا : أما كان الأجدر به أن يفسح الطريق للشباب ؟

ضربت كفا بكف :

ـ هذه هي المصيبة .

عادت تنهداتنا تتجاوب . نظراتنا تشرد في غير اتجاه . لم يترك لي الرجل منفذا لعمل ، وموقفي لا أحسد عليه .

بعد صمت

ـ اسمع ! من اليوم أنا مريض ، أجازتي سأقضيها في السرير .

ـ ليس هذا بحل . مرضك المزعوم يستدعي الزوار وتوجيه الأسئلة ، فماذا أنت فاعل ؟

ما توقعه صديقي القديم .. حدث . سيل الزوار لم ينقطع ، أعجب زائر كان محمد أفندي ، كان مجاملا كعهده ، منعني من مغادرة السرير حين جلوسه ، كما حال بيني وبين توديعه خارج الغرفة عند انصرافه . طوفنا بالحديث في الذكريات تجنبنا موضوع الانتخابات بعض الوقت ، كان التوتر

ينبئ بالعاصفة، هو بنفسه اندفع لتفجير الموقف بسؤال مباشر ينضح بالتحدى:

ـ طبعا صوتك الشخصى لا أناقشة ، انه مضمون تماما ولكنى انتظر أن تقف إلى جانبى علانية ، أنت تعرف قيمة هذا فى التأثير على الرأى العام .

كانت الغرفة غاصة بالزوار . الكلمات محسوبة ، وغلطة الشاطر بألف ، ولا مهرب من الكلام .

ـ والله يا أستاذى ..

صمت .. حدقت العيون ، احتبست أنفاس ، نقرت عصا على الأرض. تهانفت كلمات من أنف محمد أفندى :

ـ ليست القضية أستاذ وغير أستاذ . القضية يصلح أو لايصلح .

تجمد المشهد المتحرك ، كأنما توقفت آلة العرض ، لكن الفرج جاء فى كلماته .

قلت وأنا انتقى الكلمة ، بعد الكلمة :

ـ والله مادمت وضعت المسألة فى هذه الصورة . فإن السؤال ينطبق على الجميع : يصلحون ، أو لايصلحون ؟

ـ ورأيك ؟

اشتد التحديق وعمق الصمت .

ـ لا أجد فى أحد مطعنا ، وان كنت أعتقد أنه من حق تلاميذك عليك أن تمنحهم الفرصة .

قال بهدوء قلق :

ـ أنا أدرى بحقوقى ، ولست أجهل حقوق تلاميذى . شكرا صافحنى وسط الغرفة ، منعنى من السير معه ، تركنى واقفا مثل عود الذرة العارى فى حقل

الخريف . لم يترك مؤشرا بالرضا أو السخط .

لم أجد مبررا لاستمرار تمارضي بعد انتشار موقفي وكلماتي غير أن الذكريات العزيزة ظلت تشدني فلم أجد في نفسي قوة تسمح بالمشاركة العلنية في الدعاية الانتخابية للذين أؤيدهم ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمرشحين في البداية ، شعروا بالحرج وامتنعوا عن مهاجمته ، أو التوسع في الدعاية ، لكن محمد أفندي أصر على الدعاية لنفسه ، نشر الملصقات ، وعقد الاجتماعات ، ودار على المقاهي وتجمعات الفلاحين والعمال ، وبذلك لم يطل الوقت حتى كان جميع المرشحين يفعلون نفس الشئ ، يحاربونه بسلاحه ، ويبتكرون أسلحة دعائية جديدة ، ليس للقرية بها عهد .

جاء يوم الانتخاب . حدث ما توقعته ، سقط محمد أفندي ، أول سقوط في حياته . بعد اعلان النتيجة شعرت بالرثاء له ، تألمت من أجله ألما حقيقيا ، رأيت من واجبي وقد انتهى الأمر إلى ما سعيت ، أن أذهب إليه موضحا ومعتذرا ، رعاية لحقه القديم ، قبل أن أتمكن من حشد نفسي لتنفيذ ما عزمت كان محمد أفندي يطرق الباب زائرا .

كان وجهه محايدا ، ليس فيه ملامح المهزوم ، أو مشاعر التحدي ، كان كعهده ، ودودا في غير خضوع :

ـ أهلا بك يا أستاذي .

ـ لماذا لم تحضر لتهنئتي بالنجاح ؟

ـ بسيطة يا أستاذ ، أنت لم تكن بحاجة لهذا النجاح ، خيرها في غيرها .

ثبت عينيه على عيني :

ـ أنا جاد ، وأنت لست من السطحية بحيث لم تفهم قصدي .

قلت مجاريا مجاملا :

ـ على أية حال ، ليس بجديد عليك التصدى للخدمة العامة ، والتحمل فى سبيل الواجب .

استمر فى تجميد حركتى بنظرته الثابتة من تحت الاطار الذهبى ، قال :

ـ هذا بعض قصدى . الخدمة العامة يمكن أن نزاولها فى أى موقع ، أعنى:

لم أفهم تماما ، كان مهما أن أفهم بدقة . قلت :

ـ هل كان هناك قصد آخر ؟

ـ بل قصد أول ، أساسى !!

ـ تتفضل بشرحه لى .

رأيت فى هيئته صورة المدرس القديم ، يوزع البطاقات الملونة نقشت عليها الحروف الهجائية ، وصوته الهادئ يردد : ألف ، باء ، تاء ..

قال :

ـ كان القصد أن تدور معركة انتخابية حقيقية ، أن يتنافس أهل الجدارة حتى يفقد الناس خجلهم ، وترددهم ، وخلطهم فى الأحكام بين العاطفة والمصلحة الحقيقية .. لن يتم هذا ، كما أرى ، الا بصدام بين رأى ورأى ، وشعاروشعار .. لاتدرى كم كنت سعيدا برأيك الذى صدمتنى به ـ ظاهريا ـ أمام الناس يوم جئتك زائرا ابان مرضك.

قلت وكأننى لم أسمع تفسيره الذى لم أتوقعه :

ـ اعذرنى ، فهذه مسألة رأى .

ـ كيف لا أعذرك وأنا معك ؟

ـ اذا كان ما تقول يعبر عن نيتك ، لماذا لم تتنازل ليلة الانتخاب مثلا ؟

قال :

- فكرت فعلا أن أتنازل عن الترشيح ليلة الانتخاب ، أو حتى أمام اللجنة، ولكنى خشيت أن أفسد الدرس الأخير الذى أرغب فى توصيله اليكم.. مع أنه - دعانيا - كان لصالحى ، لكن صالحى سيبقى دائما هو الصالح العام ، اعتقد أن هذا تحقق ، واستحق تهنئتك عليه !!

فكرت فى كلامه قليلا ، نهض قائما ، صافحته بحرارة سألته :

- هل عرف المرشحون هذا المعنى ؟

قال بثقة :

- لابهم .. لقد خاضوا معركة ، هذا فى ذاته قد علمهم الكثير . الدرس دائما يبقى أكبر من المدرس .

مضى فى طريقه بخطوات ثابتة ، شرد خيالى إلى ذكرى قديمة وأنا أقف أمام السبورة ، لأشتم عطرا العصا ، ذلك العطر الهادئ النافذ ، الذى تنتعش به الروح .

حكاية ...

الزكى الهراس

أخيرا بعد موجات متعاقبة من السكون المتحفز والصخب المتوتر ، استسلم الجميع للصمت ، فور تسرب الأخبار بأن المصباح الأحمر قد استراح بدوره . بعد قليل يغادر الوكلاء المساعدون عائدين إلى مكاتبهم . ويمضى الوكيل بالحركة إلى مكتب الوزير ، ، وتنكشف بعد ساعات أو بعد دقائق كل الأسرار ، فتشب حرائق وتخمد أخرى . خبر واحد تسلل فى غير رفق من مكتب الوكيل المساعد للشئون القانونية ، انتشر فى طوابق المبنى الكبير وكأنه غاز الكلور يتحدد أثره بالمسافة والنسبة ، لكنه قطعا غير مريح .

أما الوكيل المساعد فانه يعرف حدود وظيفته ، وتقاليد مثل هذا الاجتماع السنوى الخطير وما يستلزم من كتمان . مع هذا لم يملك نفسه حين ضمته جدران مكتبه أن يلقى « الدوسيه » الأخضر ، وكان ضمنه الصورة المقترحة للترقيات ، فيصفع به بلور المكتب المترامى متأففا ، وكرشه المستدير ينبعج ويندلق وينخسف حسب مقتضيات الحركة بين الكرسى والمكتب : «اعتبارات؟! نعم ، كل الدنيا ماشية على الاعتبارات . لكن .. الزكى الهراس !! هذا اسقاط لجميع الاعتبارات » . كان الساعى الخاص يجرى فى تيار الوكيل المساعد ليكون رهن اشارته ، دخل الحجرة ليسحب الباب الزجاجى ، فسمع - وقد أشرع أذنيه - اسم الهراس ، لم يجد من القرائن ما يدل على شئ . جاءت الفرصة اليه برجليها حين دخل بالقهوة . وضع الفنجان بحركة حذرة من يديه وعيناه تتلصصان ، فرأى الاسم صراحة فى رأس الكشف . بحث عن فرصة يتصل فيها بالزكى بك ولكنه لم يستطع مبارحة

مكانه ، همس بالخبر إلى من يستطيع ريثما يتمكن من تقديم التهنئة بنفسه. انتشر الخبر فى أسلاك الكهرباء . نشب الحوار كما تعترض شوكة السمك مدخل البلعوم . حافظت قسمات الزكى الهراس على هدوئها ، لم تتحرك فى وجهه عضله واحدة . قال وهو يسترخى فى مقعده الوثير : «لقد أيقنت دائما أن التهريج لايجدى ، وأن العمل يفرض نفسه على الجميع ».

لقد أعطى للساعى جنيها كاملا لقاء البشارة ، لكنه لم يظهر أى فرح بها أمام الموظف الصغير ، بل رفض أن يشعره بأن المنحة المالية غير المعتادة فى مقابل ما أفشى من سر ، اذ قال : « خذ هذا واشتر حاجة حلوة لأولادك »، وكبح لسانه فلم يتورط فى أية وعود اذا ما بان له صدق الخبر .

وأقبل معاونو الزكى الهراس من كبار موظفى إدارة التخطيط ، فلم يتحفظوا فى اظهار سعادتهم بما نال مديرهم من تقدير ، ونادى مناديهم بأن هذا تقدير لجميع العاملين بالإدارة ، وإذ ترنم أحدهم مهننا : « عقبى للوكالة يا سعادة الوكيل المساعد » ، فان أقلهم حظوة لديه رفع عقيرته مسجلا موقفا أكثر جسارة : « قريبا نهنئ بالوزارة نبارك لأنفسنا » . وكان هذا الأخير يعانى حالة احباط حادة .. اكتشاف موهبة القيادة لايحتاج إلى خبرة أو حصافة ، مثل اكتشاف الشمس .. الأعمى يدركها ، الشخص القيادى يفرض نفسه بسعة ادراكه ونفاذ بصيرته فى فهم مشكلات العمل ، وقدرته على اتخاذ القرار المناسب ، واكتشاف الطرق الكفيلة بتنفيذه . الشخص القيادى يجد انقيادا تلقائيا من جميع العاملين معه ، أو أكثرهم ، استجابة لهذه الجوانب التى لايستطيعون انكارها فيه . فأين هذا كله من الزكى الهراس ؟! إن أقصى ما يرشحه له من عمل أن يكون ملاحظا فى احدى دور السينما ، يلبس « اليونيفورم » الأزرق ، ويقابل الرواد على باب القاعة المظلمة ،

يرقص الشعاع الضوئى على الكرسى المقصود ، فى حين تمتد يده الأخرى تنتظر البقشيش !! فأى عمى طامس استولى على أصحاب القرار ؟!

وهش الهراس للقاء مساعديه ، وفكر لحظة فى أن يبدى تحفظه على خبر الترقية ، ربما كان مجرد حدس أو أمنية ، ولكنه سرعان ما تذكر أحد شعارات العصر المتداولة : « الحرب النفسية » .. أن أى تردد سيلقى ظلالا من الشك فى نفوس موظفى ادارته ، ويسئ فيما بعد إلى وضعه الراسخ فى رعاية الصمت وتشابك الهواجس والظنون . وأسوأ احتمال أن تكون أكذوبة سخفية أراد بها أحدهم أن يعلن عداوته ، فهذا التأييد من ادارته يكون أداته فى التظلم ومناوأة من يحتل المكان .

* * *

فى أول قاعة على يسار الداخل إلى مبنى الوزارة يقبع رمضان أفندى فى أقرب ركن إلى الباب ، انه يفسر موقعه هذا تفسيرا مرحا لايخلو من مرارة ، بأنه أقرب نقطة إلى التخرج من باب الوزارة إلى التقاعد ، تمهيدا للتخرج من باب الدنيا .. إلى حيث ألقت !! كان فى انتظار الدرجة الثالثة ليحال معها إلى المعاش ، والقصد منها فى منطق الرؤساء يدخل فى باب الاحسان ، وفى رأية اعتذار سخيف يأتى فى غير موعده . حين بلغه خبر ترقية الهراس وضع نظاراته السمكية فى الدرج ، و« بربش » عينيه وهو يمسح الأكياس المنتفخة تحتهما : « لاأزال أذكره ، سعادته لايمر على قسمنا فهو ليس من مقامه ، ولكنه حين التحق بالعمل منذ أكثر من عشرين عاما كنت فى ادارة التعيينات، ألقاه علينا مكتب القوى العاملة مع غيره كما تلقى الريح بالغبار. حين رأيته لفتنى منظر وجهه ، قلت فى نفسى : أى صباح هذا ؟

رغيف بدون حميرة ناقص نضج يصلح حلاقا أو صبي مزرى ، لكنه أدهشني حقا حين تكلم . قال في برود : سيادتك كاتب هذه الرسالة ؟ نظرت في الورقة . قلت : هذا الاستدعاء ، نعم . قال : من فضلك تراجع الأوراق الأصلية ستجد اسمي الزكي . بالألف واللام ، وليس بدونهما . قلت مهونا وأنا أريد أن أفرغ لغيره : يا سيد لافرق .. زكي أو الزكي .. وتمعنت في وجهه من جديد ، داعبني خاطر شيطاني ، أردفت : المهم الهراس !! لفت الحوار انتباه موظف آخر قريب . نظرة واحدة كشفت الفجوة الواسعة بين الاسم والمسمى ، قال بعفوية مطلقة : هذا من أسماء الأضداد !! سخن رأسي استعدادا للقتال مع زميلي ولكن كانت رحمة الله واسعة ، كما كانت معلومات الهراس اللغوية ضحلة فلم يفهم مرمى النكتة ، اذ انتقل إلى التساؤل : ماذا تقصد ؟ وظن الزميل أن سخريته انكشفت ، وربما أدت به إلى المساءلة ، فقالت : مثلما أخطأ رمضان أفندي في الزكي ، لعله أخطأ في الباقي . فقال بنفس لهجته الباردة : لا يوجد خطأ آخر ، ولا أقبل القول بأنه لايوجد فرق ، لأن الفرق واضح . قلت بسرعة لأنهي الموقف : ولايهمك ، هأنذا أصلح خطئي. وسحبت خطاب الاستدعاء من يده وأضفت إلى اسمه « ال » ، وقلت: عليك الآن أن تذهب لاستلام العمل . قال دون أن يغادر لهجته اياها : هذا أمر يخصني ، وسأقوم به أما ما يخصك فهو أن تطمئني عمليا بأنك صححت اسمي لدى كل الجهات التي وقعت قرار التعيين ، أو تحتفظ بصورة من أوراقي.

من يومها صار مشهورا في الوزارة كلها ، لأنه لم يكف عن مطاردتي حتى حققت له ما أراد ، فعرفت كل الأقسام وجميع الكتبة أن صحة اسم زكي الهراس هي : الزكي الهراس !! ولقد تمسك باسمه حرفيا حتى أنه لايجد حرجا

فى تصويب النطق به ومقاطعة من يخاطب عشر مرات فى اليوم ، وقد لايرد على من يسقط هذه الـ « ال » اللعينة ، وهكذا استقر فى الأدمغة ، وقفز على أطراف الألسنة دون منافس ، ودون أن يصنع شيئا غير ذلك ».

* * *

وفتح الزكى الهراس صندوق السجائر ذا النقوش الصدفية ، وقدمه إلى أقرب المتحلقين حول مكتبة ليدور به بين الجالسين وظهر أن نسبة واضحة اقلعت عن التدخين ، فرفع غطاء صندوق آخر ، فلمعت أغلفة قطع الشيكولاتة المبرقشة بألوان الفراشات ، وتداولت الأيدى الصندوق فى صمت ، يقطعه بين حين وآخر أحد الموظفين الصغار ، يندفع من الباب مادا ذراعية ، محنيا يقدم التهنئة الحارة ويتمتم بالدعاء ، ويرد على عبارات لم تلفظها شفتا الهراس ، وانما هيأ الداخل نفسه لها قبل أن يقتحم الموقع المرصع بوجوه الرؤساء ، ثم يتراجع بظهره متعثرا بضع خطوات ، ويمضى ليتبعه آخر بعد قليل . استراحت الحلوق والخياشيم لنعومة الدخان ونكهة الشكولاتة ، واسترخى الهراس فى كرسيه قليلا ، وأراد أن ينطق بجملة تناسب المقام ، فتفكر قليلا ، وآثر أن تكون ذات وقع حسن لدى مرؤوسية مما يحسب فى رصيده كمسئول ، وفى نفس الوقت تحمل معنى التحية لوكيل الوزارة ، فلابد أن يصله كل ما يدور بشكل أو بأخر ، فقال بعد ترو : حين تكون القيادة أمينة ما عليك الا أن تعمل بكل ثقة ، فى صمت ، متأكدا أن التقدير لن يخطئك .

قال صاحب الحظوة القليلة ، وقد بشره من قبل بكرسى الوزارة : أنا على ذلك من الشاهدين ، ومازلت أذكر كيف رقيت سعادتك إلى أولى درجات الوظائف العليا .

قال الهراس متصنعا الدهشة : حقا تذكر ؟! أما أنا ، فقد نسيت ، لقد حملتنى أمواج الدرجات من السادسة إلى الثالثة مثل غيرى ، وحين واجهت حائط الترقية بالاختيار ايقنت أننى بلغت آخر محطة ، فأنا كما تعرفوننى لست محسوبا على أحد ، ولا أقوم بأى دعاية لنفسى أو لعملى ، ولا أنتمى لأى تنظيم ، ولا أعتنق أى نظرية .

أحس على الفور أنه تورط فى سلسلة من الاعترافات قد تفسر لغير صالحه ، فهب صاحب الحظوة القليلة لنجدته ، وقال : الا العمل . وصدق الله العظيم حين قال : ان الله لايضيع أجر من أحسن عملا ».

وسلم الهراس فى نفسه بحجم الانقاذ الذى مارسه مرؤوسه فأراد أن يكافئه فاتجه اليه مذكرا : قلت أنك تذكر شيئا يتعلق بترقيتى .

التقط المرؤوس طرف الحديث على الفور مدركا وجه المجاملة ولطفها .
قال: نعم ، كان سعادة الوكيل الحالى مديرا للإدارة أيامها ، كان يحتل هذا الكرسى نفسه ، وكانت الحركة فى ادارتنا لاتتسع الا لشخص واحد يرقى بالاختيار إلى الدرجة الثانية . لقد أيقن جميع موظفى الإدارة أن الذى سيحتل الدرجة الشاغرة هو الأستاذ مسعود ابن أخت المدير ، وأنها اذا جاوزته لأمر ما فلن تكون الا للأستاذ هاشم - الله يرحمه - وكان دينامو الإدارة ومحركها اللامع.

أدرك المتحدث أنه أفشى جزءا خطيرا من مكنون نفسه ، وطرح التساؤل المحير : كيف رقى الهراس بالاختيار دون الأكثر حظوة والأكثر قدرة معا ؟ فتلعثم ، ثم داور بسرعة : هنا كانت المفاجأة ، ظهر اسم سعادتكم كمرشح لاينافس ، وهذا فعلا يعود بنا إلى كلمة سيادتكم عن القيادة الأمينة والتقدير الذى لايخطئ ، فقد أدركت هذه القيادة أن هناك شخصا ثالثا ، ليس

محسوبا على القرابة ، ولا يهتم بالاعلان عن عمله ، انه العامل الصامت .
وهكذا وقع اختيار المدير على سعادتكم متخطيا ابن أخته ، وهذه قمة التقدير والنزاهة للطرفين .

وأظهر الجالسون الموافقة والاستحسان .

* * *

لم ينس الوكيل الحالى ، المدير السابق - هذه الحادثة . هو أشد ذكرا لها اليوم ، اذ قام بنفسه بتسريب الهراس الى بداية طريق الكوادر الادراية العليا . وقد احتارت الظنون فى دوافعه صغار الموظفين انقسموا بين قائل بالنزاهة ودليلها أن المدير تجاوز ابن أخته ، وقائل بتعليمات سرية من جهات عليا ذات صلة خفية بالزكى الهراس ، الذى تنطبق عليه صفات الرجل الغامض . أما أصحاب الدراية بدهاليز العمل الحكومى فقد كانوا يرقبون محاولات تلميع الأستاذ مسعود وهم واثقون من غايتها ، والا كيف يفسرون رياسته للجان ، وانتدابه إلى جهات أخرى لوضع تقارير ، ومؤتمراته الصحفية عن تطوير جهاز العمل لخدمة الجماهير ، كل ذلك والأستاذ هاشم الأكثر كفاءة وخبرة شاهد يتفرج وتدفع به يد معلومة للغرق فى تفاصيل العمل اليومى ، ولهذا كانت خيبتهم عظيمة حين طاشت ظنونهم ولم تمنح الترقية لمسعود ، وراحوا يبحثون عن السبب فى الشخص المختار مرة ، وفى الشخصين المرفوضين مرات ، وغفلوا ، أو غفل أكثرهم عن ظروف الاختيار وملابساته . كان مصمما على ترقية ابن أخته دون تردد ، فالترقية إلى الدرجة الثانية مسألة حاسمة ذات مساس مباشر بالدرجات الأعلى .ولكن هبط فجأة سبب غير متوقع جعله يصرف النظر عن ترقية قريبة دون تردد أيضا ، فقد توفى وكيل الوزارة المساعد الذى كان على وفاق معه وتفاهم صامت فى أمور الترقية بصفة

خاصة، وهذا يعني بالتحديد أنه ـ هو شخصيا ـ أصبح المرشح لاحتلال الموقع الشاغر ، ويعني ـ في الوقت نفسه ـ أنه سيتولى تقديم كشف ترقيات ادارته إلى وكيل الوزارة دون واسطة . فهل يناسب ظروفه الآن أن يقدم بيده كشفا يضع ابن أخته في السطر الأول منه ؟! الا يثير ذلك بعض الغبار حول اسمه ؟ وقد يؤدى تحت ظروف ما طارئة لايدرى ماذا تكون ، إلى صرف النظر عن اختياره وكيلا مساعدا . أليس اهمال هذا القريب يعتبر فرصة ذهبية لاعلان صامت عن نزاهته وتجرده ، وتكذيب عملى لجميع الظنون والأراجيف؟!

ولكن : ماذا عن الأستاذ هاشم ؟ انه الاسم الذى رشحته الأفكار ـ وليس الظنون ـ للترقية دون المحظوظ بالقرابة . ولكنه لو فعل فان هذا الشخص سيسد الطريق أمام ابن أخته لأخر عمره الوظيفى ، وليس بمستبعد أن يهدد مركزه هو شخصيا بعد بضع سنوات ، فهاشم لايعرف المجاملة ، بل لايعرف الوفاء ، ولا يعنيه ما يقول الناس فيه ما دام يؤدى ما يظنه واجبه ويطالب بما يعتقد أنه حقه بصرف النظر عن رأى الآخرين فيه . الآن بان له وجه الصواب فى هذه المسألة. سيختار ثالثا لايخشى منه ، كالماء : لا لون ولاطعم ولارائحة. ولعل هذا يكون مرضيا لجميع الأطراف ، أو مسخطاً لجميع الأطراف فابن أخته سيتألم ولكنه لن ييأس لأن الدرجة ستكون فى انتظاره فى أول ميزانية قادمة، ويستطيع أن يكتسح الأقدمية بما له من سند ترسخت مكانته أكثر ، وسيؤدى هذا إلى تأخر هاشم عاما وربما أكثر ، وبذلك يصير مسبوقا بشخصين مما يضعف تطلعه وطموحه إلى المنافسة ومع هذا لن يستطيع أن يجد من يستمع إلى تظلمه لأن وجه الطعن لامبرر له ، فليست للمدير أية مصلحة فى تجاوزه إلى شخص آخر الا مصلحة العمل ، فجميع من فى الإدارة يعرفون أن العلاقة بين المدير والهراس فاترة تماما ، ربما كان هناك

سوء ظن متبادل ، جعل منه الشخص المناسب للموقف تماما . وهكذا استقر رأيه على ترشيح الهراس للدرجة الثانية .. بالاختيار !!

* * *

كان المتحلقون حول مكتب الهراس يتابعون زميلهم وهو يروى قصة الترقية الأولى بقلق ، وإن تظاهروا بالشغف والاعجاب وحتى الدهشة . وحاول بعضهم أن يضيف فى سياق الحكاية كلمة هنا أو توضيحا هناك . كأنهم يشاركون فى تذوق شراب شهى ، تحولت وظيفة الهراس إلى تاريخ يروى . قرر آخر أن يدخل فى منافسة ويروى - من جانبه - مرحلة أخرى من مراحل «كفاح » رئيسه . أخذ يتمعن فى الكلام المتداول بين شفاه الجالسين ، لعله يجد ثغرة يدخل منها إلى اقتناص الفرصة ، وتذكر شعارا رفع بعض الوقت عن «الإدارة بالأهداف » ، ولم يشغل نفسه فى ذلك الحين بالتعرف على دلالة الشعار ، كان يراه مجرد « موضة » لاتلبث أن يخبو بريقها ويعود كل شئ كما كان . كم هو مفيد فى هذا الموقف ، أما المعضلة الحقيقية ففى الدفع به إلى الحلبة والصاقة بالهراس ! وطال استحلابه للكلمات الشاردة بين الأفواه وقد لجت فى غرابتها حتى أوشكت أن تنتقل إلى مستوى السخرية من الذين كانوا ينافسون الهراس محتمين بذوى النفوذ ، ولما لم يجد ثغرة ، وأحس أن الفرصة توشك أن تفلت قرر المجازفة . قال : الزكى بك يعرف هدفه جيدا ، ويمضى اليه لايعبأ بالخزعبلات . قال المتحدث السابق : يعلم الله أن الترقية فى ذاتها لم تكن هدفا من أهدافه . فأسرع الآخر يصحح العبارة وقد أسعده استدراج كلمة « الهدف » إلى حلبة الكلام : ما هذا قصدت ، لقد تذكرت الفترة التى نال فيها سعادته الدرجة الأولى ، لقد تنادى خبراء الإدارة بنظرية الإدارة بالأهداف ، وحين فتشوا أوراقهم ليبحثهم عن خبير يضعونه على رأس

العاملين فى ادراتنا لم يجدوا للزكى بك منافسا . هذا ما قصدت .

ولمعت عيون بالتصديق والتأمين ، واختلجت شفاه اعجابا ببراعة التأويل ، وشفاه بفظاعة التهويل ، وأغضت عيون أخرى لاتدرى ماذا تبدى وماذا تخفى!!

وعاد الهراس بك يعبر عن استحسانه للفرصة الجديدة التى أتيحت له بأن فتح صندوق السجاير وصندوق الشيكولاتة مجددا ، فارتفعت سحابات الدخان من جديد ، وراحت بعض الأفواه تلوك المعجون السكرى بتلذذ ، وقال الهراس وهو يركز كوعه على بلور المكتب ويحكم عناق كفيه فيصنع نصر صغيرا ارتكزت عليه ذقنه الحمراء المدببة مثل كوز البطاطا : هذه أذكرها . ككلم تذكرونها .

وظهر الاستعداد على أكثر من وجه للافاضة فى ذكر الواقعة وعز على صاحب الفرصة الأصلى أن تفلت من يده ، فأراد أن يتكلم بسرعة ، ولكن عجينة الشيكولاتة كانت قد أنشبت أطرافها الهلامية فى طقم أسنانه فأزالته عن مكانه فالتزم الصمت مقهورا ، وفطن أحدهم إلى ما يحدث ، فهجم على « الحكاية » يكملها :

« كانت ادارتنا مثل كل التجمعات فى تلك المرحلة ، منقسمة إلى يمين ويسار ، وقد انقسم العاملون إلى هذين القسمين وكأن الله لم يخلق غيرهما . يسرى بك حول استراحة الإدارة إلى مصلى ووضع فى مدخلها صفا من القباقيب ، وسمح لموظفيه بمغادرة مكاتبهم عند سماع الأذان ، ومراقبة الذين لايتوضأون ، مع أن وقت الظهر واسع جدا . أما فهيم بك فقد ألف رابطة موظفى الإدارة ، لا أحد يعترض على تكوين الروابط . لكن ماذا فعلت هذه

الرابطة ؟ أول قرار اتخذته كان رفع دعوى ضد الوزير باسم عمال اليومية لحرمانهم من نيل حصتهم من الحوافز . ثانى قرار كان رفع دعوى ضد الوزير باسم السعاة والفراشين لاحتساب ساعات العمل الزائدة بأجر !! ».

كان صاحب الفرصة الأولى قد تمكن من تذويب عجينة الشيكولاتة ، بذلك استطاع فك الاشتباك بين حنكه وطقم أسنانه .

وتهيأ لاسترداد حقه فى تكملة حكايته ، فما كاد المتكلم يوقف للانتقال إلى المرحلة التالية حتى انطلق الأول بغير استئذان :

« فعلا . وقف يسرى بك وفهيم مثل ناكر ونكير . اذا قال الأول شرقا قال الثانى غربا ، ومن عجائب المصادفات أنهما كانا مؤهلين للترقية إلى الدرجة الأولى ، وكانت قدراتهما الوظيفية وأقدميتهما على قياس واحد تقريبا ، ولكن المكان الشاغر كان يتسع لواحد فقط . تعصب رواد المصلى لامامهم ، واصطف أعضاء الرابطة وراء رفيقهم ، واعتبرت مسألة حياة أو موت ، واعتبر كل فريق أن اختيار رئيسه للترقية بمثابة وضع مستقبل الإدارة فى يده، وتأهب للقضاء المبرم على الفريق الآخر . وبدأ يمارس تجاهه التحرش والمضايقة . لابد أن الوزارة كانت تعرف كل هذه الجوانب وتحسب احتمالاتها فى المستقبل. تسرب كلام .. أن الوزير نفسه عبر عن قلقة من اختيار أحد الرجلين دون الآخر ، حتى لايصنف هو والوكيل مذهبيا على أساس هذا الاختيار ، فانتشرت الأقاويل ، ولكن : كيف جاء الحل ؟ » .

أحس الهراس بأنه فى طرح المسألة على هذه الشاكلة مساسا باستحقاقه لنيل الترقية عن جداره وليس تخلصا من حالة الانقسام التى تهدد الإدارة اذا ما اختير أحد الرجلين المتنافسين .قضى وقتا يوازن بين ميزة الصمت وترك

الحكاية تمضى دون تعليق ، وتصحيح المسار ، ولكن المتكلم الذى قوطع من قبل لم يفلت الفرصة قال : « فى هذه الفترة هبطت نظرية الإدارة بالاهداف من السماء ، وأنا أذكر للوكيل المساعد على بك حسنى رحمه الله كلمة منصفة قالها فى حق سعادتك حين سئل عن أسباب تفضيلك ، وتجميد يسرى بك وفهيم بك . قال : ان شعار المرحلة هو الإدارة بالأهداف ، ولقد فضلت هذا الرجل لهدف محدد ».

لم يستطع المتكلم أن ينهى عبارته بطريقة ترفع من شأن الزكى الهراس ، وتزيل الغبار عن ماضية الوظيفى ، فتردد ، وتحير فهب الهراس لانقاذ نفسه:

« أظن حسنى بك رحمه الله قال : وهذا خير رجل يطبق النظرية ».

ووافق الجميع مترحمين على البك الوكيل المساعد .

***

« كله فى الأرشيف يا أولاد ».

ورشف رمضان أفندى رشفه أخيرة طويلة من فنجان قهوته الثالث ، منذ بدأ يحكى قصة الزكى الهراس . لم يتبدد أثر الخبر رغم مضى ساعة أو أكثر. بعض مرؤوسيه تركوا أماكنهم ، وهجر بعضهم ما بيده فى ذلك الملفات والجرائد والساندوتشات ، أو حملها بين يديه ونقل الكرسى فى مواجهة رمضان أفندى ليستوعب التفاصيل ، وعاد العجوز الخبير بأسرار العمل يقول:

« فى بلادنا ـ مع الأسف ـ نحتقر الارشيف ، لا تزعلوا يا أولاد ، لاتحتقروا عملكم ، هذا هو الواقع . الموظف المغضوب عليه ، والذى ليست له

حظوة والمعاقب ، والذى أخنى عليه الدهر ويوشك أن يودع ، مثلى . هؤلاء هم الذين يستقرون عادة فى الأرشيف . أما فى الفهم الادارى الصحيح الأرشيف مخ العمل ، ذاكرة الإدارة ، نقطة البدء فى أى تنظيم أو تطوير . وموظف الأرشيف الكفء لايتحول إلى خازن للملفات أبدا ، إنه يقرأ كل ملف ورقة ورقة ، ويدقق المستندات ويراجع التوقيعات والتواريخ ، ويربط بين القرارات والتحركات والتظلمات والالتماسات . هكذا تقف أمامه الوزارة عارية من كل أنواع الستر والتجميل والتزييف . هذه خبرة ليست سهلة ، إن وراءها معاناة طويلة ، قد يصدر قرار بالترقية ، وحقيقته قرار بالتجميد أو العزل أو حتى العقوبة ، وقد يصدر قرار فى إدارة لاتجد له معنى ولا تفهم له مرمى ، ولكن معناه ومرماه يتضحان فى قرار آخر ، يصدر فى إدارة أخرى ، بعد شهر وربما أشهر !! ولن يفطن الذين يتناولون الحياة « بالقطاعى » إلى الصلة بين القرارين».

تابع الموظفون حديث رمضان أفندى بنصف اهتمام ، بل تململ بعضهم ووجدها فرصة للضغط على الجرس وطلب الشاى . لقد قال مثل ذلك مرارا ، وإنهم يصدقونه ، ولكن من منهم يجد الفرصة للتطبيق ؟! القرارات أكثر من الرز ، والتعليمات تترادف كل يوم بجديد مثل الهم على القلب ، واصطياد اللقمة بات فنا يحتاج إلى دراية ومحايلات . فمن أين يجدون الوقت أو النفس المفتوحة التى تجعل أحدهم يعطى هذه الأوراق المتراكمة بغبارها تفكيره وخياله ؟! كان مجلس الشاى قد استحكم حول المكتب الخشبى المهترئ ، المثقل بالملفات ، وانطلق رمضان أفندى - على راحته - يصب خبرته مجانا بين يدى خلفائه فى الأرشيف قبل أن يغادرهم نهائيا .

« سأكشف أمامكم خبايا ترقية الزكى الهراس من الدرجة الأولى إلى

درجة مدير عام . من ناحية الشكل القانونى ، أقصد استيفاء المدة فى الدرجة السابقة كان هناك ثلاثة يمكن أن يرقى أحدهم فى المكان الشاغر بترقية على بك حسنى إلى وكيل مساعد قبل أن يتوفى ببضعة أشهر : أحمد بك زمزم ، يوسف بك عاصم والمذكور . وكل من يعرف إدارة التخطيط ، أو حتى لايعرفها ، لايجد مناسبة للمقارنة بين زمزم وعاصم والهراس . المنافسة فى الواقع كانت محصورة فى زمزم وعاصم بك ».

أراد واحد من شباب الأرشيف أن يداعبه ، فقال :

من يعرف الإدارة يقر بذلك ، ولكن .. من لايعرفها ، كيف يحكم ؟

تطوع زميل آخر بالجواب ، ورأى أن يكون ظريفا فى حجم الاعتراض :

بالشكل يا أخى . يكفى أن ينظر إلى زمزم بك ليرى عليه سيماء الرؤساء ومهابتهم ، وعاصم بك فى أناقة أولاد الذوات وأدب أبناء النعمة . ولكن صاحبنا .

استعاد رمضان أفندى للحديث جديته بأن قال :

ما تقولونه حق ، ولكن هناك ما هو أقوى من مهابة الرياسة وسحر الثروة، الظروف . الظروف التى تعمل ـ ولو للحظة ـ تأثير المهابة وقوة الثروة ، فتهب تيارات غريبة تدفع بأبى قردان إلى قمة جبل ، فتظنه الطيور المستضعفة التى توارثت الخوف من الأعالى صقرا كاسرا.

وعاد الشاب الأول يتساءل : هل تعنى أن الزكى بك لم يكن جديرا بنيل الترقية ؟

وقال الآخر : لنعرف أولا كيف رقى دون الأكثر جدارة .

وصمت رمضان أفندى قليلا ليرتب أفكاره بما يناسب السؤالين .. ثم قال :

الزكى الهراس من صنف خاص من الناس . مهمته الحقيقية العناية بتحسين

صورته ، يملك القليل جدا من المواهب ، ولكنه يحسن عرض هذا القليل . وهذا للأمانة التاريخية ليس رأيي ، ولكنه جاء في أحد التقارير السرية التي كتبها عنه وكيل وزارة سابق ، ووقع في يدي مصادفة قبل أن يأخذ طريقه في مظروفه المختوم بالشمع إلى ملف الهراس . هو شخص ليس له أعداء ، كما أنه ليس له أصدقاء . لم يوقع عقوبة على موظف ، ولكنه لم يطلب ترقية أو علاوة استثنائية لأي شخص ، لا يأنف من تلقي توجيهات رؤسائه ، وربما تلقى تأنيب بعضهم أيضا ، ولكنه لاينفذ من التوجيهات إلا في حدود ما يدرأ عنه تهمة العصيان . لا يغضب الرؤساء الآخرين . يطيل الصمت اذا صمت ، ويطيل الكلام اذا تكلم ، ولكن صمته وكلامه سيان .. تستطيع أن تفسرهما كما تشاء ، لكل هذا لايتحمس أحد لترقيته كل مرة ولكنه يرقى دون اعتراض جدي كل مرة !!

قال أحدهم : فكيف فضله الرؤساء على زمزم بك وعاصم بك ؟

- هما غلباه على نفسيهما ، لأنه ، لأول مرة وربما لآخر مرة في إدارة التخطيط ، كانت المنافسة بين هذين الرجلين اللذين قضيا عمرهما الوظيفي في مشاكسة كل منهما للآخر ، على : من منهما الذي يفوز بعدم الترقية إلى مدير عام !! ؟

وقبل أن تفيض الدهشة على وجوه المجموعة ، كان رمضان أفندي يمضي في استكمال معالم اللحظة الدرامية :

أما زمزم بك فقد كان لديه بنتان تخرجتا في الجامعة حديثا احداهما مخطوبة ، والأخرى كتب كتابها ، ويبدو أنه تعرض لالحاح وضغوط من صهريه لاتمام الزواج ، ولما كان رجلا مستقيما ويعيش في حدود مرتبه ، فانه عجز عن تدبير ما ينبغي اعداده لتجهيز بنتيه فضلا عن نفقات الزفاف كما

تعرفون . انتهز الرجل فرصة خروجه ضمن وفد وزارى إلى احدى دول النفط وكانت سمعته الحسنة معروفة ، فحصل على وعد باعارة لمدة عامين ، كان الرجل تواقا للقب « المدير العام » ويعلم الله أنه يزينها ويستحقها بجدارة ، ولكنها حين وافته كان الزمن قد تغير ، وأصبح الاختيار صعبا ، وبعد تردد غير طويل فضل زمزم بك حل مشكلة بناته ولو بتأجيل الترقية . على الاستقرار فى كرسى المدير العام الذى يحول بينه وبين الاعارة

ـ طيب .. وعاصم بك ؟

ـ هنا نفتح ملفا آخر ، ولكن قبل أن نفعل نعرف أن مدير عام إدارة التخطيط هو بحكم منصبه عضو فى مجلس أمنى حساس على مستوى الدولة يرأسه وزير مختص . وعاصم بك ـ ان كنتم لاتعرفون ـ مشارك من الباطن فى ثلاثة ملاه ليلية تحتل نصف مساحة شارع الهرم ـ وله صلات ناعمة كثيرة ، ويمكنك أن تراجع قوائم المطربات والراقصات فى هذه الملاهى الثلاثة لتجد أنها واحدة تتكرر على التبادل بينها مما يؤكد أنها تخضع لمخطط واحد . ولاشك أن عضوية المجلس اياه تتنافى تماما مع نشاطه الليلى الواسع وثروته التى تأتى متسربلة بالظلام .

ـ وطبعا أعضاء هذا الجهاز يتم التحرى عنهم سلفا ، وربما يراقبون خفية للتأكد من نزاهتهم .

ـ بالتأكيد ، ولذلك ، ورغم اندفاعه فى منافسة زمزم بك ـ رد الله غربته ـ فاننى سمعت أنه بذل جهودا كثيرة فى الاعتذار عن عدم قبول الترقية ، والاحتفاظ بمكانه ، أو حتى نقله إلى إدارة أخرى اذا أصر رؤساؤه على ترقيته.

وتمتم الجميع : حظوظ

وقال أحدهم : رب ساعٍ لقاعد !

قال رمضان أفندى :

وهكذا تم اختيار الهراس لمنصب مدير عام ادارة التخطيط .

* * *

انتفض الساعى المتقاعس على باب الوكيل المساعد للشؤون القانونية مذعورا حين وجد يدا تمتد إلى مقبض الباب تريد أن تفتحه وتدخل المكتب دون استئذان . تحرك حركة غريزية يريد منع اليد الممتدة فوجد نفسه أمام سعادة وكيل الوزارة وجها لوجه !!

انبسطت قسمات الوكيل المساعد للشؤون القانونية حين وجد الوكيل بنفسه يتوسط مكتبه ، واعتبر قدومه دون اتصال تليفونى مسبق دليل عشم ومحبة ، أو محاولة استرضاء على مستوى أخوى .

وقد كانت الحقيقة قريبة من ذلك . انتهى الاجتماع فى الصباح باغضاب الوكيل المساعد ورفضه التام لترقيه الهراس من مدير عام إلى وكيل مساعد لشؤون التخطيط والمتابعة ، وأوشك - لولا علاقة الثقة التى تربطه بالوكيل - أن يلوح بمسؤوليته المباشرة عن توصيف الوظائف وتطبيق القانون ، ولكن الوكيل أملى رغبته فى ترشيح الهراس للوظيفة متعللا بالأسباب العامة التى يمكن أن تطلق على أى موظف عادى ، ويمكن أن تسلب عنه فى نفس اللحظة دون أن تميزه عن غيره . خرج الوكيل المساعد شبه غاضب . تفكر الوكيل قليلا فى موقفه ، بعد مداولة داخلية لم يجد غضاضة فى أن يبرئ ساحة نفسه ويؤكد نزاهته لمساعده ، حفاظا على الود بين المستويات الإدارية العليا ، ولأنه كثيرا ما يستعين بخبرته القانونية فى أجازة أو منع أشياء له فيها رأى خاص قد تعانده اللوائح أو يعثر فى حبال القانون الطويلة ، وربما فكر فى

التراجع عن الترضية حفاظا على مهابة الوكالة وحقها المطلق فى قبول الاقتراح أو رفضه ، ولعل هذا الدافع المتحدى استطاع أن يتغلب على دوافع المجاملة ، فحمل « الحركة » فى يده ، وغادر مكتبه متجها إلى مكتب الوزير ، ولكنه غير فكرته فجأة حين وجد نفسه يمر بالباب ، فلم يملك يده أن تمتد إلى المقبض ، وما هى الاخطوة لم يفكر فيها حتى كان يتوسط الغرفة الواسعة ، والوكيل المساعد مبهوت بالمفاجأة ، سماعة التليفون فى يده خالية من الكلام ، وقامته البرميلية محشورة بين الكرسى والمكتب وهو يحاول أن يغادر موقعه تعبيرا عن احترامه ، ولا تسعفه الكلمات.

جلس الرجلان فى مقعدين متقابلين . قال الوكيل مجاملا وهو يتلمس أطراف الملف : أنا ذاهب بالحركة إلى الوزير ، ولن أكمل رحلتى حتى تكون راضيا.

قال المساعد بصدق .

يا سعادة الوكيل . أنا راض عنك رضائى عن أبى وأساتذتى . فأنت أستاذى فى هذا العمل الذى نضطلع بأماناته ومسؤوليته . أنا تلقيت عنك دروسا فى النزاهة ، والحكم على الرجال . كيف نضع الهراس ..

قاطعه الوكيل متمازحا :

أنت غاضب لأنه سيكون وكيلا مساعدا مثلك ؟

- أحسنت يا سعادة الوكيل ، مع تعديل بسيط .. فلن يكون مثلى أبدا .

قال ملاطفا :

أنا أول من يقر بذلك :

- عظيم . فكيف نضعه فى السلم الوظيفى أمام من نعرف أنهم أكفأ منه

: سامی بك ، والسبع بك ؟

ـ أكفأ منه .. ربما ، والمسألة نسبية .

ـ هنا اسمح لى نختلف يا سعادة الوكيل . لن أعود إلى ما سبق قوله في مكتب سعادتكم . الكفاءة ليست نسبية ، ولا تحتمل الاختلاف ، الا أن يكون اختلافا على تصور الدور الذى يقوم به الموظف القيادى .

أراد الوكيل أن ينهى الكلام بلطافة . موعده مع الوزير قد أزف ، والدخول فيما سبق ترديده من حجج لن يؤدي إلى جديد.

قال برقة :

لو علمت أن هذه رغبة معالى الوزير . ماذا أنت قائل ؟!

بوغت الوكيل المساعد . كان يظن نفسه عليما ببواطن العلاقات وأسرار الاتصالات ، لم يظن ، ولا فى الأوهام ، أن الزكى الهراس يهم الوزير بأية درجة ! تفكر قليلا ، أعاد حساباته . تخيل سلسلة احتمالات : نسب مرتقب، جيرة فى البلاد الأصلية ، انتماء لنفس الكلية ، ثم ذهب إلى أبعد من ذلك : صلة بجهة مالا يدرى عنها أحد ..

لم يستطع الوكيل المساعد أن يصرح بشئ مما جال فى هواجسه ، ولكن سحابة القلق عبرت بوجهه فوشت بمكنون الضمير .

قال الوكيل :

لاتظلم الرجل . أنت تعرف أن وزيرنا نزيه نظيف السيرة.

ـ نعم . معلوم ، ولكن : كيف يقدم الهراس وعنده سامى بك والسبع بك ، ولا مجال للمقارنة ؟

ـ النزاهة !!

ـ النزاهة ! كيف تكون النزاهة سببا فى عدم النزاهة ؟ وضح لى ، ولا تؤاخذنى على صراحة التعبير .

ـ لم يصدر ما يستدعى المؤاخذة . سأوضح لك . لم تكن لدينا درجة وكيل مساعد ، لولا أن نصحى بك طلب احالته إلى التقاعد ليشتغل بالتجارة لاستقر الأمر على حاله فترة طويلة .. الحاصل أن لدينا درجة واحدة شاغرة . لو ترك الرجلان الأمر لوزيرنا لاختار أحدهما دون شك ، والآخر يلحق به فى فرصة لابد أن تأتى ، ولكن كلا منهما اعتبرها معركة مصير . وهكذا انزلقا إلى تبادل الكيد ونشر التقولات ، وسعى كل إلى تزكية نفسه بكل سبيل دافع وزير آخر عن سامى بك وكلم وزيرنا فى أمره ، وعلق بعض أمور وزارتنا عنده حتى يستجاب لرجائه ، وتكلم نائب وضابط كبير فى شأن السبع بك ، وألح كل فريق على الوزير حتى مل الرجل ، وأحس بالحرج ، وصل إلى قناعة أن اختيار أحد الرجلين سيؤدى إلى تفسيرات خاطئة لاتليق به . من هنا كان القرار . القرار الأكثر حيادا ونزاهة !!

لم يجد الوكيل المساعد للشؤون القانونية ما يعلق به . غرق فى دوامة خفيفة للحظة خاطفة .. حاول أن يستجمع فكرته ويقول شيئا ، أى شئ ، ولكنه قبل أن يفعل ، كان شبح الوكيل يتوارى خلف ضباب الباب الزجاجى .

فيـــل أبيـــض ... وحيـــد

إنه لايميل بطبعه إلى فتح مخزن الذكريات . اهتمامه الحاد بالعمل ، واستغراقه فى اللحظة الراهنة ، بكل قواه ، يأبيان عليه الخلود إلى السكينة ، وتقليب صفحات الماضى . إنه الآن ـ بعد صدمة صغيرة ، هى مجرد مفارقة طريفة ـ يكشف أن هذا الماضى كان طويلا جدا ، وأنه صنع فيه أشياء كثيرة ، قد يحابى نفسه محاباة مشروعة ، فيؤكد أنه أراد الخير بكل ما صنع . ولكنّ هذه الأشياء الممتدة فى الزمان ، تستطيع أن ترى أولّها ، وتعرفه ، أما آخرها، أو ما يمكن أن يتولد عنها ، فلن يكون أبدا فى مجال الرؤية ، ولن يسفر عن حقيقة إلاّ بعد محاولة اقتراب شديد . وهذا ما كان . يستطيع الآن أن يستعيد صوت هدير التربينات ، والطائرة توشك على الإقلاع . كلمات الوداع كانت هامسة رقيقة ، تصدر عن حب حقيقى ، ولكنه همس كان أقوى من الهدير ، لكنه كان قد قرّر بتصميم هادئ ، أن ينهى زمن الرحيل ويعود إلي الوطن .. الأصدقاء والناس والشوارع والأرض . وكان يعلق أمله فى التغلب على صعوبة الوداع ، على حرارة اللقاء . لم يخيّب الأصدقاء حلمه بلقاء حميم ، وأعانه طبعه ، الذى يغرق فى الراهن ، ويجيد الاستدارة مائة وثمانين درجة فى لحظة واحدة ، على التخلص السريع من روائح الماضى النفاذة، واشراع الخياشيم لرائحة الياسمين فى حديقة داره الصغيرة . نال حظا وافرا من الأحضان والقبلات ، والمصافحات ، بدرجات مختلفة من الالفة ورغبة الاقتراب . صنعت فى مجموعها إحساسا كافيا بسلامة الوصول إلى

وطن ، لم يشعر إبان رحيله الطويل فى بلاد الله ، أنه بعيد عنه ، أو منقطع التفكير فيه.

كان أصدقاؤه بمثابة رئته الوطنية ، التى يجذب من خلالها أنفاس الحياة فى بلاده . لم ينس أشخاصهم ، ولم ينسوه . فى أى مدينة يكون ، يرسل إليهم تذكاراته ، حسب الظروف والاستطراف ، قد يكون التذكار مجرد كارت بوستال عليه اسم مدينة وصورة تمثال ، أو اسم قديس ، ومجموعة من الورود ، ولولا أنه بطبعه لا يميل إلى فتح مخزن الذكريات لأمكنه أن يحصى الكثير جدا من مثل هذه اللطائف النادرة البسيطة ، التى تحمل معنى التذكر والحنين. غير أنه لايستطيع أن ينسى تذكارين بالذات ، بعث بهما إلى أقرب صديقين إلى نفسه ، وكان لهما نوع من خصوصية الظروف . حين كان فى مهمة صحفية فى شمال الهند ، دخل محلا للتحف ، كل بضاعته من تماثيل الفيلة ، المصنوعة من خشب الأبنوس الأسود ، أو البنى الغامق . كان كل شئ فى الدكان الصغير له نفس اللون ، واللمعان ، حتى وجه البائع الهندى ، ويده النحيلة المضمخة بالزيوت العطرية . تجول بحذر بين المناضد الخشبية الساذجة، على لونها الطبيعى ، المثقلة بتماثيل الفيلة ، ما بين شامخ بخرطومه فى الفضاء ، وبارك قرب جذع عجوز ، مع أنهم افهموه فى المدرسة أن الفيلة محكوم عليها بالوقوف الأبدى ، وانها اذا بركت فإنما لتموت !! فى زاوية الدكان ، على الرفّ الأسفل من منضدة ذات دورين ، رأى فى هذا الركام من الفيلة الداكنة ، فيلا أبيض وحيدا . بدا منظره غريبا ، شاذا ، كأنه أول شعرة شائبة فى مقدمة رأس شابة !! امتدت الاصابع متسللة مرتجفة إلى الفيل

الأبيض ، حتى أمسكت به ، سأل البائع :

- فيل أبيض وحيد !! ما ثمنه ؟

- مثل أي فيل آخر .. الأسعار هنا موحدة .

- أجاب ، وانصرف يتشاغل بمسح غبار موهوم عن فيلة أنثى ترضع فيلا طفلا . عاد يسأل :

- ظننته أغلى (خاف أن يسئ البائع به الظن ، لتفضيل لون أبيض على لون أسود ، ولو في الافيال ، فاستدرك) أو أرخص .

قال البائع الهندى : ولماذا أغلى أو أرخص ؟! كلها صور لشئ واحد .

مع أن العبارة عادية ، فقد كان عنده استعداد متأهب ، للتفكير الطويل فى أى أمر أو كلمة تصادفه فى الهند ، لشدة اقتناعه بالحكمة الهندية ، وإعجابه بأساطير الهنود . قال للبائع :

- ولكن هذا الأبيض من مادة مختلفة ..

- المهّم ما وراء المادة .

وهذه جملة أخرى هندية تستحق التفكير . وقبل أن يديرها فى رأسه كان الآخر قد اضاف :

- هل يختلف إحساسك ؟ إنه فيل على كل حال .

أسرع كأنما وجد فرصة لإحراج الهندى :

- فيل ، نعم ، ولكنه أبيض .

قال مبتسما ، وهو يمدّ يده لاستعادة الفيل الأبيض وإعادته إلى مكانه على الرفّ السفلى :

ـ ليست هذه ميزة فيه ، ولكنه انحراف فى فهمك له .

وقف مبهوتا ، لم يجد جوابا ، ظلت أصابعه قابضة على قوائم الفيل . شعر بغيظ لما يشمّ من رائحة الاستخفاف فى لهجة الهندى ، وبغيظ أكثر لأنه لم يستطع توجيه إهانة بالبديهة والسرعة التى يردّ بها عليه . لكنه صمم ، فوجد كلمة لم يفكر فيها ، على طرف لسانه . قذف بها.

ـ لماذا تصمم على استرداده ؟ إننى سأشتريه .

ـ يكون أحسن !!

قالها بارتياح حقيقى ، وكأنه يزيح كابوساً عن صدره .

قال : لماذا يكون أحسن ؟

ـ لأنه غريب ، يشعر بمأساته ، منبوذ . عندك سيكون مجرد فيل وحيد. أما هنا ، فهو وحيد ومنبوذ .

أعجبته العبارة ، وأعجبه أن الهندى فقد تحفظه ، وأصبح يطيل فى الجواب ، فطمع فى المزيد :

ـ باستطاعتك ألاّ تجعله وحيدا ولا منبوذا . اصنع مائه أو الفا مثله.

ـ لا أرغب فى معاندة الطبيعة . الافيال سوداء ، وينبغى أن تبقى كذلك . الناس أيضا يفضلونها على طبيعتها ـ لايقبل على شراء فيل أبيض إلاّ إنسان خاص .

ـ ما معنى خاص ؟ ماذا تقصد بهذا الوصف ؟

ـ جواب هذا السؤال عندك . حدّق فى نفسك .

توقف الهندى عن الكلام بفعل إرادى ملتزم ـ عاد يمدّ يده لاسترداد الفيل

ليحسم الموقف : إما الشراء وإما مغادرة الدكان !! .. اشترى الفيل الابيض الوحيد .. لم تكن لديه فرصة للتفكير فى معنى ما سمع . السفر والمؤتمرات ضد التفكير من الأساس . حمل الفيل معه فى إحدى زياراته لأصدقاء الوطن، قدمه هدية لأعز أصدقائه ، مصطفى ، الشاعر وحده يستطع أن يكتشف لفيل أبيض وحيد ، معنى أكثر من الوحدة والنبذ أهداه إلى مصطفى، فى إطار من قصة شرائه الطريفة . إنه لايميل بطبعه إلى فتح مخزن الذكريات ، ولكنه أبدا لم يخطر بباله ، وهو يقدم الفيل إلى صديقه الشاعر أنه سيقابله ، الفيل ، فى موقع آخر ، ومعه جواب السؤال الذى رفض الهندى الإفصاح عنه .

بين التذكار الأول ، والتذكار الثانى تناقضات شتى ، أحدهما من الهند ، والآخر من البرازيل ، أولهما ارتبط بمهمة ثقافية ، والثانى أحضره حين ذهب لمشاهدة مهرجان الرقص ، الذى يجتاح تلك البلاد مثل الفيضان ، كل عام ، ولكنه فيضان من نساء رشيقات فى لون الشيكولاتة ، وأحلى كثيرا من مذاقها . وكان الحوار مع الهندى مثيراً للتأمل ، أما كانديزا فالكلام معها ينتمى إلى عالم آخر مختلف .

كانديزا اسم نوع من الحلوى الإيطالية ، حملته فتاة البرازيل فى مناسبة قديمة عاشتها أمها ، وخرجت منها بمرشدة سياحية نصفها برازيلى ، ونصفها الآخر إيطالى ، اجتمعت الشيكولاتة ومذاق البراندى فى كاندريزا . أحسّ بالانجذاب إليها حين استقبلته ضمن وفد من السائحين ، على باب الطائرة . بعد أن جمعت جوازات السفر ، غافلته وقلبت الغلاف فعرفت اسمه وموطنه .

حين وجدت فرصة قالت له :

ـ إذا عرف السبب ...

قال يكمل عبارتها : بطل العجب

قالت : انا ايضا احسست كأننا التقينا من قبل .

ـ لست أدرى عن أى شئ تتحدثين ، وإن كان هذا الشعور يسعدنى بالطبع.

ـ لماذا تراوغ ؟!

ـ حقا ، لا اعرف تماما ، موضوع اهتمامك ..

بعد أن جاراها فى عبارتها الأولى ، شعر بخجل مفاجئ من أنها ضبطته متلبسا بالتحديق فيها ، ثم كانت هجتمها المباشرة عليه مثار حيرة ، هل يقدم أم يحجم ؟!

ـ اسمى كانديزا ، نصفى إيطالى ، وأنت مصرى ، كلنا بحر متوسط ، لم أشاهد الاسكندرية ، لكنهم يقولون إنهاصورة من نابولى ، ومرسيليا ، أنا شاهدتهما حين ذهبت لرؤية أبى .

ـ أشكرك على هذا الايضاح .

ـ المتوسط هو أبونا التاريخى ، ومنه نتعلم أن الوسط ، والتوسط هو الكمال أحيانا ، والممكن الآمن فى أكثر الأحايين ..

لم يستطع مجاراتها ، لم يكن يعرف تماما ، إلام تهدف . غير أنه اقترب من التخمين الصحيح ، حين أضافت كانديزا :

ـ زيارتك قصيرة جدا كما أرى ..

ثلاثة أيام لاتكفى .. .

ـ مشاهدة المهرجان مقصدى .. مع التقاط بعض المناظر التذكارية .

ـ ثلاثة أيام لاتكفى ان ترى ريوديجانيرو كما يجب .

رمقته بنظرة مطمئنة ، لا تلقى بها المرأة إلا لمن عايشته زمنا ، وألفته فى أحوال مختلفة ، وسبرت أعماقه وعرفت أسراره ، مثل غرفتك الخاصة ، دون أن تضطر إلى إضاءة النور ، تعرف قدماك كل شبر فيها ، وتهتدى يدك إلى مواقع الأشياء فى جوانبها . لكنه لم يتعجل الردّ على الإشارة ، إنه زوج ، نصف مخلص ، يستبيح الكلام بلا حدود ، ولكنه جبان الفعل تماما . كان طيف زوجته شديد الحضور دائما ، ولكنه يشعر فى هذه العاصمة البعيدة جدا ، أن الطيف يصادف مشقات في محاولة الحضور . مع هذا لم يكن تهاوى حصونه بالأمر السهل ، ولولا أنه كان يشعر بالبرد الشديد ، وأصبح يؤمن أن قطعة من الشيكولاتة ، وجرعة من البراندى . هما وحدهما قادرتان على إعادة الدم يجرى دافئا فى شرايينه ، لولا هذا ، ما أهدر واحدة من ميزاته التى كان يفخر بها فى نفسه ، فكانت الكلمة ، عنده تساوى الفعل إلاّ فى هذا الجانب ، ظلت الكلمات بديلا للفعل ، ثم التقيا ذات ليلة إبان مهرجان الرقص العالمى .

لم يكن ما حدث فى ريوديجانيرو بالأمر الغريب ، أو النادر فى مثل موقفه ، لكن المثير حقا أنه حدث فى الساعات الاخيرة ، من الليلة الثالثة ، وهى الأخيرة فى رحلته السريعة . طرقت باب حجرته قرب الفجر ، كأنما كان يترقبها ، ربما كانت يده على مقبض الباب فى نفس اللحظة التى نقر ظفرها

القرمزى علي الزجاج . جلست على حافة الفراش وتنهدت .

- ستسافر .

- باقى ست ساعات ..

- كنت تملك ثروة واسعة ، مقدارها أكثر من سبعين ساعة .. انت الآن على شفا الافلاس ، فلا تبدد بسهولة الجنيه الأخير ، أعنى : الساعة أو الساعات الأخيرة ..

- وزوجتى ؟!

- لابد أنها رائعة لتقنعك بوجودها رغم البُعد الشديد . لكنى أقول إنك أكثر منها روعة ، لأنك رضيت بالحرمان الاختيارى حتى الان .

- أشكر لك هذا الإطراء .

صمتت ، لايدرى لماذا تذكر موقفه فى دكان الأفيال ، فى زمن مضى ، رغم أن أطراف الموقف كانت معكوسة . كانت كانديزا تثرثر لتجلب منه كلمة، وكان هو يلتزم الصمت ، أو يجيب باقتضاب ، عكس البائع الهندى ، وكان يتعلق بأهداب مبادئ يحفز نفسه على التمّسك بها ، فى حين تصدر هى عن استجابة مباشرة لميل غريزى وطبيعى .

- دعنى أصارحك .

هكذا قالت ، وهى تتراجع بأردافها اللطيفة على حافة الفراش ، جالسة ، وهو فى نصف استلقاءة ، أمسكت بطرف اصبعه الصغير ، ثم أكملت :

- إنك ستكون نادما تماما بعد ساعات قلائل إذا تمسكت بهذا الصمت ، ستذكرنى بحزن وندم ، إذا غادرت دون تذكار عزيز ، ستشعر بأنك لم تكن

بحاجة إلى تضحية بهذا الحجم لتؤكد تمسكك بالأخلاق الشرقية الوهمية.

لمعت الكلمة الأخيرة فى أفق عقله كالشهاب الراصد . أحقا أن الأخلاق الشرقية مجرد وهم يفرض نفسه عليه ؟

وبسرعة البرق نبذ تساؤله . إذ فطنت هى إلى غلطها ، لعلها قرأتها فى غروب عينيه ، فأردفت على الفور :

ـ وقد تندم أيضا لما سيحدث الآن ، ولكنى متأكدة أنك ستكون أقل ندما

قالت ذلك وهى تزيحه عن وسط الفراش لتأخذ مكانه ، بحث عن كلمة ، لم يجد صوته ، بعد جهد استطاع أن يقول :

ـ هل أنت متأكدة من هذا ؟

ـ ألم أقل لك إن المتوسط هو أبونا التاريخى ، وأن الوسط هو المساحة الذهبية ؟!

بعد ساعات كانت كانديزا تودع الوفد السياحى عند سلم الطائرة المغادرة، وحين جاء دوره منحته قبلة صغيرة ، وأعطته مع جواز السفر علبة صغيرة ، قالت : سأقدم لك هذه الهدية على طريقتكم .. مقفلة ، تفتحها وحدك ، تفهمها وحدك ..

حين أخذ مكانه فى الطائرة ، فتح العلبة ، كانت لعبة صغيرة ، رجل فولاذى ، يمسك بين يديه عصا طويلة تحفظ توزانه ، فى حين يقف الرجل على ما يشبه سن الابرة ، يتأرجح ، والعصا تميل معه ، دون أن يسقط فى أى اتجاه . كان المنظر مثيرا للتفكير . فكر فيه طويلا ، لكنه ، مع هذا تخلص من التمثال ،كان يخشى أن تراه زوجته ، فتشم فيه رائحة الخطيئة . ولأنه لم

يشعر بالندم أصلا ، ولم يكف عن تذكر الساعات الأخيرة فى رحلة مهرجان الرقص العالمى ، ولأن التمثال كانت عبقرية فكرته فى بساطته ، ولأنه لا يريد أن يفقده إلى الأبد ، فقد أهداه إلى صديقه عاطف ، فى إحدى زياراته لأرض الوطن .

حين وضع التمثال على المكتب أمام عاطف ، تأمله مليا ، ثم قال لصديقه:

- رأيى من رأيك تماما ..

- التوازن الرائع ..

- هو عندك توازن عام ، ولكنه عندى توازن بين الثقافة والتجارة ، أليس هذا بالضبط موقع الناشر ؟! أنا هذا الرجل الفولاذى .

انتهى لقاء المطار بالأحضان والقبلات كما بدأ ، وتواعد بالاتصال التليفونى للاجتماع على طعام مشترك كان سعيدا بالوصول ، شديد التفاؤل بكل ما يرى ، تذكر نكتة قديمة لكنها كانت له موحية ، حين كانت تكثرالاضرابات الطلابية لسبب ولغير سبب ، كان بعض العابثين من صغار الطلاب يهتف بجدية مصطنعة : يعيش السمك فى الماء . فيردد رفاقة مشاركين : يعيش ، يعيش ، يعيش !! لكنه لايدرى كيف استعاد هذة الجملة المازحة بكل جدية ، وتصورها كقاعدة علمية ، لايعيش السمك إلاّ فى الماء ، كما لايعيش المواطن إلا بين أهله ، غربته ، مهما طالت ، تحوله إلى سمكة من أسماك الزينة ، تعيش مكشوفة فى حوض زجاجى ، حياة مصنوعة قلقة ، لاَ أمل فى أن تستمر إلاّ بالعودة إلى مياه البحر .. الوطن هو البحر . وعلى

مائدة مصطفى أكل حتى امتلأ ، رموز الأرض والجوّ : الملوخية والحمام المحشو بالفريك ، وعلى مائدة عاطف استكمل « الديكور » الوطنى ، فأكل « أم على » و « عاشوراء » باللوز والزبيب . طوف حديث الأصدقاء فى كل مراحل الماضى العزيز . لأول مرة - منذ زمن طويل - تخلّى عن طبعه ، وفتح مخزن الذكريات ، عمر كامل ترادفت سنواته ، مثل تساقط حبات المسبحة فى يد شاردة ، حملته موجات الزمن مهدهدة ضاحكة ، من القفز فوق سور المدرسة الإعدادية ، إلى مظاهرات المدرسة الثانوية ، إلى قصص الحب والشعر والفن فى المرحلة الجامعية . كان صاحباه يقودان الحديث ، وهو يتصفح الأوراق - السنوات المطوية بدهشة وغرابة ، كأنها حدثت لشخص غيره .

هبت نسمة خريفية مبكرة ، أحسّ بشئ من القشعريرة و استأذن مغادرا . حين خلا إلى نفسه ، يتدفأ على أنفاس قدّح من الشاى ، اكتشف أن صديقيه لم يسألاه ، ولا بطريق عابر ، أو بالمصادفة ، عما ينوى أن يعمل بعد عودته إلى الوطن . قال فى نفسه : خدعنا حديث الماضى عن المستقبل ، وليس مصطفى ولاعاطف بالغفلة التى تجعلهما لا يفطنان إلى الكلمة المطلوبة فى موقفه الراهن ، ولا يستبعد أن أحدهما أو كليهما يدبران أمرا هو واجب عليهما بحق الصداقة ، ثم ..ماذا يكلفهما ذلك ؟ الم يكونوا زملاء من قبل، وهما فى الحرفة لايزالان ؟ إن انضمامه إليهما ، إلى الشاعر فى صحيفته ، أو الناشر فى مؤسسته يجب أن يعّد كسبا لهما ، لابد أنه النسيان ، أو تفضيل أسلوب المفاجأة ، فهذا هو الأليق بصديق قديم.

مرّ يوم ، لم يعد يتجشأ حماما محشوا ويوم آخر غاب فيه طعم

العاشوراء، ثم مرت أيام لم يعد يذكر منها إلاَّ أن تليفون بيته صامت من جانب الصديقين ، وكأنما أسقطا الحرج من جانبهما بوليمتين سخيتين ، فكر فى معنى هذا الصمت الوافد . لم يستبعد أن يكون قد حدث لأحدهما أمر يشغله ، ولكن : هل يتفق مثل هذا الأمر للاثنين معا ؟! لم يشعر بقلق وهو يطلبهما الواحد بعد الآخر .. قيل له : مصطفى نائم . وقيل له : عاطف فى الخارج . لابأس ، كل نائم يستيقظ ، وكل خارج سيعود . وظل تليفونه صامتا . قال : كثيرا ما يهمل الأولاد فى ابلاغ ابائهم ، لابد أن أعاود السؤال . قيل له : مصطفى فى الخارج . وقيل له : عاطف نائم . إنه لايريد أن يصدق . ليس من اليسير عليه أن يصدق . عاد ينظر إلى رحلته فى الزمن، اكتشف الآن فقط كم هى طويلة ، إذاوقف فى أولها لم ير آخرها ، وإذا وقف فى آخرها غاب عنه أولها فى ضباب البدايات . اكتشف أن عصير العنب يصبح خمرا ، ويصبح خلا ، والفرق فى الوقت . اكتشف أن المعايشة عن بعد هى محض فكرة ، أما الملابسة عن قرب فهى التفاعل والتكامل . تعبير شعبى ساذج وجارح كما الصدق القراح : بعيد عن العين ، بعيد عن القلب . ولكن : كيف تم هذا والرسائل المتبادلة ، والتذكارات والهدايا لم تكن إلاَّ نجوى القلوب ؟

وتساءل بقلق : هل هو اتفاق بالمصادفة . أم اتفاق تدبير ؟ استبعد المعنى الأخير ، على الأقل لأنه كان السبب الأول فى صداقة مصطفى وعاطف ، فكيف ينكران الشجرة ، وينعمان بالثمرة ؟! .. ثم هل ينسى أنه ذات صيف

قريب ، عاد فى إحدى زوراته فوجدهما على خصام وقطيعة ، فآلى على نفسه ألا يبرح عـائداً حتى يجتـمعـا ، وبذل من وقتـه وماله مـا انتهى بهـمـا إلى التصافى من جديد ؟ لابد أن شيئا ما ، دخيلا عليهم ، لايعرفه ، قد ألقى ظلاله القاتمة على الودّ القديم .

وذهب إلى عاطف فى مؤسسته ، دعا بالبارد ، ثم بالساخن على عجل ، وبين هذا وذاك لم يكف عن الكلام ، وكل حديثه شكوى ، من استيراد الورق، من تكاسل العمـال ، من تعنت التأمـينات ، من طمع بعض المؤلفين ، حتى زوجته ، وحماته ، وجيرانه ، اشتكى منهم ، وكأن كل حرصه على ملء الزمن المسـمـوح للزيارة بالكلام من طرف واحـد . فى البـداية كـان يريد أن يكون البادئ، فلما سبقه حاول اقتناص فرصة ليتحدث ، فلما لم يسكت الآخر فقد حماسته للمتابعة ، وتركه يقول ، وراح يتجول بعينيه فى لاشئ . كان عاطف مسترسلا يتدفق ، ثم تنبه على النظرات الشاردة ، تابعها ، سكت لحظة ، قال فجأة :

ـ شغلك التمثال عن متابعتى ، سامحنى ، همومى كثيرة ، وإن لم أتخلص من بعضها بين يديك ، فلمن أشكو ؟

ـ والتمثال ؟!

ـ هذا الفـيل الأبيض ؟ هدية من مـصطفى ، لا أعـرف من أين وقع على مـصطفى ، لا أعـرف من اين وقع على هذا المخلوق الشـاذ . فـيل أبيض تصور؟! ليس الشعر أغرب ما يصنع الشعراء . سلوكهم أشد غرابة .. تصور .. حدثت بيننا مشاحنات بعد المرة إياها ، مصطفى متعب ، لم أنس لك

سفارتك المهدئة بيننا ..

ها هو ذا الجرح يفغر فاه ، ويظهر الصديد قرب حافته المفزعة ، لا مهرب من بلوغ القاع . وذهب إلى مصطفى . كان مشغولا باجتماع مع مساعديه فى تحرير صفحته ، عرف بوجوده ، جاءته تحيه على يد فراش المكتب ولكن انتظاره طال . ثم جاء مصطفى تحيط به هالة من صغار المحررين . سلم سلام المشغول المرهق ، أباح له هذا أن يتأخر فى دعوته للجلوس . سأله : هل شربت شيئاً .. إذا كان الفراش تأخر فى الحفاوة بك سأجلده !! الجلد كلمة غير شعرية فكيف جرت على لسانك يا شاعر ؟ شكره وهو يتطلع إلى العبارة التالية ، من سيبدؤها ؟ أوشك أن يفتح فمه ، لكن مصطفى سبقه :

- بصراحة ، صاحبك لايطاق . والله .. انتظرت على مضض حتى تعود وأشكوه إليك .

- خير إن شاء الله ..

- طماع يا أخى .. يقال إن الثورات يصنعها الشجعان ، ويكسبها الجبناء وأنا أقول : الشعر يصنعه المبدعون ويأكله الناشرون .. رضيتك حكما يا أخى، فقدّر صبرى واحتمالى ، ووفائى للصداقة .

وعد بالتدخل لإصلاح ما أفسد الشعر من علاقة الصديقين . شكر على التحية وهو يحمد الله أن الفراش لم يجلد بسببه ، خرج متخاذلا يحاول أن يشدّ قامته وكأنه ينهض من تحت ركام . عند زاوية الباب لمح التمثال الذى أهدته إليه كانديزا ملقى بإهمال ، وقد سقط الرجل عن قمته الدقيقة ، وإستقلت عصا التوزان إلى جانبه !!

كعادته .. أومأ لفراش المكتب أن يضع كوب الشاى على حافة المكتب دون تقليب ، لايعرف كيف اكتسب هذه العادة الغريبة التى أصبحت طبعا أصيلا ، يروق له أن يرى قطعتى السكر متعانقتين فى قاع الكوب الأحمر ، ويظل يراقبهما وهما تتآكلان بالتدريج عقب كل رشفة شاى يلتذ فيها بالمذاق الطبيعى ، حتى اذا بقيت الرشفة الأخيرة فى قاع الكوب صنع من حولها موجات وذبذبات حتى ينمحى فيها السكر الباقى ، ثم امتصها على مهل ، فتستحيل فى فمه إلى عسل !! بعد الرشفة الأولى فتح أول دوسية ، وأمسك بالقلم الأحمر ليضع خطوطا تحت الخلاصة ، رمق ساعة المكتب ، ولاحظ أن الساعة العاشرة والنصف الا خمس دقائق ... لم تكن بين العقربين أية علاقة شكلية . دق جرس التليفون الدخلى ، أطلق نفسا حبيسا ، وأمسك السماعة وبادر :

ـ سعادة المدير نهارك سعيد .

ـ أهلا .. تعال عندى دقيقتين من فضلك .

صدمته طريقة الرد ، فكر بسرعة ، لايستطيع قبول المخاشنة بالتجاهل ، أو بمثلها ، فآثر أن يمسك العصا من الوسط :

ـ فى يدى بعض الأوراق ، ربع ساعة أو نصف على الأكثر ، وأكون عند سيادتك ، وبسرعة وضع السماعة كى لايسمع تعقيبا ، حاول أن يعود إلى

الدوسية فلم يجد فى نفسه رغبة ، لمح كوب الشاى لم يعبأ بالياقوتة الحبلى بالؤلؤ . كما يلذ له أن يصف قطعة السكر فى الشاى . أحس بحبات العرق تنبثق حول سالفيه كما تطفر الدموع فجأة فى عيون مقهورة ، يقول له باسترخاء « أهلا ، تعال » فما الذى يحدث لو أنه لعن الزمن الذى جعل من الغلمان الأغرار روساء عليه ، هو صاحب الخبرة الطويلة فى هذه الادارة ؟! صعد سلمها الصعب من كاتب فى إدارة التدريب إلى أن تسلم مقعد رئيس القسم بعد ربع قرن من العناء والانتظار ، أما هذا الفتى المدل بشبابه ولقبه ، فيظن نفسه قد أحاط بفنون الإدارة علما ، ولكن مهلا لايفل الحديد إلا الحديد،قام على الفور ، وكأنما يتأهب لحمل السلاح ، واندفع إلى مكتب المدير لايعرف ماذا يريد أو يراد منه على وجه الدقة ، أخذ نفسا على الباب ودخل دون استئذان

- خير يا سيادة المدير .

كان لايزال واقفا ، ولم يدعه الآخر إلى الجلوس :

- اذا كان خيرا فمن حظك ، وان كان غير ذلك فلا مناص من التحقيق !!

- تحقيق ؟!

- انظر هذا المأزق الذى وقعت فيه وسحبتنا معك .

- مأزق .. ؟!

- هذا تعبير مخفف عن فشل ذريع واستهانه بالعمل

ـ ما هذا يا سيادة المدير .. ؟ أعوذ بالله ..

ـ تعوذ بالله كما تشاء ، ولكن ماذا تسمى هذا ؟

وبسط اعلانا من إدارة التدريب نشرته الصحف منذ بضعة أيام ، حين كان المدير فى جولة تفتيشية بالأقاليم .

ـ اعلان ، مثل كل الاعلانات التى اعتدنا عليها ..

ـ يبدو أنك لن تستطيع اكتشاف الخلل .. انظر .. تمعن ... عد على أصابعك الشروط.

أحس باللهب يتصاعد من نافوخه ، وبضيق الحزام على خاصرته ، وقرر أنه بحاجة إلى ضبط النفس حتى يرى كل جوانب الموقف ... ثم ..

وقال المدير :

ـ اعلان عن دورة تدريب فى المانيا ، فى الصحف دون أن يشترط فى المتقدم معرفة اللغة الألمانية ؟ ماذا ستفعل فى عشرات أو مئات الطلبات التى ستقدم اليك من أشخاص لايعرفون هذه اللغة ؟ كيف ستحكم عليهم ؟

حدق المدير في الوجه الأشيب باستهانة ساخرة ، حتى انبثق العرق كرؤوس الدبابيس من قمة الجمجمة العارية من الشعر .. ثم أكمل :

قل لى يا رئيس القسم : كيف يمكنك الآن أن تفاضل بين المتقدمين ؟

« يسخر من كفاءتى اللعين ... احكم عليهم بالشكل ، كما أحكم عليك بأن تلقى بنفسك فى مزبلة ».

عز عليه أن يخرج منديله ليمسح صلعته ، تخيل أن العرق يجرى فى قنوات مع خطوط الأوردة الزرقاء النافرة فى رأسه وجبينه ، تحرك إلى الجانب الآخر من المكتب ... تنبه مع الحركة إلى أنه لايزال واقفا ، فى حين أن مديرة الغلام جالس ولم يدعه للجلوس ، المغرور المستعلى بجهله إلى موقع الادارى المذعور .

قال :

- يا أفندم ، شرط اللغة مفهوم ضمنا ... دورة تدريب فى المانيا .. طبعا بالالمانى مسألة منطقية !!

قال من أنفه :

- وما الذى يجعلها كذلك ؟

قال رئيس القسم :

- بديهى.. وقد يكون عدم اشتراط اللغة فى مصلحتنا ..

رمق المدير بنظرة « قارحة » وكأنه ينبهه إلى ضرورة أن يفكر قبل أن يتكلم ، ويقلب المعانى حتى يدرك المرمى ، لكن الآخر اندفع بنغمة بين السخرية والتأنيب :

- ممكن طبعا على طريقتك فى التفكير ، أما طريقتى فلا أرى فى ذلك غير اهدار للامكانات .

- أوضح لسعادتك .

ـ وضح !!

ـ لنفرض أن عدد المتكلمين بالالمانية لايغطى العدد المطلوب للمنحة .

قال المدير :

ـ محتمل جدا الا تجد خمسين متدربا على المستوى الفنى المطلوب يتكلمون الالمانية ، أو حتى يفهمونها .

قال رئيس القسم وقد استخفه الطرب :

ـ آه .. هنا تلعب لعبتك .

ـ ألعب ؟! ما هذه اللغة العجيبة ؟ هل نحن هنا لنلعب ؟

ـ حلمك يابك ، لاتسئ الظن بى ، قصدت أن تعطى الأولوية للذين تؤهلهم لغتهم ، ثم تكمل العدد بمن ترى أنهم « يستحقون » السفره .

عادت النظرة «القارحة » المخدرة ، ولكن الآخر اندفع من جديد :

ـ وما الذى يجعلهم يستحقون السفر اذا كانوا عاجزين عن الاستفادة ؟

استمرت النظرة ، مع الضغط على مخارج الحروف :

ـ ستجد مائة سبب وسبب !!

ـ ولماذا أبحث عن أسباب ؟ عندى شروط المنحة وفيها كفاية ..

ـ طبعا ، طبعا والأمر أولا وأخيرا فى يد سيادتك ولكن يجب أن نحمى أنفسنا .

قال المدير دهشا :

ـ نحمي أنفسنا ؟ ضد من ؟! تحولت النظرة « القارحة »إلى اسبالة «كهينة » وهو يقول مغمغماً .

أنت سيد العارفين ، الصحف كل يوم تهاجم الجهات التي لاتستفيد من المنح أو القروض المقدمة لها ، وتتهمها بأنها تهمل توظيف الامكانات المتاحة لها ، ولاترغب في تطوير أساليب العمل .

قاطعة المدير :

ـ وهل أخلق لهم ناسا من تحت الأرض ؟

ومضى الآخر كأنه لم يسمعه :

ـ ... ماذا تتوقع أن يحدث لو عرفت احدى الصحف طويلة اللسان أن المانيا قدمت لنا خمسين منحة فأرسلنا عشرين ؟!

قال المدير مغمغما :

ـ وربما أقل اذا تمسكنا بالشروط الدقيقة .

ـ سيقولون : ضاعت فوائد على الدولة ، ويتحدثون عن أعداء التجديد .. والروتين !! حين بدأ عرق رئيس القسم يجف ، ويشعر بالنسمة الطرية المنطلقة من جهاز التكييف تداعب صلعته ، كان وجه المدير بدأ يتضح بفعل الحرارة الحبيسة في دمائه ، عز عليه أن يسلم بوجهة نظر مرؤوسه ، لكن خاطرا عبر برأسه كالشهاب ، غير أنه تراجع عنه وقال بثقة :

ـ مثلي لايعجز عن الدفاع عن الحق .

قال العجوز ، والنظرة « الكهينة » الموارية تفترس جبينه اللامع :

ـ لن تكون المشكلة أبدا فى الدفاع عن الحق ، بل فى قبول هذا الدفاع ، والعمل بمقتضاه .

ـ يعنى ؟

ـ أنا مقتنع بوجهه نظرك ، يمكن أن تقول ببساطة مطلقة : هذا هو العدد الذى ثبت أنه يصلح لاستيعاب التدريب دون قصور أو معوقات ، وسيكون معك كل من يرغب فى الابقاء على مودتك انصافا أو طمعا ، أما الذين يريدون غير ذلك فسيبحثون عن ثغرات تنفذ منها السهام المسمومة !! كان العجوز قد بدأ يتخلى عن مشاعر المرؤوس المتربص دفاعا ، ارتفعت قامته ونبرته ، استعان بكل جوارحه ليصنع منها مؤثرات إضافية للاقناع : يداه تصنعان أشكالا وهمية فى الهواء ، تدوران كالمروحة ، أو تنقض أحداهما كالساطور ، وتنزلق الأخرى كمطرحة الفران ، وعيناه الغائرتان كحبتى النرد فى ساحة الطاولة ، تنطلقان فى كل اتجاه : تبتعدان ، تستقران ، تتنافران ، تتراكبان ، تدوران ، تستقران .. وحاجبه الأيمن يتلوى كالدودة مؤكدا نوايا الشر من الآخرين ، فى حين يمط شفته السفلى ، فيصير له فم ضفدعة يؤكد خبرته الغائرة الابعاد .

قال المدير :

ـ استعلم لنا عن العدد الاجمالى ، وما تم بشأن الفرز .

قال رئيس القسم :

- كل شئ جاهز ، هنا .

أشار إلى صلعته ، هز المدير رأسه موافقا ، استأنف الآخر :

- الإجمالى خمسمائه وسبعون ، منها ثلاثة وعشرون يعرفون الألمانية بدرجات متفاوتة . سجل المدير الأرقام على ورقة أمامه بالقلم الأحمر ، أخذ يغمغم :

ثلاثة وعشرون ...

أقل من نصف المطلوب .

- ويمكن أن يكونوا أقل ، اذا دققنا فى مستوى اللغة .

- آ ... فعلا ...

تنهد ، استرخى قليلا ، خلع نظارته ، بربش للارقام ، عاد فلبسها :

- على خيرة الله .

- علام استقر الرأى .

- سنختار فى حدود الثلاثة والعشرين ، وسنرسل من يصلح فقط .

قال رئيس القسم بعشم ما كان يستطيع ابداءه منذ دقائق :

- المنحة لخمسين يا سعادة المدير ، لقد أوضحت لك ما يمكن أن يقال .

- تسللت مخاوف غامضة ، بحدة من يدافع عن حق :

ـ ماذا أصنع ؟ هل أخلق لهم خمسين يتكلمون الألمانية ؟ ما يقدر على القدرة إلا ربنا ، اترك مكتبى واذهب نيابة عنهم ؟

ـ ولم لا ؟

ـ حتى أنا لا أصلح لهذه المهمة ، فأنا لا أعرف من الالمانية غير صباح الخير مساء النور .

قال متحمسا فى مغامرة محسوبة :

ـ يابنى !!

توقف قليلا ، كأنما يعتذر عن خطأ مقصود ، رمق رئيسه بنظرة من فوق اطار النظارة ، الزهر الآن خارج الطاولة لم يكن المدير قد فطن للعبارة ، لكن النظرة ارتطمت برأسه فأيقظته تحركت فيه روح العناد ، قال مقاطعا على الفور :

ـ اذهب فأفعل ما سمعت منى الآن .

استمات الآخر فى موقعه :

ـ معذرة يا سعادة المدير ، لم أقصد ، أنا خائف عليك ، من موقع الحب لك أجادل ، وهدفى حماية الادارة من الشوشرة ... السهام المسمومة جاهزة .

ـ سهام مسمومة ؟! لماذا ؟!

ـ « ولى فيها مآرب أخرى »

ـ أية مآرب ؟ الذين يمكنهم الافادة أرسلناهم ، ولم نهدر وقت غيرهم ، ولا

أضعنا عليهم فائدة محتملة .

استقرت العينان فى خانة «اليك » زواية فى طرف العين ...

ـ بل أضعت كثيرا من الفوائد ..

ـ كيف ؟ لكى نعرف هذه الفوائد لابد أن نسلم بالأمر الواقع ... حتى أولئك الذين يعرفون الألمانية يعرفون قبلها أشياء أخرى سيسعون إلى تحقيقها ، هناك طبعا ، يعرفون تهريب العملة ، البيع والشراء ، أماكن اللهو ... قضاء حاجات ذوى السلطات ، متعة السياحة والفرجة ، هذه خمسة أشياء فى مقابلة شئ واحد هو التدريب الفنى.

ـ حتى ولو ... التدريب هو الأساس ...

ـ كلام على الورق لايقوله إلا أنت وأنا ..

ـ لا ، لا مبالغة وتشاؤم .. لنفترض أنهم سيشترون ويلعبون متوقع هذا متوقع ـ ولكنهم سيتدربون ويعودون أكثر خبرة فى عملهم .

ـ بالتأكيد يا سعادة المدير أكثر خبرة ،ولكن بنسبة واحد إلى خمسة ، فعلى أحسن الأحوال سيكون وقتهم موزعا هناك : ساعة تدريب تقابلها خمس ساعات « مآرب أخرى » .

ـ يا سلام !!

ـ هذا هو الواقع بكل مرارة .

ـ والنتيجة .

ـ أن الذى سيذهب دون معرفة اللغة الالمانية سيحقق نسبة عالية من الاهداف الحقيقية للسفر.

ـ على قولك لن يضيع منه غير واحد مقابل خمسة .

ـ تمام ... والله ينور عليك .

ـ ينور انني بهذه الطريقة أكون أطفأت جميع الأنوار ...

ـ خلاص ، متأسف ، اغفر لى تطفلى ...

صرخ المدير :

ـ لاحجة لأحد فى الزامى بارسال من لايستطيع التفاهم هناك .

ـ ومن قال أنهم سيهاجمون من هذه الزاوية ؟

ـ وهل هناك زوايا أخرى للموضوع ؟

ـ ما لا يحصى من الزوايا ، تخترع خصيصا ، اكتشاف واحد أو أكثر ممن سيتم استبعادهم ويقال أنهم حرموا عمدا لأسباب شخصية ، وليس بعيدا أن يكتشف أشخاص لم يتقدموا بطلبات أصلا ويؤكدون أنهم تقدموا ، وأسقطت طلباتهم لسبب أو لأخر ، ويمكن أن تناقش أشراط السفر ، ويقال أن المستوى الفنى ، وليس اللغوى ، هوالأساس السليم ، وكان على الإدارة أن تعين مترجمين ، ونفقة المترجم أقل بكثير من الفوائد التى ضاعت على الدولة بارسال عشرين أو ثلاثين بدلا من خمسين ، ويمكن أن نهاجم بأن الخطأ أصلا فى توقيت المنحة ، أو بلد المنحة ، أو نوع المنحة .. الخ ، الخ ... ويمكن ..

صرخ المدير :

- كفى ، كفى .. من الذى سيقول كل ذلك ؟

- أصحاب المآرب الأخرى .. الرؤساء الذين لايستلطفونك لامؤاخذة ، الزملاء الطامعون فى مكانك ، المتدربون الذين حلموا بالفرصة وفاتتهم ، أصحاب النفوذ الذين رغبوا فى ارسال معارفهم وأتباعهم لأداء خدمات خاصة بهم ، أو لتنفيع المعارف والاتباع ..

تمتم المدير من رأس ملفع بالضباب :

- تنفيع !! خدمات خاصة !!

- أخف الضررين ، وإلا حدثتنى كيف تظهرّ المجلات وأشرطة الفيديو المحرمة ؟

- ومن أين ينبع المارك فى السوق السوداء ؟

- لا . لا .. أنت تبالغ . الذى يسمع كلامك يتصور أنه يمكن أن تخرج مظاهرة تهتف ضدى وتحيط بالإدارة لأننى تمسكت بشرط لم يرد فى الإعلان...

- ليس هذا بمستبعد ، القرار فى يدك ، وتذكر أن المظاهرة ليست شر أنواع المعارضة ، انها على الأقل معارضة معلنة ، أما أصحاب الأغراض فانهم يتظاهرون ، ولكن بعكس ما يريدون ، أعجبه الجناس اللغوى ، وخشى إلا يكون المدير قد أدرك النكتة اللفظية فاكمل :

ـ أيهما تفضل .. المظاهرة أم التظاهر ؟!

اختلطت الأفكار ، لم يعد يعرف ماذا يريد ، وهل كان الشرط المهمل فى الاعلان عن غفلة أو تدبير وهل إهماله ميزة أو مصيبة ؟ عز عليه الصمت ، ولكن ما منه بد الآن .. أحس العجوز أن رئيسه الغلام ملقى على ظهره تحت الشبكة ، وهنا تقدم ليفتح له ثغرة كما فى قصة الأسد والفأر ...

ـ ومع هذا .

ـ هه .. سيكون هناك دائما : مع هذا !! هات .

ـ ليس مطلوبا منا الآن أكثر من التمهل فى الاختيار .. سيبدأ بعد أيام موجات الضغوط فى الظهور ، ستعرف وأنت فى مكتبك حجمها وأنواعها ، ويمكنك فى حينها أن تقرر بوضوح ، وستكون، وهذا رأيى الخاص ، سعيد الحظ لو وجدت مكانا للثلاثة والعشرين الذين توفر فيهم الشرط اياه .

ـ إلى هذا الحد ؟

ـ وأكثر .. أخشى أن تضحى بعدد منهم ارضاء وتجنبا وتملصا .. الخ .. الخ ..

تمهل المدير ، ورأى أن هذا أنسب حل لما هو فيه الآن ، فاذا بدا له أن يتراجع لايكون ذلك فى مواجهة مرؤوسه وبتأثيره المباشر .

قال بنغمة هى مزيج من التعالى المصطنع وإضفاء الأهمية على محدثه :

ـ فعلا ، نؤجل إعلان النتيجة ، حتى ندرس الأرقام والاحتمالات ...

قال الآخر وقد فهم كل شئ :

ـ بالضبط ..

بعد دقائق من نهاية الحوار كان رئيس القسم يعود إلى مكتبه ، لاتزال الدوسية مفتوحة كما تركها ، وكوب الشاى ، وقد اربدّ لونه ، وراحت تناوشه ذبابة سمجة طردها بالدوسيه ، تطلع إلى الساعة .. كان العقربان فى حالة عناق مطلق فوق الثانية عشرة ... بعد شهر كان المدير يطير على رأس وفد من ثلاثة وسبعين متدربا ، وقد صرح فى المطار بأنه تجاوز عدد المنحة حرصا على استيراد التقنية الحديثة وتنفيذ الخطة ، وأن ادارته ستتحمل نفقات العدد الزائد ، كما أنه قرر أن يصحب الوفد بنفسه ليتابع برنامجهم ، ويرسم مع المسئولين هناك خطة لاستمرار التدريب وتطويره.

امــــرأة ..

تتنهد فى منتصف الجملة !!

جرس التليفون أخرجه من تركيزه الحاد . ارتجفت السيجارة بين أصبعيه .. تكسرت الكلمات تحت سن القلم. تكرر الرنين حتى فرغت يده من اطفاء السيجارة . بضيق :

ـ نعم !

نفس كسول لامرأة تستيقظ من نوم هنئ :

ـ الأستاذ كمال ؟!

ـ نعم ..

ـ أريد .. أن ..

ـ تنهيدة هادئة كأنها تبحث عن كلمة ، مناسبة ، تعجلها :

ـ نعم

(استمرت فى بحثها كأنه لم يستحثها ..)

ـ قصدى .. أخذ رأيك فى خاطرة كتبتها ..

دخان السيجارة المطفأة لسعه فى حلقة :

ـ ما علاقتى ؟ هل أنا مفتش خواطر ؟!

- أنت ناقد ، فيما أعرف ، وهذا الطلب من ثقتى فيك .

أصبحت رائحة الدخان لاتطاق ، ويده قابضة على السماعة بتشنج :

- اسمعى يا مدام . لا وقت لدى أضيعه مع المحاولات اليائسة .. خير لك أن تتفرغى لتربية أطفالك . مع السلامة .

- يا أستاذ

وضع السماعة .

تدفق الرنين محتدا بعد لحظات لاتتسع لطلب الرقم من جديد .. تسلل صوتها على ايقاع تنهيده لا ظل فيها للانفعال :

- أولا .. ليس لدى أطفال .

لعبت العبارة الحادة على طرف لسانه ، يريد أن يصدمها ، لكنها تنهدت متريثة ، تخيل عينيها تتجولان على وجهه ، حبس أنفاسه متسمعا فاحتبس الغضب ، غير أنها أكملت ..

- ثم .. ألا تعتقد بأنك تبالغ قليلا فى تقدير نفسك ؟

التهبت عبارته الحادة . أصبحت جاهزة للانطلاق . ولكن .. إلى أين ؟ بسرعة خاطفة .. أغلقت الخط !!

لا معنى للانفعال ، لا يعرف رقمها ، تصور نفسه حيوانا ضعيفا .. حملا

أو جروا ، تسحبه بحبل طويل يمتد فى ظلام لانهائى . . تحكمه ولايملك الوصول اليها . لابد أنها ستعود . طبع مألوف من الطامعات فى أضواء الأدب الرنين مرة أخرى .. تريد أن تجعل من لعبة.. سترى الآن .. فورا !!

ستعرف أين موقعها الصحيح . بيد ليست مرتعشة ، وبدفقة من أنفاس حبيسة :

- نعم !

- تأخرت يا كمال ، نسيت أن لدينا أصدقاء على العشاء ؟! أنت !! تنهد بارتياح .أضاف :

- كانت ستنالك ضربة طائشة .. ربنا سلم .

ضحكت بدلال ، ارتسمت فى مخيلته ملامح وجهها الطفولى فى هذه اللحظة قالت :

- حاذر أن تصيب نفسك .. الضربة اذا طاشت تصيب صاحبها .

ما أحلى الغزل فيها بين الجد والمزاح :

- هذا أهون على نفسى من أن تصيبك !!

سبحت بمهارة مع تيار المداعبة :

- هل تعتقد أن « اللعوب » وصف للمرأة فقط ، أم أن فى الرجال صنفا

لعوبا أيضا ؟!

لكى ينهى المكالمة انتقل إلى الجد :

- صيغة « فعول » مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، نقول رجل لعوب ، امرأة لعوب .

قالت ضاحكة :

- خبرتى اللغوية تقول غير ذلك ، فأنا أعرف رجلا لعوبا ، ولم أر فى حياتى امرأة من نفس الصنف .

أسرع إلى الرد على مداعبتها الكاسحة :

- لابد أنك لم تقفى أمام المرآة منذ زمن ..

لكنها أضافت بسرعة تداخلت فيها العبارات :

- كمال .. لا تتأخر .

وأغلقت الخط .

عاد إلى السيجارة ، حاول اكمال ما كان يكتب ، تمنى لو سمعت عبارته الأخيرة ليغيظها ، طاشت الضربة مرة أخرى ، غير أنه جنى راحة بدت بعيدة منذ لحظات ، اذ أنسته مؤقتا وخز المكالمة السابقة . واجهته على باب المصعد، وهو يغادر المؤسسة سيدة لم يألف وجهها . يحدث هذا كثيرا فى دار

صحفية ، لكنه لايدرى لماذا ربط بين ملامح هذا الوجه ، والصوت ذى التنهيدة الذى أغاظه منذ ساعة !!

البيت ممتلئ بأصدقائه وصديقات سلوى ، انغمر قصدا راح يعدل وضع المقاعد ، ويقدم المشروبات ، ويرفع بقايا السجائر والمكسرات .. يريد لجسمه أن يتعب ، تذكر صيغة فعول ، ذاكرته لم تتعب .. صوت التنهيدة فى منتصف الجملة يقول له أقسى الكلمات بصوت دافئ . هل ينطبق وصف «لعوب» عليها ؟ هل هناك أدنى احتمال أن تكون هنا ؟ وعجب من حجم انشغاله بكلمة عابرة من امرأة هى مجرد صوت على الطرف الآخر .. حتى وان كانت أغاظته ، ولم تستلم لحكمه الفورى كانت يده تكاد تلمس مسند الكرسى أمام مكتبه . الرنين يتواصل .. تركه يرن . تطلع عبر الزجاج متوهما للحظة أن الشخص الذى يطلبه كان يراقبه من خلف الزجاج . رفع نظارته . خط على زجاج المكتب حرفا مقلوبا . السماعة فى يده اليسرى :

ـ نعم .

اكتسحت أذنه موجة دفء من تنهيدتها الحانية :

ـ الله ينعم عليك ..

تحير هنيهة ، لم يستطع أن يضع عبارتها فى مستوى محدد ..جاد أو ساخر ..

ـ قل صباح الخير ،

ـ أنت يا مدام .

ـ ما أدراك ؟ ما هذا الاصرار المزعج ، (تنهدت براحة وكأنها تعلن فوزها في مبارة شاقة) أنا لا أطيق نفسي ، فكيف أطيق شخصا أخر؟!

ـ أنا

ـ أنت خسرت كثيرا . خاطرتي منشورة عندكم اليوم .

ـ ولو .. صفحاتنا مفتوحة لكل الهواة .

ـ لا ، الفرق كبير ، لو استمعت اليها قبل النشر .

أحس بأن المكالمة طالت أكثر مما يستدعي الأمر . اندفع لانهائها . قاطعها:

ـ خلاص . لم تعودي بحاجة إلى رأيي ..

ـ أرجوكَ .

قالتها برجاء حقيقي ، كأنها واقفة أمامه ، تراوغ شفتيه ، وهي تتمنى أن يلاحقها ليقتطف قبلتها :

ـ أنا دائما في حاجة إلى رأيك .

كما يخترق البرق سحابة معتمة ، المشاعر وراء الكلمات اخترقت رأسه

قبل أن يطمئن إلى المعنى ، كانت سماعتها أغلقت الخط .

تحرك عقله بسرعة . ضغطت يده زر الجرس . هرول الفراش طلب نسخة من الصحيفة . بحث عن اسم انثوى فى صفحة القراء وجد خاطرة سقيمة الأسلوب باسم رمزى ، وأخرى عبارة عن زفرات يائسة لفتاة مخدوعة تستجدى الانقاذ ، باسم رمزى أيضا . لم يوافقه تفكيره أن تكون احداهما .. ليس فى هذا العويل ما يذكر بتنهيدتها الناعمة وسرعة خاطرها . قبل أن يطوى الصحيفة هازئا من نفسه من احتمال سخريتها به وكذب دعواها ، قلب صفحة المرأة ، وكتابات المحررين ، لم يجد ما يميز شخصية أنثوية معينة !! اضطر أن يضحك - مرة أخرى - من حجم اهتمامه لعبارة عابثة من امرأة لايعرفها . ألأنها تحدته ؟ أو لأنها كررت الاتصال ؟ أو لأن فى صوتها شيئا غير مألوف ؟ لايدرى . لكنه انزعج كثيرا حين رن التليفون أكثر من مرة ، فاستدعى صورتها المجهولة، المستمدة من تموجات صوتها ، كل مرة .. ثم لاتكون هى على الطرف الآخر !!

أعد كلاما سيقوله دون تريث اذا ما طلبته . انها لابد ستفعل ، غير فى الكلام ، أنبها بشدة ، عاتبها ، داعبها ، سخر منها ، عايشها خياله يومين.. ولم تتصل . جرفه تيار العمل من جديد ، ظن أنه نسى ، جاء الكلام الموقع على تنهيدات متموجة تضعه فى حمام بخار فى يوم مقرور :

ـ عندى لك نصيحة يا أستاذ كمال .

ـ أنت !! اسمعى ، أنا الذى يريد أن يقدم لك نصيحة لوجه الله .. خاطرتك سيئة الأسلوب ، الأحسن فعلا أن تعودى لأطفالك .

ـ قلت رأيك ، فأسمع رأيى . (تنهدت من خلال أنفاس حبيسة) هل يزعجك أن تسمع رأيى فيك ؟ لا تتعجل بالجواب ، أتساءل : لماذا تضمر لى تحديا لا مبرر له ؟ ومع ذلك ..

استردت حنانها الأصيل ، اختلفت النغمة ، كالأم حين تنبه ولدها الغر إلى غلتطه :

ـ أنصحك أن تعرض نفسك لعينى المدام قبل خروجك من البيت ، ألوانك كانت غير متجانسة أمس ، وعلى فكرة .. عينا زوجتك عسليتان جميلتان جدا ، كيف تنسى أن تنظر فيهما قبل خروجك .. لترى صورتك ؟!

أقفلت الخط .

« أمس ، فى ندوة .. ماذا كنت ألبس ؟! كيف عرفت لون عينى سلوى ؟ ولكنهما ليستا عسليتين . يا لها من كاذبة فى كل ما تدعيه ، تريد أن تخلق حولها جوا من الاهتمام ، لن أمكنها من ذلك ، سأنزع أصداء تنهيدتها من أغوار ذاكرتى .. لن أسمح لها بكلمة واحدة ..

سأبدأ من النهاية .. أغلق الخط ».

فتحت الخط بطريقة لايسهل اغلاقها ، أودعت رسالة باسمه فى الاستقبال، رسالة وردية قليلة الكلمات ، بين سيل من أزهار ، جاءت فى نقوش بارزة ، لايدرى لم استدعى النقش البارز المتقطع تنهيدتها المتموجة مع تقاسيم الجملة، ولم أحس باشتهاء عجيب لرؤية فمها وهو يرسل التنهيدة المتميزة . تخيل وضعا للشفتين منفرجتين ، بينهما مساحة دافئة تجعل الالتحام محكما ، والأنفاس متمازجة بين صدرين . تأمل الرسالة ، أدهشه يقينه أنها منها تمنى أن يتهور ويمزقها دون قراءة ، لكن : ما أدراه أنها .. فض الغلاف من جديد ، حسمت الأمر منذ أول كلمة :

« دعنى استعير طريقتك : نعم ، اننى هى ؟! »

جرس التليفون يرن ، لابد أنها .. ليتها تأخرت دقيقة ليكمل القراءة ويهيئ لها قذيفة مناسبة ، فلماذا تعجلت العقوبة ؟

رفع السماعة ، عينه تنهب الأسطر القليلة على الورقة الوردية ذات التنهدات ، يريد أن يعثر على عبارة تصلح للضرب .

ـ نعم ..

كانت عينه تكتسح الرسالة ، وقد كسر الأخرى يتفادى زحف دخان السيجارة المائلة نحوها . كان يقرأ : « لاغرابة أن أكتب اليك ، رغم كل شئ أشعر بأن بيننا صداقة ، قائمة فعلا ، أوستكون ».

جاء الصوت من الطرف الآخر :

- كمال .. وحياتك وأنت راجع هات من الجمعية زيت زيتون ، واذا وجدت جمبرى مجمد .

كانت عينه الهاربة من الدخان اللاسع تقرأ ، والأخرى تصمم على أن تظل مغمضة :

« اعترف بأننى أثق بقلمك ، والثقة نوع من الأمان ، والأمان هو الحب ، انه نقيض الخوف وليس الكراهية .. اننى لا أخافك ، ولا أكرهك ، فهل يعنى ذلك أننى .. أثق بك ؟! ».

قرأ أسطرها على ايقاع صوتها النادر فى خدره الناعس . خشعت أذنه تحت السماعة لاستقبال دفئها ، وكأنها التى تتحدث من الجانب الآخر أيضا :

- واذا كانت المصبغة مفتوحة ، لاتنس معطفى ، الدنيا برد والأمر لن يكلفك شيئا .. نفس الموقف ، لا تكسل كالعادة .

- لماذا هربت من مواجهة الجملة الأخيرة ؟

- أى جملة ؟!

- قصدى .. أ .. أعرف .. أعرف ، أعيدى طلباتك لأكتبها .

مرات ، قرأ الرسالة ، بصوتها فى نفس واحد ، وجملة بعد جملة ، تخيل

نفسه يسخر من كل عبارة ، على طريقتها ، ثم ... يستجيب لكل عبارة .. على طريقة لم يجربها ..

لاحظ أن خطها فيه سذاجة غريبة ، لم يستبعد أن يكون مكتوبا باليد اليسرى اخفاء لحقيقة الكاتبة ، كما لم يستبعد أن يكون خطا حقيقيا لصاحبته ، وأن ثقافتها أجنبية ، هذا الصنف بقدر تجويده لخطه الأجنبى يهمل ـ ربما عن عمد ـ خطه العربى ، لكنه استبعد تماما أن يكون مستواها مثل خطها . طريقة التعبير تقول غير ذلك . وهى ليست من المتسلقات عن غير جداره .. طريقة التعبير تقول غير ذلك . ولكن .. ماذا تريد أن تقول بالضبط؟ لماذا دفعت به إلى هذا الوضع ؟

اختفت . انقطع سيل التنهيدات من حمام البخار فى يوم مقرور .. هل سافرت ؟ كل مسافر سيعود !! هل أدركها الملل ؟ من أى شئ ؟! كانت تبحث عن مثير تغير به ايقاع حياتها فوجدت آخر ؟

اندفعت .. ثم توقفت لسبب ما ؟ ولماذا لاتكون صادقة فى السعى نحو صداقة حقيقية تجتاز مرحلة التردد الطبيعية التى تمر بها كل الصداقات المتينة الباقية ؟

استراح لهذا الاحتمال ، لكنه يبقى مجرد احتمال إلى أن اعتاد النسيان ، وهنا جاء الرنين . . فى البيت .. لأول مرة ، ونشرة الأخبار المحلية تحتل

شاشة التليفزيون .

قالت بود حقيقى وكأنها كانت معه منذ لحظات :

- بعد دقيقة .. ستراني .. قريبة منك جدا .. فقط .. على الشاشة .

لم يكن أفاق من المفاجأة ، حين أنهت عبارتها ، وأغلقت الخط . قبل أن يستوعب ما سمع كانت شخصية كبيرة تحتل الشاشة فى افتتاح معرض الفن. وكان هو حاضرا الافتتاح قريبا من تلك الشخصية . لم يفطن لوجود عدد من الفتيات حوله ، كانت سلوى إلى جواره تزاحمه بالكتف لتظهر فى الصورة ، فى الثوانى المتاحة لعرض اللقطة التليفزيونية أحصى خمس فتيات ، يعرف وجها واحدا من بينهن ، فمن تكون بين الآخريات ؟!

عادت التساؤلات القديمة أكثر حدة . قضى ليلة انتابه فيها القلق ، أكثر من مرة يهرع إلى القراءة .. فلا يقرأ . زوجته ممددة إلى جانبه ، وفكره فى ذات الصوت الدافئ ، وكانت صورتها المجهولة أول ما عانق وعيه حين صحا .. لكنها .. هذه المرة . لم تتركه لمزيد من الحيرة .. اتصلت فى صباح اليوم التالى ، عقب وصوله إلى المكتب ، انها تعرف مواعيده بدقة عجيبة .. هذه المرة تنهدت صوتا هو آهه لا تخلو من حزن ، تتوارى فى صوت التأهب للحديث :

- فيه حاجة .

- قولى صباح الخير أولا ، هكذا تعلمنا منك !!

- صباح الخير .. دائما .

- نعم !

- رجعنا لنعم ؟!

- لك .. نعم دائما ، نعم خاصة .

جازفت بحساب ، وحزنها يتراجع ، ليتقدم الدفء الخالص :

- اعتقد أنه آن لنا أن نلتقى .

اندفع فى الاتجاه المعاكس لكل محاذيره :

- أهلا بك .. فى مكتبى .

- غدا .. العاشرة والنصف .

- موعد يناسبنى تماما .

لم تغلق الخط ، انتظر أن تضيف شيئا ، فكر فى أشياء ، لكنه تردد ، رأى أن يتوقف حتى يراها ، سيضاف وضوح جديد ... أغلق الخط !!

فى الصباح ، كان كل شئ فى داخله يقول : هذا يوم خاص ، وكان حريصا على أن يقول ظاهرة : ملابسه وملامحه وحديثه .. إنه لا جديد مطلقا ، فهو يقابل أى أحد كجزء من نشاطه العملى ، ويتكلم عن الفن والثقافة مع كل

أحد . مع هذا لمس ذقنه أكثر من مرة يطمئن عى نعومتها ، وعدل وضع رباط عنقه ، وتفقد مناديله ، وأظافره ، ووضع علبة السجائر فوق مكتبه ، وجاء الموعد .. لم تحضر. بعد عشر دقائق ، اثنى عشرة دقيقة .. ساعة.. لم تحضر ، لم تتصل !! كانت مكالمتها هذه المرة إلى سلوى . قالت فى عبارات مختصرة ، حجبت عنها أنفاسها الدافئة :

ـ اطمئنى يا عزيزتى .. زوجك مخلص تماما ، رفض قطعيا حتى مجرد أن أزوره فى مكتبه .. نجح فى الامتحان .

ضحكت سلوى بجذل ، فى حين أطلقت تنهيدتها هذه المرة واضحة الأسى..

حين عاد إلى بيته لم يستطع أن يفسر الحفاوة الزائدة التى تبديها سلوى نحوه ، وكأنه عائد من سفر ، وقد جلس شاردا يوارى وجهه فى صحيفة ، وأذنه تبحث عن الرنين !!

الانتظـــار

الزحام على أشده فى وادى الجفاف المحاصر بالصحراء والمستنقع ، تلاحمت الأجساد المغبرة كأعواد الحطب فى حزمة . طال موقف الضراعة ، ولم ينفتح الباب . الهواء الساخن المشبع بالرطوبة وروائح المستنقع القريب زاده الزحام لزوجة وثقلا حتى أصبح تنفسه مستحيلا ، لم يعد أحد يفكر فى أن يرفع قدما يخفف عنها لهيب الأرض ، أو يروح بيد يدفع عن رئيته سخونه الهواء . شخصت الجماعة إلى باب الكهف الصخرى المعلق فى منحدر الجبل ، بين الأرض والسماء ، وقد ارتسمت فى عيونها معانى الذل والضراعة ، ونال منها الانتظار حتى مات الإحساس بالزمن وتلاشى القلق وسيطر على الوادى سكون الموت . حين بدأ باب الكهف ينفرج هبت نسمة ندية انتشر عطرها فى الوادى فتحركت إرادة الحياة ، وبدأت الجماعة تبحث عن الكلام . فى مقدمة الصفوف كان عملاق له صوت ومهابة لايزال يستطيع الصياح ، وترفعه هامته بحيث يراه الجميع ، صنع من كفيه بوقا ، ونادى بضراعة فى عمقها استعداد خفى للتمرد :

- أيها السر العظيم .. تأخر المطر ، مات الزرع ، جف الضرع ، ذريتنا الفناء .

قال الصوت القادم من أغوار الكهف :

- كيف وأنتم تقيمون على أرض سخية ؟!

قال العملاق :

- ما قيمة الأرض السخية دون مطر ؟!

قال الصوت :

- لاقيمة لشئ دون عمل .

قال العملاق :

- كيف نعمل والناس على هذا القدر من الجوع ؟

قال الصوت :

- الجوع مصير الهاربين .

قال العملاق ضارعا :

- زدنى بيانا

قال الصوت ، وقد بدأ يضيق ذرعا :

- اذهبوا جميعا إلى النهر .

- إنه مستنقع !!

قال الصوت موبخا :

- يا للعقل الراكد ، كيف لم تفطن إلى معنى النهر فى المستنقع !!

أحس العملاق أن الصوت القادم من الكهف يوشك أن يقطع الحوار ، ولم يكن شفى غليله باليقين عما ينبغى له أن يعمل ، فقال بصوت متقطع ذليل ، وضع فى نبراته كل أمل الجماعة فى أن تعرف طريقا لنجاتها .

- أتوسل اليك .. كيف يتحول المستنقع إلى نهر ؟

بدأ باب الكهف ينغلق ببطء ، والكلمات الأخيرة تتسرب منه وكأنها الصدى ، دون أن تشى بأقل قدر من العاطفة :

ـ لقد قلت كل شئ .

تسمرت العيون على الباب المغلق برهة ، ما لبثت أن سلمت بالأمر الواقع، فالكهف العجيب لايفتح الا مرة واحدة كل عام صبيحة ظهور النجم الأبرق . لم يحدث استثناء واحد لهذه القاعدة ، ومع أن الصوت الصادر عنه لم يكن يرضى حاجة الجماعة كلها إلى المعرفة ، فإن إشاراته المحدودة استطاعت ـ إلى الآن ـ أن تحفظ كيانها المحاصر بمخاطر المستنقع والصحراء .

استدار الحشد توجهه غريزته نحو المستنقع ، وان يكن لايعرف على وجه اليقين ماذا ينبغى عليه أن يصنع هناك . كان العملاق فى المقدمة أمام الكهف، فصار فى آخر الموكب حين استدار الناس قاصدين المستنقع . وهنا صار «الربع» على رأس طريقهم ، وقت كان هناك بعيدا يتسمع على الصوت ، بين قلة من ناس عادية ، يشاركونه ما يأتى من شغب .

و « الربع » كائن مخيف ، هو نصف طولى من انسان ، ولكن امعانا فى العجب من شكله أطلق عليه أهل الوادى اسم « الربع » ولايعرف أحد هل هو ذكر أو أنثى ، غير أنه يزعم أن له ولدا هو المثل فى الجمال والقوة والذكاء ، ولهذا سماه « الكامل » وأرسله إلى بلاد بعيدة ، خارج وادى الجفاف ، ليتعلم، ويعود محملا بالتجارب التى تفيد الوادى ، وترفع عن أهله مخاوف الفناء . كان أهل الوادى يفزعون من الربع ، ويعجبون كيف لمثله أن يتكلم أو يتحرك ، ولكن الفزع منه ما لبث أن تحول مع الزمن إلى رهبة وخشوع ، وإيمان عميق بأن القوة تنبع من العجز ، وأن هذا الكيان الهش ، الذى يجد صعوبة فى أن يدفع عن نفسه شر ذبابة ، ينطوى على قوة سحرية آسرة !!

تكور الربع على نفسه مثل دودة تتأهب للقفز من الطين ، ورفع وجهه

المدبوغ أمام الجماعة الزاحفة ، وقال :

- كعادتكم يا أهل الوادى ، تنقادون للمجهول ولا تثقون فى ابن واديكم . المستنقع ! ماذا تجدون هناك غير الحشرات القاتلة ، والروائح الكريهة ؟ سيروا خلف العملاق ليجعل من أجسادكم حصيرا ناعما يجتاز به النهر الموعود ، أو انتظروا الكامل ، لقد اغترب من أجلكم ، كل هذا الزمان ، وقريبا يعود محملا بالخير والأمان ..

انتشرت كلمات الربع بين الحشد المتحرك ، كأنها الغبار فى العاصفة ، فثار الجدل فى دوائر مغلقة ، ارتفع الزعيق فى مواقع ، تشابكت الأيدى فى مواقع أخرى ، ارتفعت هراوات قليلة ، وسالت قطرات دم هنا وهناك . نظرت الجماعة إلى العملاق أن يفعل شيئا أويتكلم ، لكنه لزم الصمت عما جرى ، واستمر فى تقدمه فى اتجاه المستنقع ، وقال لمن حوله :

- أنا سامع لصوت الكهف مطيع ، ولكل انسان أن يختار ما يناسبه .

قال بعض المقربين منه :

- أنت قدوة ، ولابد أن تواجه الربع بحزم ، والا أفسد عليك الوادى ، من فيه .

قال العملاق بثقة :

- أنا قدوة فى العمل ، وليس فى التعدى على الآخرين .

حين شاعت عنه هذه الكلمات ، استمر الربع ينادى بضرورة الانتظار ، لتجنب الضحايا فى اقتحام المستنقع ، ويؤكد أن الكامل قادم بالخير والأمان للجميع ، فوجدت كلماته هوى فى بعض النفوس ، فاتسعت الحلقة من حوله ،

وبدأ التنافس فى تقديم الخدمة له ، والترفية عنه ، زلفى للكامل حين يعود .
أما الجماعة الزاحفة ، التى اندفعت بقوة الصوت القادم من الكهف ، نحو المستنقع ، لاتعرف كيف تقرأ فيه معنى النهر ، وتصر على التنفيذ ، فانها حققت المعجزة دون أن تقصد لذلك ، اذ صنعت خطواتها الزاحفة أخدودا فى الأرض سال فيه الماء وجرى متدفقا نحو الوادى ، ما لبث الأخدود أن اتسع وعمق ، وكشف عن ينابيع أخرى مطمورة هنا وهناك ، تجمعت كالشرايين ، وتحول المستنقع إلى نبع ونهر ، لم يشرب الناس أصفى وأعذب من مائه .. وارتوى الزرع والضرع ، فتحول وادى الجفاف إلى جنة مترامية ، فاضت بأنواع الثمار ، وهنا أخلد القوم إلى الراحة أمنين .

قبل أن تنكسف وجوه الذين أحاطوا به وانتظروا معه ، قال الربع للذين حولوا المستنقع إلى نهر :

ـ ليس لكم أن تفرحوا ، فهذه مصادفة لا تصح كل مرة ، واذا ذكرتم مسيل الماء فاذكروا الثمن الذى دفعتموه : كم من ضحايا داستها أقدامكم وغاصت فى الطين ؟ وما عدد الذين لدغتهم الأفاعى أو أصابتهم أشواك المستنقع بالشلل ؟ لو انتظرتم الكامل لجاءكم الخير خالصا دون ضحايا ودماء.. لقد خدعتم بالعملاق الذى لم تلسعه بعوضة واحدة .

وقال للذين تحلقوا من حوله .

ـ أنتم أهل الفرح .. انظروا .. هذه خيرات الكامل هلت بشائرها عليكم ، دون مخاطرة بالنفس أو الراحة . لقد مات من مات ، وأصيب وتلطخ الباقون، وجاء الماء ونحن شركاء فيه ، وأثمرت الأشجار للجميع ، لأنه وادينا كما أنه واديهم .

مضت الشهور وأوشك العام أن يستدير ، فذهبت الفرحة بالماء ، ولم يعد الناس يذكرون غير عناء العمل وقلة المحصول ، وانتشرت المرارة فى حلوق الجماعة اذ ترى القاعدين يتجاسرون على مزاحمتهم فى جنى الثمار ، دون أن يشاركوا فى مسيرة المستنقع وما خلفت من ضحايا وجراح . وتطور الحال من الشكوى المكتومة إلى المجاهرة بالقاء اللوم على العملاق ، والدعوة إلى العصيان والامتناع عن العمل ، مترحمين على أيام الفراغ وقد نسوا أنها كانت أيام الجوع . وبلغ الأمر أسماع العملاق ، فقرر للوهلة الأولى أن ينزل عقوبته بالذين ارتفعت أصواتهم بالتذمر أو حرضوا عليه ، ولكن المقربين اليه نصحوه بالانتظار والتريث لأن الربع جاهز للافادة من أى شرخ يحدث فى جماعته . ورأى هؤلاء المقربون أن الحوار هو الطريق إلى الوفاق ، وامتصاص الغضب، ولم يكن هذا رأيهم فى المرة السابقة ، لكنهم أرسلوا إلى المتذمرين أن أرسلوا الينا من يمثلكم لنتحاور حول ما تشكون منه .

جاء المندوب ، طال الحوار ، اتسعت شقة الخلاف . اتصل به الربع سرا ، وقال له كلمة تنبع من طبيعته العجيبة :

- حذارأن تعود إلى صفوف العملاق ، انك وقد خالفته علانية صرت هدفا مكشوفا ينبغى الخلاص منه اليوم أو غدا . ثم أن هذا الخلاف جعلك رأسا لجماعة ، فكيف ترضى أن تعود تابعا ؟!

هكذا شهدت الأشهر التالية ظهور جماعة جديدة ، وحين تمت القطعية اتصل الربع بالمتذمرين ، وقال لهم :

- أنتم لم تعودوا معهم ، وفى وادينا مفهوم راسخ أن من ليس معنا فهو علينا ، فالحاصل أنكم صرتم أعداء للعملاق وجماعته ، وان لم تريدوا ذلك ،

والرأى أن تنضموا الينا لتقووا بنا ولايفكر العملاق فى مهاجمتكم، فنحن أهل الانتظار ، والعملاق يعرف صدق وعدنا ، ولهذا لايجسر على محاربتنا.

لكن رئيس المتذمرين ذكر نصيحة الربع له ،فلم يتنازل عن استقلال جماعته ، واكتفى بالمهادنة التى لاتقطع عنه الخير والأمان ، اذا ما تحقق وعد العودة ، وجاء الكامل !!

صبيحة ظهور النجم الأبرق ، حان وقت الضراعة ، فوقفت الجماعة فى الوادى أمام باب الكهف ، وكانت هناك جماعتان تراقبان من بعيد ، وتشاغبان وكأن الحركة غير مقصودة بين الحين والحين فلما فتح الباب صمت الجميع ، وهتف العملاق :

ـ أيها السر العظيم ..

جاءه الصوت من أغوار الكهف مقاطعا :

ـ لماذا تعودون إلى بهذا الذل الأبدى ، وقد أعطيتكم سر الفرح ؟

قال العملاق :

ـ نعم . نعم .. لقد عملنا ، وهذا عرقنا قد امتزج بتراب الوادى مثل ماء النهر ، ولكن عطاء الأرض يشح شهرا بعد شهر .. أطفالنا لاتكاد تجد القوت وأكثرنا يبيت على الطوى .

قال الصوت :

ـ لأنكم لم تذهبوا جميعا .

وقبل أن يستوضح العملاق معنى الاشارة كان الباب قد أغلق ، وفى أعقابه ساد هرج فظيع ، اختلطت فيه الآراء ، ولم يعد أحد يسمع لأحد ،

وحاول العملاق أن ينظم عملية التعبير ، فظهر فريق رأى أن تخلف الربع عن ضراعة العام الماضى بمن معه من القاعدين ، ثم انشقاق المتذمرين هو السبب فى عقم الأرض واختفاء الثمار . ورأى فريق آخر حين أمعن فى تأمل كلمات السر العظيم أن « اذهبوا جميعا » لايدخل فيها جماعة الربع وأمثاله ، لأنهم كانوا خارج الجماعة أصلا ، وانما يقصد بها الانسان والحيوان !! جنح قوم إلى الأخذ بهذا التأويل المسالم وعارضه آخرون ، ولكن المعارضين آثروا تجنب المزيد من الانقسام باعطائه فرصة التطبيق ، وصمت العملاق عن ابداء رأيه للسبب ذاته ، اذ كان يضمر أن « اذهبوا جميعا » تعنى الذهاب بنيه صافية وقلب مخلص لاتمازجه رغبة أخرى غير العمل .ونزل أمام الناس إلى الوادى ومعهم حيوانهم وطيرهم ، فلم تمض غير أسابيع حتى تجددت قوة الأرض بما خالطها من بقايا المخلوقات التى تزاحمت على أديمها ، وعادت دانية القطوف ، زاهية الألوان ، يعجب من يراها كيف يتحول الروث الكريه حين يختلط بالطين اللزج، إلى لون بديع ، وطعم شهى ورائحة مسكرة .

وأعلن أصحاب التأويل أن رأيهم هو الصواب الوحيد ، وما عداه باطل ، فأصاب الآخرين قلق وحزن ، ولم يعد يقنعهم أنهم يأكلون رغدا دون شقاء العمل ، اذ لابد من استرداد الكرامة الجريحة .

وقال الربع لجماعته :

ـ نحن نملك فى الوادى أكثر مما يملكون ، ندعهم للكد ونقاسم فى الثمار .

وقال رئيس المتذمرين:

ـ يا له من مصير محزن ، رفضنا أن نشرب عرق الانسان . فهاهم يشربون بول الحيوان ، وما هو شر منه . انظروا إلى رائحة الوادى كم صارت كريهة ،

لاتخدعنكم الثمار في طرف الغصن عن الروث حول الجذور !!

واذ يتسلل هؤلاء وأولئك إلى حدائق الوادى لاقتناص ثمارها الطيبة دون جهد ، محتمين بالظلام ، راحوا يسربون الأقاويل التى تشيع القلق بين الذين سايروا الوضع الجديد ، فأثاروا أمام بعضهم قضية الطهارة ، وتساءلوا ببراءة زائفة : هل نعتبر الثمار التى غديت بالنجاسة طاهرة ؟ واصطنعوا أمام بعض آخر ما زعموه رؤية علمية لقضية « دورة الحياة المغلقة » التى تهدد الوجود من أساسه ، اذ يتغذى الانسان والحيوان على النبات ، فيتحول النبات إلى فضلات ، يتغذى بها النبات من جديد لتعود فى دورة أخرى إلى الانسان والحيوان ، وهكذا . ورأى واضع النظرية أن محصله الدورة المغلقة هى الانحطاط العام يلاحق الانسان والحيوان والنبات !!

انتشرت المخاوف فى صدور الجماعة ، وكأنها الهوام فوق المستنقع القديم، ووجدت أذانا صاغية لدى قطاع كبير من أولئك المتحرجون عن طعام الوادى تطهيرا لبطونهم ، وفكر آخرون فى الهجرة ليكسروا طوق الدورة المغلقة التى تهدد ذراريهم بالفناء . انقلب الحال فتكاثر الثمر وتساقط على الأرض يواجه العفن ، دون أن يجد من يلتقطه ، غير المتسللين إليه ليلا ، ويذمونه نهارا ..

ركب العملاق هم عظيم ، لم يجد فى نفسه دافعا إلى لقاء جماعته . اذ راقب بحزن أنهم يجارونه ظاهريا فى آرائه ، فاذا انصرفوا عن مجلسه ظهرت آثار الاقاويل فى سلوكهم ، يمتنع أكثرهم عن تناول الثمار ، فيضعف عن

العمل ، ويرسل بعضهم أولاده إلى خارج الوادى بدعوى الرياضة أو العلاج .
تعلقت آمال العملاق على موقف الضراعة ، وراح يحلم بالهام جديد يعيد إلى الجماعة وحدتها . وحين استدار العام ، ووقف بين جماعته معلق النظرات على الباب ، كانت الجماعات والشراذم الحائرة بين المنتظرين والمتذمرين والمتطهرين أكثر من أن تحصى ، حتى لم يعد الناس يهتمون بالأسماء التى تطلق عليها . وقبل أن يبدأ العملاق ضراعته المعهودة ، قال بحسرة :

- اننى لم أخالف عهدك ، منذ أرشدتنى وأنا أعمل .

قال الصوت :

- لم تعمل كما أمرتك .

قال العملاق :

- بل عملت ، ذهبت إلى المستنقع فصار نهرا ، ونزلنا إلى الوادى جميعا فازداد الخير . المخاوف الجديدة لا أجد لها حلا عندى .

قال الصوت :

- لأنك لم تعمل كما أمرتك . ألم أوبخك من قبل ؟!

وقبل أن يدرك العملاق ما تعنيه هذه الاشارة ،كان الباب قد أغلق !!

وقف أمام جماعته التى لم تعد حاشدة ، بوجه بائس حزين حدقت فيه العيون بكآبه ، بادلهم نظرات تائهه ، وهو موقن أنه اذا لم يعثر على حل قريب يعيد إلى الوادى وحدته وتماسكه ، فانه لامناص ، يسلم البقية منهم إلى

مصير مجهول بين الجماعات الكثيرة التى انتحت كل منها وجهة خاصة بها .
وتأمل بعجب وحزن كيف أن وادى الجفاف اتسع لهم جميعا ، وحافظ على وحدتهم ، واستطاعوا فى ظل الحرمان أن يقاوموا الفناء ، وكيف أنهم الآن ينعمون بالخير الوفير سرا وعلانيه ومع هذا لاتجد بينهم نفسا راضية ؟ ومع اعتقاده القوى بأن الربع مخلوق زائف ، وأن حديثه عن الكامل وعودته مجرد أكذوبة جميلة ، فانه بدأ يهرب إلي عالم الأوهام ، حتى أصبح يخشى أن تكون مزاعم الربع حقيقية.

وحين أفاق العملاق إلى نفسه عجب كيف تلعب به الظنون ، ولامها على تخطبها ، الذى سيجعله أكثر استحقاقا للوم من هؤلاء القوم الذين لايزالون يثقون فى أنه قادر على اكتشاف الصواب ومخاطبة الصوت العظيم ، بل أنه مستحق لتوبيخ أخر لابد أنه سيلاقيه حين يظهر النجم الأبرق فى العام القادم.

وحركت فيه كلمة « التوبيخ » شجنا ، فقد سمعها منذ ساعة ، وها هى تعبر بخاطره ، ومن قبل وبخه الصوت العظيم قائلا :

« يا للعقل الراكد » فهل هى المفتاح الذى يبحث عنه ؟ إن العقل لم يعمل حتى الآن ، وطاعة الصوت ليست معاندة لاعمال العقل ، والتأنيب على العقل الراكد اقترن بالمستنقع الراكد ، وكما أجرينا النهر ، علينا أن نجرى العقل !!

وعاد يلقى نظرة حائرة على الوادى والجماعات المنتشرة فى أنحائه ، ويتساءل: أى عقل باستطاعته أن يجمع هؤلاء من جديد ؟ أتراه تأخر فى

ادراك ما يجب عمله ؟ وراودته فكرة جزئية : أن يطرق باب الكهف ويلتمس الدخول ، فهناك تتجلى حقائق الأشياء ، ولكن : كيف الوصول ؟ والكهف فى مكان حصين بين الأرض والسماء ، وفكر مرة أخرى أن يستدير من حول الجبل ويبحث عن مدخل آخر ..

وإذ يثق فى جسارته على اقتحام المجهول والاستهانة بالخطر ، فانه لايثق فى امتداد الزمن بحيث يتسع لدورة كاملة بحثا عن مدخل آخر للكهف.

وقرر أن يعمل عقله فى اتجاه أخر. يبحث عن مادة تعطى النبات والحيوان قوة ، لاتغلق دورة الحياة ، ولا تثير مخاوف المتطهرين . أقام فريق عمل ، وبدأ التجريب ،وراح يصهر أشياء ويطحن أخرى ، ويستخلص سوائل ويمزج أخرى حتى حصل على المركب الكيميائى المطلوب ، وأكدت التجارب الأولى نجاحه الواضح ، فتوقف استخدام الفضلات ، ولم تفقد الثمار نضرتها أو طعمها .

استبشرت جماعات شتى بالاختراع الجديد ، ولكن الفرح سرعان ما تبدد فالخلافات القديمة ، حتى بعد زوال أسبابها ، صارت كالعقائد الراسخة ، وأصبحت تاريخا له رواة وشراح . ثم حدثت فى الوادى أمور لم تكن مألوفة فيه من قبل ، فتورم وجه غلام ، وقيل ان كلبا أصيب بسعار مفاجئ ، وأن بقرة نطحت رجلا فأردته ، وسرت شائعة بأن امرأة هجرت بيت الزوجية ولم يعثر لها على أثر . وقد حملت جميعها على الاختراع الجديد .

قرر العملاق أن يتصدى للحملة المغرضة ، فألف لجنة لتقصى الحقائق ،

وعلى الفور توقف الناس عن التقاط الثمار حتى تعلن اللجنة نتائج بحثها ، غير أن اللجنة أخذت تنعقد وتنفض مرات ومرات ، وتسريب تصاريح متناقضة قيل أنها من مصادر سرية موثوق منها ، ورأى العملاق أن الانتظار يؤدى إلى البلبلة فاجتمع باللجنة يحثها على إعلان رأيها ، فقيل له : هذا تدخل فى حرية البحث . وتشددت اللجنة لتؤكد استقلالها ، فأعلنت أن المركب الكيميائى مسئول نسبيا عن الظواهر الجديدة ، ونصحت بعدم استخدامه إلى حين .

عاد العملاق يفكر ويعمل عقله ، ولكنه لم يجد حوله أحدا يساعده على تحويل أفكاره إلى عمل . وهنا ارتفع صوت الربع من جديد يؤكد أن انتظار عودة الكامل هو الممكن الوحيد . ولم يعد أهل الوادى - وقد ملوا كل شئ - يجدون فى أنفسهم حماسة للمشاركة فى خلاف سيحسمه الزمن الآتى .

ولم يظهر النجم الأبرق . ظهر شخص لم يره أحد من قبل ، ولم يفصح من يكون . مسح الوادى بنظرة متأنية ، عجب لرائحة العفن المنتشرة ، تجول بحرية بين طرقاته فلم يصادف معترضا أو سائلا . كان الصمت يكسو الشوارع ويقبع فى البيوت ، والناس والحيوان قد أخلدوا للسكون.وكأنهم ديدان قابعة داخل شرانقها ،حاول أن يستثيرهم بالنداء فلم يسمع غير الصدى ، حرك بعضهم فاذا هم خشب مسندة ، اذا تحركت تساقطت .

مضى القادم إلى النهر ، أطلق مياهه الحبيسة تجاه الوادى حتى غمرته، بدأت شخوص كأنما تحاول أن تتحرك ، لكنه قال فى نفسه : أى خير يرتجى

من هؤلاء ؟ ذهب إلى معمل التجارب ، نشر فوق الماء كمية هائلة من مسحوق أبيض ناعم ، حول الماء إلى ثلج ، غمر الأرض والشجر والبشر .

قبل أن يدخل العملاق فى حالة التجمد ، حاول أن يتحرك . لكنه أحس بالعجز المطلق ، وكل ما قدر عليه دمعة حزينة تحجرت فوق شفته ، وهو يهمس بآخر كلماته : هذا ما كنت أتوقعه .

أما الربع فانه قال وهو يرجف رجفته الأخيرة : هذا ما لم أكن أتوقعه .

أما القادم من بعد ، فقد خطف بصره بريق الثلج ونعومة الألوان المغمورة فيه ، وسيطرة الصمت وجمود الحركة . قال بصوت لا أثر فيه للندم : الآن .. حضور دائم ، وطهارة لا مجال للطعن فيها ، ولم يعد أحد يسأل عن شئ .

للحكايــة بـقيــة

كـان رصيف محطة « سيـدى جابر » ينافس الشـاطئ الذى غـادره منذ ساعـات فى زحامه وصخبه ، وكان عليـه أن يراقب الطفلين والحقائب والأشياء التى استقلت بنفسهـا فى طرود صغيرة كمظلة الشـاطئ وكراسيـه . ويكفى نجوى أن تعنى بالرضيع ، والخادم الصغيرة تعنى بنفسهـا . وعاد عبد الله يحصى الحقائب بعينيـه للمرة الثالثة ، ويتثبت من وجود ولديه حماس وعادل ومن استقرار قبعتيهما القش فوق رأسيهما . برغم اقبال المساء أذ ضاقت عنهما الحقائب . وهمس لزوجته كأنما يخشى لفت الأنظار إلى مخاوفه :

العيال .. والزحام .

وأومأت برأسها ايجابا وهى تداعب شعر الرضيع بأناملها ، والتصقت الخادم الصغيرة بالطفلين فصاروا طابورا بين صفين من الحقائب والطرود . وحين التقطت عيناه الضوء المحدب المنبعث من شباك التذاكر استراح لعدم الزحام أمامه وهرول فى اتجاهه كأنه مسحور . فلم يفطن للشرطى الواقف تحت عمود النور فى زاوية من الشباك وقد اثبت كعب بندقيته بين قدميه وجمع يديه فوق فوهتها وراح يراقب المسافرين بنظرة فاترة حمراء بفعل السهر أو ما يتعاطاه مع رفاق الرصيف من عمال المحطة حين يخلو لهم وجهه آخر الليل وقد أدرك بعد لحظات كم هو ساذج فلو كان كلن فى التذاكر بقية لما بدا الشباك خاليا الآن وقد أوشك القطار أن يصل !! وعلى الرغم من أنه قدر هذا الموقف سلفا فانه صدمّ به .

وتلكأ أمام الشباك فى نصف دائرة راح يقطعها صانعا زوايا مختلفة ،

والآن لم يعد الا أحد حلين : الركوب دون تذاكر ودفع الغرامة . أو البحث عن تذاكر السوق السوداء . ونفخ وهو يفكر فى أهون الشرين ، واستنكف أن يخرج على النظام ،فيقتحم بأسرته عربة ليس لهم فيها مكان . بل تمادى فى تخوفه حتى تخيل أنه من الممكن أن يطردهم عامل التذاكر فى أول محطة !! وتندى جبينه وهو يرى نفسه موظفا يوشك أن يعد بين الكبار فى « الإدارة » ويعرض نفسه للطرد من موظف صغير لايسمح لمثله بالدخول عليه دون اذن سابق مع ذكر الأسباب . وتذكر كلمة رئيسه المدير العام حين كان يترضاه اذ تخطاه فى الترقية بالاختيار : انت يا سيد عبدالله إدارى ضليع ، ولكن ينقصك روح المغامرة.

ـ وما جدوى المغامرة فى عمل يقوم على القوانين ، ولا مكان فيه لغير النظام ؟

ـ لابأس .. وأنا اعنى بالمغامرة نشاط الخيال .. وعدم العبودية للواقع المفروض . ومع ذلك أعدك بألا يخطئك الاختيار فى العام القادم .

والآن .. هل يبدو الحل الاخر أقل احتمالا للضرر ؟ من أين له أن يعرف كيف تباع تذاكر السوق السوداء ؟ مرة واحدة حين كانت نجوى خطيبته .. منذ عشر سنوات اشترى تذكرتين امام سينما كايرو ، وقد عرضهما البائع عليه صراحة امام الشباك ، فاشتراهما اعجابا بجسارته واظهارا للحرص على ارضاء الخطيبة .

ولكن .. هنا .. وفى الدقائق الباقية عن وصول القطار كيف ينتهى به الموقف ؟ لقد فكر فى الأمر قليلا وهو يستحم مودعا شاطئ المندرة ذا الرمل الفضى ، ولكنه طرحه عن نفسه حتى لا يتكدر فى آخر أيام الاجازة .. وظن

أن الأمور ستمضى كما يمضى كل شئ .. بقوة الدفع .. ولكن .. فرق كبير الآن بين ان نفكر فى الشئ .. وأن نجتازه !!

ووجد زوجته أمامه تقطع عليه نصف الدائرة التى يتأرجح بين خطوطها . وظهرت الدهشة فى عينيه وهو يعود من عدو ، خلف حلول الموقف . وأوشك أن يلومها اذ تركت الأطفال والأمتعة ، ولكنها سبقت ملامته ، وأوشكت أن تبدأ فى تأنيبه لانه أهمل نصحها ولم يحجز فى الديزل للعودة من يوم وصولهما ، فقال لها مترضيا وهو يتأبط ذراعها الخالية من حقيبة يدها :

- ولايهمك .. اذا لم نركب بمنتهى الراحة سنأخذ تاكسى وحدنا .

- لايمكن .. الطريق الصحراوى مقطوع والدنيا ليل .. والطريق الزراعى زحمة وكل يوم حوادث .

- العمر واحد .. ولايهمك .. تعالى ..

كان الحوار يدور أمام الشرطى الواقف تحت المصباح - ولكنهما لاهتمامهما بما يقولان كانا فى شغل عما تنطق به ملامحه - فالتقطت اذناه المشرعتان حديثهما ، وانتظر أن يلتفتا به إليه ، فلما - لم يفعلا ، حاول أن يتلطف وقد آنس من الرجل هدوءا وخفوت صوت ، فقال متظرفا :

- عدم المؤاخذة يا أستاذ .. حضرتك رايح مصر ؟

- أن كان لنا نصيب .

- أن شاء الله يكون .

- يبدو أنه لم يشأ ، لأننا لم نجد تذاكر .

وارتفعت يد الشرطى تداعب السلسلة المتدلية من جيب سترته واحس عبدالله

احساسا غامضا بمعنى حركة السلسلة . وفسر على ضوئها تدخل الشرطى فى الحديث ، وخاف أن يتميع الموقف فال مندفعا :

- هل أجد عندك تذاكر ؟

وابتلع ريقه وأحس باندفاعه . وخاف أن يخطئ ظنه فى الشرطى فيتعرض لسخريته أو تأنيبه ، فأردف :

- ... وتكون متفضلا .. ولك الشكر .

ولكن الاخر كان أبعد ما يكون عن فهم المرمى من الاضافة الأخيرة ، فقال منطلقا من أسلوبه الخاص دون ان يبذل جهدا فى تتبع افكار محدثه :

- لاشكر على واجب يا أستاذ .. فيه تذاكر للمضطرين وأصحاب المصالح.

- عندك ! ؟ .

- انا شرطى يا أستاذ ولا شأن لى بالركوب والنزول .. هناك عند رئيس الحمالين فى أقصى الرصيف .

وفكر عبدالله لحظة ..

- هل تأتى معى اليه ؟

- لاشأن لى بالتذاكر كما قلت لك .. انا نصحتك فقط.

وهمست نجوى :

- هيا نذهب إلى كشك رئيس الحمالين .

- والأولاد ؟

- لاخوف عليهم . لقد أوصيتهم ألا يبارحوا الأمتعة مهما تأخرنا .. هيا

.. القطار يوشك أن يصل .

ونظر إليه الشرطى نظرة مشجعة واستحثه قائلا :

ـ اذهب يا أستاذ قبل أن تنفد التذاكر .

وبعد دقائق كانت التذاكر وباقى الورقة المالية ذات العشرة جنيهات مستقرة فى جيب عبدالله ، واستراح كثيرا حين وجد رئيس الحمالين قنوعا فى نسبة الزيادة التى فرضها على ثمن التذكرة ، ولكن هذه الراحة لم تدم طويلا ، اذ داعبه وسواس خبيث ان تكون التذاكر قديمة أو زائفة فلا يلقى فى القطار غير السخرية والمساءلة ، واستفحل قلقه حتى أفضى به إلى زوجته ، فلامته باسمه وهى تخطف التذاكر من يده :

ـ كفاك وسواسا . السوق البيضاء ليست أقل غشا وشراهه بالعكس ربما كانت الأبواب الخلفية أكثر صراحة فى التعامل لأنها ليست مضطرة للمجاملة، ومع هذا ..

واتجهت من فورها ـ وهى تجره من يده ـ إلى شباك التذاكر ، فأطلعت موظف الشباك على ما فى يدها . فأخبرها أن تذاكرها صحيحة ، وابتسم . فدهش عبدالله لابتسامته وعدم دهشته ولكن نجوى لم تترك له فرصة .. فعادت تجره متلهفه لتعد اسرتها للركوب .. فقد أقبل القطار .

وأخيرا جلس فى مقعد وثير من مقاعد الدرجة الثانية ، وجلست نجوى إلى جانبه ، من جهة الشباك ، وراحت تناغى الرضيع تتشاغل به عن ضجة الزحام، وأخذ الطفلان والخادمة اماكنهم المقابلة على حين رصت الحقائب والطرود فى الطرقة وفوق الأرفف ، وحين تحرك القطار تنفس الناس الصعداء وأيقنوا انهم بالغون بيوتهم بعد ساعات قليلة فنعموا براحة اليقين . وانتشر

الضوء الأزرق الخافت فى العربة ، وسكنت الأصوات فلا تسمع الا ايقاع العجلات الرتيب فوق القضبان . وكان من حسن الطالع أن هذا القطار لن يقف فى الطريق ، فهو قطار خاص اعد لتخفيف الضغط عن القطارات الدورية ، ونعس الطفلان وكانت الخادمة تحاول أن تقاوم النوم ، على حين أخذ عبدالله يقلب صحيفته فى الوقت الذى كان متشاغلا فيه عما أمامه . كان يراجع فى ذهنه حسابات المصيف : كم أنفقوا وكم بقى ، كما كان يحاول أن يرسم لنفسه صورة اليوم الأول فى عودته للعمل بعد العطلة . كم يريد أن يتحرر من الروتين المفروض والخضوع الأصم للوائح . متى يزاول نشاط الخيال .. أو المغامرة كما تمنى رئيسه منذ شهور ؟!

واختلف ايقاع العجلات ، وتحول إلى دوى وطنين ، فقدر أن القطار يجتاز كوبرى كفر الزيات ، الوقت يمضى بسرعة ، بعد نصف ساعة نكون فى طنطا ، وحين نغادرها نستروح نسمات القاهرة .. اشتقنا والله .. حتى لحرها وزحامها .

ـ لايتحرك أحد .. لايتحرك أحد !!

انطلق التحذير مرتين متتابعتين من مكانين متباعدين كأن إحداهما طلقة رصاص والأخرى الصدى . ولم يفهم عبدالله شيئا ويبدو أن أحدا لم يفهم ، فقد ران صمت مخدر ، وأول خاطر تسلل إلى نفسه أن الشرطة السرية تتعقب مجرما أو مهربا وتريد ضبطه ، ومع استراحته لهذا الخاطر أحس بشئ من الخوف على أطفاله ، فقد يعمد الشخص المقصود إلى المقاومة أو اطلاق الرصاص .

وأوشك أن يجذب ولديه النائمين إلي حجره ، ولكن صدى التحذير القاطع

جعله يتخشب ويعيد تقدير الموقف قبل أن يلفت اليه الأنظار . ومال برأسه متطلعا إلى أمام راصدا الباب الموصل بين العربيتين فوجد جسما عملاقا يغلقه ، فى يده اليسرى حلقة قيد حديدى تتدلى منها سلسلة القيد وحلقته الأخرى ، ويبرق فى يده المطلقة نصل طويل حاد ، وبلا إرادة نظر خلفه فوجد عملاقا اخر - بغير قيد - يغلق بهامته الباب المقابل !! .. ولم يفهم شيئا ونظر إلى الركاب المجاورين فوجد معنى الرعب دون فهم .

وتسلل ثلاثة خفاف الاجسام من تحت ذراع العملاق فانسابوا كالأفاعى بين المقاعد واذ اقتربوا من الركاب وضح الشر فى عيونهم كما ظهرت آثار التشوه بالطعنات واضحة فى الأصداغ والأعناق والجباه .. وصرخ أوسطهم . وكان قصيرا تميزه طعنه طولية فوق الحاجب :

- الكلب الذى بصق فى وجهى يقف حالا .

ومضت دقيقة ولم يقف أحد ، بل بدا الامر وكأنه كابوس فلم يصدق أحد ما يحدث أو يسمع لانه لم يفهم له معنى ، الا ذلك الذى بصق إن صحت الواقعة بالطبع . واستفز الصمت المهاجمين الثلاثة ، فراحوا يرددون فى هوس وهم يحملقون فى وجوه الجالسين - الذى بصق يقف .

واتجه القصير فى خطوات قافزة نحو كهل فى الخمسين مورد الوجه مرجل الشعر ، يرتدى ثيابا بلدية نظيفة تضعه بين أعيان الريف ، فأمسكه من عنقه وهزه بعنف :

- انت !! ..

فقال الكهل بين اللين والحزم :

- بأى حق تمسكنى هكذا ؟

وأحس الآخران ببوادر المقاومة فى نبراته وتخلخل الرعب فى عيون الجالسين، فأقبلا لإعانة القصير ، وفى لمح البصر كان ثلاثتهم يجرون الرجل عن مقعده جرا إلى طرقه العربة ، وهو يقاومهم بحذر معلنا أنه لم يفعل شيئا . وهتف العملاق الآخذ بزمام العربة الامامى :

- ولد يا قاضى ..اتركه .. الاخر يلبس أزرق .

فقال القصير :

- لن اتركه .

وقهقه العملاق الاخر على الباب الخلفى وقال بوحشية :

الكل سيضرب .

وعاد القصير يزمجر متشجعا :

- إنه هو .. الالوان تتشابه فى الظلام .. لابد أن يدفع ثمن بصقته .. سيعترف .. فقال الكهل وهو يحاول الا يستفزهم بحركته فيناله الطعن العاجل :

- لن أعترف .

- لقد اعترفت .

قالها القصير وهو يسدد إلى بطنه لكمة تأوه لها الكهل الريفى وأظلمت عيناه فحاول ان يستند إلى مقعد قريب ، ولكن الآخر عاجله بأخرى جعلته يعدل عن محاولته ويترك نفسه هدفا للكمات . هذا والعملاقان مازالا على البابين تلمع النصال فى أيديهما . ويهتفان بأصوات خشنة :

- هس .. اخرس .. لايتحرك أحد .

تم الأمر فى سرعة خاطفة . ولكن حتى هذه الدقائق القليلة كانت كافية لادراك مدى ما تتعرض له العربة من خطر . وعجب عبدالله من خلو العربة من الشرطة . واطمئنان المهاجمين وعدم تعجلهم كأنما امنوا المفاجأة . ووجد أسئلة كثيرة حائرة تملأ رأسه . اذ كيف تجمع مثل هذا العدد من الشذاذ فى مكان واحد وكيف تسنى لهم الانفراد بالعربة . وكيف تمت حكاية البصقة ، وهل هى حيلة لسلب الوجيه الريفى ولماذا هو بالذات ؟ وتطلع إلى نجوى فوجدها تمسح ظهر الرضيع وتتمتم بوجه مخطوف . أما الصغيران فقد راحا فى نوم عميق فلم يدر أيوقظهما فقد يستدعى الامر محاولة الهرب ، أو يتركهما فيجنبها الفزع ويترك الامر للمقادير ؟!

وهتف فتى فى منتصف العربة متشجعا بنظرات التحفز التى بدأت تظهر على بعض الوجوه :

ـ عيب يا رجال .. الرجل مثل والدكم .

فاتجه اليه القصير من فوره وهو يرعد :

ـ مثل والدك أنت يا كلب .

وألقى بنفسه عليه وأنشب مخالبه فى عنقه وهو يدفع به نحو شباك العربة يريد القاءه خارجا ، ففزع الجلوس أجمعين ، حتى أولئك الذين هربوا بنظراتهم من قبل راضين عن اكتفاء الشرذمة باصطياد الكهل ، فقاموا يعترضون النافذة ، وفكر أحدهم فى جذب جرس الانذار أو فرامل الطوارئ ، ولكن فتى آخر من المهاجمين عاجله بلكمة فى جانب عنقه جعلته يتصلب . على حين هرول الثالث عاجله بلكمة فى جانب عنقه جعلته يتصلب . على حين هرول الثالث إلي العربة الأخرى ، ولم تمض لحظات حتى أقبل عدد وفير آخر تلعب

العصى فى سواعدهم كالمراوح وتبرق النصال كالمراوح !!

وقبض القصير على ناصية الكهل ودفعه تحت أقدامهم وهو يقول :

ـ هذا الذى شرفنا ببصقته على الرصيف .

وقال من يبدو عليه أنه زعيمهم بفظاظة وهو يغمز الكهل بقبضته :

ـ أنت .. لاداعى للانكار .

فقال الكهل بين الاستهانة والتسليم :

ـ نعم .. انا .

قال الزعيم وهو يشير إلى رفاقه :

ـ لماذا بصقت علينا ؟ أتظن أننا حثاله البشر .

وصمت الآخر . فاستحثه الزعيم بلكمة صغيرة فى ذقنه . فقال وقد أوشك أن يفقد معنى الخوف :

ـ إنكم على كل حال لستم أحسن البشر .

ـ كيف .. ألا ترى شجاعتنا ؟ من الذى يسيطر على العربة الآن ؟

ـ لم تكونوا كذلك على الرصيف . كان عسكرى بشريط واحد يرعبكم جميعا .

ـ ها أنت أيضا تستهين بالعساكر وتفكر بعدد الأشرطة .. سنجعلك عبرة..

ـ هيهات .. سيقف القطار حتما وتحاسبون على ما تفعلون الآن .

ـ ومن الذى يحاسبنا ؟

ـ الشرطة طبعا .

ـ لا شأن لك بالشرطة .. أنت استهنت بها الآن .. والشرطة أصدقاء حميمون .

ـ أصدقاء لكم أنتم ؟

ـ بيننا معاملة على نحو ما .. لايهم نوعها .. أحيانا يقتل بعضنا بعضا بدوافع الاعجاب .. أو المنافسة .. أو الكراهية .. لولانا ما كانت شرطة .. ولكن انت .. سنقتلك حقدا .. ونسلبك حقدا ..

ـ الشعور متبادل .

استشاط الزعيم غضبا فاتسع منخاراه وتصبب جبينه عرقا ، وقال وهو يجعر :

ـ أتجرؤ أيها الوغد ؟ .. خذ

ولكمه بركبته فى وجهه وهو يحاول النهوض ، ثم عاود لكمه فى بطنه حتى عاد يترنح ، وصرخ الفتى الذى تدخل سابقا وقد فقد صوابه ؟

ـ أبى .. لن أتركه يموت ..

واهتزت قلوب الركاب ، فما كان أحد يحسب الفتى الذى تعرض للإلقاء من شباك العربة بابن لذلك الكهل ولم يعد الصمت محتملا بعد صرخة الفتى، ولكن القصير رفع صوته ليغطى بضجته على ثورة المشاعر :

ـ لقد أصابت بصقتك عينى ، وتلك إهانة لايغسلها الا الدم .وستخرج ما فى جيوبك هنا الآن لألقى بك من النافذة نظيفا خفيفا . فقال الكهل ولم يفقد ثباته :

- الموت لقاء بصقة !!

- الموت ثمن احتقارك لنا.

وتعمد الكهل الريفى أن يداور ويطيل المحاوره . لعل أحدا يهب لنجدته . ومدّ الآخرون فى حبل الصبر إيمانا بقوة سيطرتهم على العربة . وثقتهم بأن أحدا لن يقف إلى جانبه بل لعل هناك ارتياحا عاما لاكتفاء الشرذمة به ككبش فداء . قال الكهل :

- ولكنك تحقد علينا كما ذكر كبيركم الآن .. فهل تستحق أنت الموت أيضا لقاء أحقادك ؟

- لاتحاول .. انت لاتملك ان تحاكمنا الآن .. هويتك .. نقودك بسرعة .. وسعاتك .

ومضى الكهل خطوة أخرى وهو يطلق طلقته الاخيرة :

- أتريد معاقبتى على هفوة . أم تجريدى من مالى ؟

- كليهما !!

- ورفاقك .. هل يوافقون ؟

وهتف أحد العملاقين على الباب :

- ثيابه تناسبنى .

وهتف الاخر :

- لاتنس علبة سجائره .. انها من الذهب ..

فعاد الكهل يقول بثقة من أصبح لايعبأ بشئ :

ـ فتشني فخذ ما تشاء ، ولكني أحذرك من هؤلاء .

قال الزعيم :

ـ تعني ولدك ؟! إنه بعد القائك النافذة لن يجرؤ على التفوه بكلمة ، وحين يصل القطار ويقف ولدك بين يدى الشرطة سترى أنه لن يعرفني ولن يجرؤ على الاشارة إلى وسأتمتع بالبراءة . وربما أطالب بتعويض .

قال الكهل ساخرا :

ـ رد شرف !!

ـ ولم لا ؟؟!

ـ ولكنهم نسيت أن كل من فى العربة يضمر نحوك مثل ما أضمر.

قال القصير :

ـ ولكنهك لم يبصقوا على وجهى .

ـ سيبصقون غدا على جثتك وهى ملقاة تحت الاقدام .

وتقاطر العرق أكثر من جبين الزعيم ، ومسح العربة بنظرة نارية ازدادت لهيبا حين اصطدمت بالاحتقار الكامن فى النفوس ، وكان الفتى ما يزال يرجف ومن حوله يحاولون تهدئته وتطمينه على والده فصرخ فيهم الزعيم محذرا من التجمع حول الفتى :

ـ كفوا عن هذه السخافة .

ولكن أحدا لم يستمع اليه ، وراحوا يدلكون أطراف الفتى . ويرشون وجهه بالماء ، وأخذ أحدهم يؤذن فى أذنه بصوت خافت ، والفتى قد اصفر لونه

وتشنجت أطرافه وانضمت شفتاه فى ألم مميت .

وجعر الزعيم :

- اذن .. سيعمم الحكم، سنأخذ كل ما معكم .. جميعا .. فنهض الكهل متحديا وقد آنس اقتراب المقاومة الجماعية من الركاب :

- إنها عملية سلب فى أساسها . والبصقة المزعومة مجرد تعلة .وأحب أن أخبرك أن البصقة شرف لا أدعيه .

- يعنى !!

- يعنى .. لم أبصق .. ولكنى أبصق الآن على لصوصيتكم قال الزعيم باستهانة :

- ولو .. ستعاقب .. وسترتد بصقاتك إلى وجهك مادمنا نملك كل شئ .

- وأنا أيضا أقول لك : ولو .. لابد أن توضع الامور فى حجمها الحقيقى .. وحين يحدث ذلك لن تزيد عن متشرد يصرخ فى يد شرطى يصفعه على قفاه .

- ليست هذه آخر أفكارك الحمقاء ، ولكن .. حدثنى .. ماذا يهمك من ذلك مادمت سألقى بك من النافذة الآن ؟

وجاء صوت متوتر بالانفعال والتردد :

- ولكن هذا لايجوز .

وصرخ القصير ، على حين التفت الزعيم ، ومحق مصدر الصوت بنظرة مفترسة :

ـ من المعترض ؟

وعاد الصوت بعد لحظات قصار وهو أقل ترددا :

ـ لستم أسودا . ولن يكون الفريسة .

ـ تعال .

وأشار القصير إلى زعيمه اشارة ذات مغزى ، فتركه له ، فاتجه اليه من فوره وجذبه من مقعده ، ووجه لكمة إلى أنفه أطارت النظارة الطبية عن وجهه، وأيقظت الصبيين وأطلقت صوت نجوى بالصياح وطلب النجدة .

وانحنى عبدالله يبحث عن نظارته وهو يتوقى بيده الاخرى لكمة متوقعة وقال باصرار :

ـ نعم .. هذه عربة لها نظام وليست غابة .

وجاءته اللكمة الأخرى فى موعدها تماما مقترنة بالحجة :

ـ وما دخلك أنت بما يجرى فيها ؟

ـ انه عمى أيهاالوغد !!

ـ ما شاء الله .. ابنه .. وابن أخيه .. هيصة .. عربة العائلة ونحن لاندرى .. (ثم أضاف بعد لحظة صمت كانت عيونه تدور فى محاجرها كأنها من زئبق) .. فلوسك .. هويتك .. ساعتك .. خلصنا ..

ولمح نجوى ، فاستقرت عيناه قليلا ، ثم عاد بلهجة متشددة :

ـ وأنت أيضا !! . هيه .. أنا أعرف أين تخبى النساء الحلى والنقود .. سأعطى نفسى حق التفتيش .

وفزعت نجوى وانطوت على رضيعها مذهولة ، على حين صرخ عبدالله :

ـ اخرس يا وغد . سأنهش يدك قبل أن تلمسها .

كان النقاش واللكم قد توقفت مؤقتا بين زعيم الشرذمة والكهل الريفى ، انتظارا لما يسفر عنه التطور الجديد فى الركن الآخر ، كذلك انتقلت النظرات إلى موضع الالتهاب ، الجديد ، ولم يرج أحد خيرا لأن عبدالله بدا للركاب نحيلا خائر الصوت ، وكانت نظارته الطبية تجسم محدودية حركته وعجزه ، وحين وجه اليه القصير لكمة ثالثة أحس الكهل بمسئوليته عن مصيره المنتظر فحاول أن يتحرك نحوه ، ولكن الزعيم حال دون لقائهما بضراوة ، وقبض على عنق الكهل بغير رحمة ، فهتف بصوت مختنق وهو يحاول أن يخلص عنقه من يد الآخر :

ـ يا عبد الله .. احذرهم .. صبرك .. صبرك يا عبدالله .

فصرخ عبدالله متحديا وهو يندفع نحو القصير ويوجه اليه ضربات بدت طائشة ضعيفة :

ـ لاصبر بعد الآن .

وتلفت القصير حواليه . لقد بدأ يتردد .. لم تعد نظراته مقتحمة متوقحة .. إنه يخشى أن يهاجمه أحد من خلف وهو مشغول بالتمرد الجديد . وأحس العملاق الذى يغلق الباب الأمامى بتردد القصير فتقدم لمساندته واثقا من تأثيره السريع . وفى قفزة واحدة كان قد احتضن عبدالله بين يديه وراح يقصيه وهو يردد :

ـ صاحب الشأن يطالبك بالصبر وأنت ملعون .

فقال عبدالله وهو يحاول التخلص دون جدوى :

ـ ملعون أنت وأجدادك .

وحدس الكهل مغبة تبادل الشتائم . فهتف :

ـ صبرا يا عبدالله .. من أجل زوجتك .

فصرخ عبدالله مغامرا :

ـ انه لايجسر على النظر اليها .

وهنا أطلقه العملاق من بين يديه ودفعه فى ظهره بعيدا وهو يقول باستهانة :

ـ سترى بعينك الآن .

وتقدم نحو المرأة ، فقدمت طفلها بين يديها تحتمى به ، ولكنها أيقنت عبث المسعى حين نظرت فى عينى العملاق ، وكان زوجها مشغولا بمدافعة القصير الذى يحول بينه وبين العودة إلى مكانه بين المقاعد . وهنا ألقت المرأة بالرضيع إلى الخادمة الصغيرة فتلقفته كأنه كرة ، وهرولت به بعيدا ، وبكى الصبيان وانسحبا فى أثرها ومن ثم هجمت المرأة فى ضراوة على ساعد العملاق فأنشبت أظافرها فيه ، وتلقف أسنانها اصبعه . وحاول أن يخلصها من فمها ولكن فكيها تشنجا ولم يعد من الممكن افلاتها ، فراح يصرخ متأوها ، وهو يسدد نحو جبهتها ضربات طائشة يحيد بها الالم عن مواضعها وقفز عبدالله متخطيا القصير وألقى بنفسه فوق كتف العملاق من خلف ، مجازفا بامكان دفعة من النافذة ، وغرس مخالبه فى عنقه وكتفه وأذنه بجنون ، وهنا وثب الكهل على الزعيم وهو يعاجله ببصقة قائلا :

ـ هذه بصقتى اذا شئت .. أنت الآن تستحقها وأكثر .

ونهض الفتى وركاب آخرون ، وبدأت اللكمات المتبادلة والأوانى والزجاجات الطائرة وامتلأت سماء العربة بالصرخات والتأوهات وطلب النجدة، واختلط عويل الأطفال بصراخ النساء بتهديدات الرجال ومدافعاتهم ، واختلط الامر كما اختلطت الاجسام فى تدافعها بين بابى العربة المتباعدين ، والنوافذ المستعدة لنبذ من تضعف قبضته عن التشبث بأطراف المقاعد ومقابض الأبواب. لم يفكر أحد فى احتدام المعركة أن يمد يده لجذب فرامل الطوارئ لايقاف القطار ربما لأن كل فريق طمع فى السيطرة على الآخر . وحين نال الكلال من الاجساد وكثرت الضربات الطائشة والأجساد المطروحة أرضا مثخنة بجراحها تبين للفريقين أن أضواء القاهرة تظهر من بعيد وأن القطار يوشك أن يهدئ من سيره عند منحنى قليوب . وهنا حاول المهاجمون أن يضربوا ضربتهم الاخيرة ليفوزوا بالغنيمة والفرار كما حاول المدافعون أن يعوقوهم لتتلقفهم أيدى الشرطة فى المحطة ! وحين هدأ القطار من اندفاعه عند شبرا تمكن بعض المهاجمين من القفز من النوافذ كخفافيش الليل ، وفى أيديهم بعض الساعات وحافظات النقود ، ولكن الركاب أحكموا التعرض فى النوافذ والابواب معرضين أجسادهم للطعن والركل وقد استبد بهم فرح الظفر .

ووقف القطار أخيرا . وانطلقت الحناجر تطلب النجدة، وأسرعت شرطة المحطة للسيطرة على الموقف ، واقتيد الفريقان للتحقيق ، وتم التحفظ على سائر الركاب حتى تظهر جلية الأمر . وقد عجب المحقق من أن أحدا من العربات الأخرى لم يفطن لما يجرى فى تلك العربة المنكوبة ، ولكن العجب كان أكثر حين عرف السبب فالعربة الامامية كان بها فرقة موسيقية أخذت فى

تمرين نفسها وتسلية الركاب فغطت ضوضاؤها على ما يجرى ، والعربة الخلفية كانت عربة ترحيل المتشردين أما التى تليها فقد كان فيها قارئ كفيف عذب الصوت سحر الناس بنبراته فلم يفكر أحد فى مغادرتها .

غادر عبد الله وأسرته غرفة التحقيق وإلى جانبه الفتى والكهل الريفى وقد صاروا أصدقاء ، وابتسم الكهل للفتى بمحبة صادقة مقدرة للجميع رسالة بغير عجب:

ـ كيف عرفت أنى أبوك ؟

قال الفتى :

ـ إن الضربة التى أصابت رأسك صدعت قلبى فعرفت أنك أبى .

فقال الكهل مازحا :

ـ مع أننا تزاحمنا بالمناكب عند دخول العربة .

قال الفتى وقد غض وجهه حياء :

ـ كلنا سيصل إلى غايته ، فما معنى التزاحم ؟ ولكنا لم نر الاستاذ عند الركوب .

قال عبدالله بغير اهتمام :

ـ كنت مشغولا بأسرتى ، ولم أحصل على التذاكر الا قبيل قدوم القطار بدقائق .. لعنة الله على السوق السوداء .

قال الكهل معترفا :

ـ إنى أشهد لك بالشجاعة ولزوجتك بالجسارة .

وسأله عبدالله عن حكاية البصقة ، فقال الكهل ضاحكا وكأنه لم يكن فى كف القدر منذ ساعات .

- أظنها لن تعد ذات موضوع .. أنا شخصيا لم أكن مسافرا على هذا القطار ، لولا حصولى على تذكرة بمعونة شرطى واقف عند الشباك ..

ومضى عبدالله وهو يفكر فيما فعل ، ويعجب من أين له هذه القوة الخبيثة وكيف واتت زوجته الجسارة ، على أنه كان مطمئنا للنتيجة ، مزهوا بمحاولته المتواضعة لتحطيم الروتين الذى التزم به فى حياته دون إراده حقيقية فى التزامه ، وتخيل ما ستقوله الصحف غدا عن الحادث . وابتسم وهو يرى المدير العام يقرأ اسمه بامعان ويشهد له هذه المرة بأنه ليس محروما من روح المغامرة.

ولكن السؤال الذى بقى معلقا وأثار قلق وقلل من فرحة المغامرة هو : هل هناك رابطة بين تذاكر السوق السوداء ونظرة الشرطى المخدرة وابتسامة عامل الشباك وقناعة رئيس الحمالين ، وبين سوقهم إلى العربة الفخ ؟

وحين أفضى بقلقة إلى نجوى ، ابتسمت له ، وقد ابتدأ تقديرها له يزداد ، وإن رغبت فى مداعبته فقالت :

- لاتزال تطرح تساؤلات بعيدة الاحتمال شأن موظفي اللوائح عباد النظم الادراية مع أن سؤال البداية السهل هو : أين كان حرس القطار ؟ ومن الذى أعطى المتشردين اشارة الهجوم ؟!!

ليلــة صعبــة

انسحبت ملامح الرغبة فى السرور من صفحة الوجه الهائل ، احتلت الصرامة مواطنها المعهودة بفعل إرادة جبارة ، فانسحبت اخر ضحكات الندامى فى المجلس ولم تبق إلاّ إشارة الانصراف . تطلّع السيد الرهيب إلى المصباح ، ثنى طنفة بنفسجية تحت كوعه ، وهو يميل قليلا على شقه الايسر . قال : « جدّ الليل » . سلمّ أبو عبيدة ، تبعه سائر الندماء ، فى لحظات خلا مجلس إسحاق المصعبى من سماره وما عسى أن تكون عثرت به أو لاحظته جماعات العسس بين الليل والنهار . لقد أصبح عملا مألوفاً يجرى فى قنواته اليومية بفتور ، يشى بالملل ، ولكن السيد الرهيب المسئول عن شرطة بغداد لايعترف بوجود هذه الكلمة : إنه يقابل رجال الحسبة عصرا ، بعد أن تنفضّ أسواق البيع والشراء ، ويتلقى تقارير قادة العسس بعد منتصف الليل ، عقب أن يأذن لسماره بالانصراف . أما قائد الحرس الطواف فيمثل بين يديه حين يرسل فى طلبه ، إبان الليل والنهار . تقدم صاحب الربع الأول فأدى تحية قائده واقفا . مدّ اسحاق كفهّ الهائلة وتناول التقرير . جرت عينه مسرعة بين سطوره ، قسمات وجهه لاتنمّ على شئ . لم يكن في التقرير ما يلفت ، كلها حوادث عادية ، يجرى مثلها كل يوم : امرأة قتيل عند غرفة مهجورة فى أطراف حديقة يتنازعها ورثة . غرق ركّاب سميرية ، كانت تبحر فى دجلة ، وعلى متنها بعض الجوارى والقيان والخلعاء ، كانوا سكارى فعجزوا عن

السباحة ..

كان صاحب الربع الأول لايزال واقفا ، معُنى بمراقبة وجه المصعبى ، يرى أصداء التقرير منعكسة عليه ، ويقدر أين تقع عين القائد من الصفحة ، وكيف ترجمت القسمات عن الشعور ، تصلبت الاصابع على الورقة ، تركزت النظرات الثاقبة على سطر محدد ، تذهب وتجئ عليه لاتريد أن تبارحه ، تراقصت ذؤابتا الشارب الملتوى كطرف الخنجر . هتف بالحاجب على باب القاعة :

- مقارع . مقارع !!

لم يصدق قادة الأرباع آذانهم . الواقف صعق تماما ، لم يدر كيف ينبغى أن يتلقى الهجمة الكاسحة . الحاجب على الباب انثنى بجذعة قليلا إلى الخلف وأبلغ رغبة سيدة : « مقارع ، مقارع » . هبط سكون متوتر ، لحظات كأنها دهر ، اعتدل المصعبى وشفتاه الغليظتان ترميان بالحجارة :

- يا ابن الفاعلة ، اتدرى ما صنعت ؟

لم يقلق قائد الربع على ما صنع ، لقد تم وفق النظام العام ، أما معاقبته بالضرب فهذا هو الجديد فى تعامل رجل الشرطة ، فأى مهانة فى أن يضرب قائد شرطة كما يضرب السُّراق لانتزاع اقرارهم ، وعبيد الخدمة اذا ما اتلفوا شيئا ثمنيا ؟!

وتساءل بفكر غائم : هب أن المصعبى ركب جنونه وفعلها ، هل تستكين ؟

وجاء صوت اسحاق كالزئير :

ـ أين وضعتها ؟

ـ كما هو مسطور فى القرطاس يا سيدى القائد . لقد تم وفقا لما أمرتنى .

حدجه المصعبى بنظرة نارية ، وكأنما همّ بالنهوض ليجذبه من رأسه إلى الأرض لكنه أرسل زفيرا لافحا ، وقال بتهكم :

ـ اذا أمرت حمارك أن يخوض البحر ، هل يفعل ؟!

كان أصحاب الارباع الثلاثة الباقية يرقبون ما يجرى ، دون أن يجرأ أحدهم على التدخل لتهدئة المشهد . أحدهم كان يشعر بأنه قريب إلى نفس المصعبى ، فتوثب لاصيطاد فرصة محتميا بدالته ، فالحوار بين ثلاثة أقرب إلى السلامة وأبعد عن حد الصدام . اقتنص الفرصة السانحة :

ـ سيدى القائد ، يحتكم الانسان إلى عقله ، والحيوان يحتكم إلى غرائزه .

قال المصعبى دون أن يلقى بالاً إلى هذا التدخل :

ـ لاتظن أن تقدمك فى السن يعطيك حرمة ، اذا كنت ضعفت استبدلناك .

قال القائد :

ـ إنما فعلت ما فعلت بأمرك ، كسبنا الدور ، اخذنا النسوة المشبوهات ، وضعناهن فى السجن .

تحركت مشاعر الخوف فى نفوس قادة الارباع الباقية ، قال أحدهم مبادرا مواجهة الخطر :

- كلنا فعلنا ذلك .

قال المصعبى :

- ليس هذا موضع الغلط .

استراح فى جلسته ليطمئن الباقين ، ورغب فى أن يلقى على رجاله درسا فى السلوك الأمثل لرجل الشرطة :

الشرطى يتصرف بالعقل ، ويعمل بالغريزة ، غريزة الشرطى هى التى تجعله يتفوق على من يحاول خداعة ويمسك بتلابيبه . اللص يمكن أن يكون أكثر ذكاء من الشرطى ، ولكنه لايملك غريزته .

وحضر رجلان مختصان بالتعذيب ، وقفا قرب مدخل القاعة ينتظران الأمر، جف حلق قائد الربع ، رمق المقارع تطل فى يد عبد عملاق ، وآخر يماثله يقف بجانبه ، هذا الآخر سيجرده من ثيابه لتلقى الضربات ، فأى مهانة ؟!

هل سيكون باستطاعته أن يعود إلى موقعه بعد أن لحقه عار الضرب بالمقرعة ؟ لابد أن بغداد ستتحدث عن ذلك دهرا ، وستلاحق المعرّة أبناءه من بعده . وقال صاحب الدالة فى نفسه : « اذا ضرب هذا اليوم كما يضرب العبيد واللصوص ، فان غيره سيضرب غداً ، وليس بمستبعد أن يأمر المصعبى يوما بتجريدى وجلدى ، على ملأ من الناس » . وواتته جرأة اليأس ، فقال :

- سيدى القائد ، اذا عاقبت رجلك .

احجم لسانه عن اكمال الكلام ، خاف أن يكون تجاوز حده اذ تكلم بغير إذن ، وربما جاء كلامه غير موافق لهوى القائد .. سكت . لكن وجهه المحتقن بالانفعال ينم على جزعه وحزنه .

قال المصعبى :

- هه .. اكمل .. قولك .. لن أجد من يتعامل معى ؟

هبّ صاحب الدالة واقفا ، قد أفزعه هذا الاحتمال ، اذ يحمل معنى الطعن فى قائده ، وتقدم نحوه منحنيا يتلطف :

- حاشاك يا سيدى . ما هذا أردت ، انما أحببت أن أقول أنك اذا عاقبت رجالك وتسامع الناس بذلك سقطت هيبتهم ، وعجزوا عن تدبير الامور .

أنزل المصعبى عينيه عن قائد الربع ، عبثت أصابعه الغلاظ بحمائل سيفه المضطجع أمامه ، اهتزت ذؤابتا شواربه الهلاليتان واتسع منخاراه ، رمق العبدين القائمين قرب الباب لايتحركان . قال :

- فى هذا .. صدقت . اذهبا .

ثم نظر إلى الاخرين ، وقال :

- رقاعكم ...

تقدم صاحب الدالة وناوله تقريره المسطور فى ورقة واحدة ، وفعل الآخران

الشئ نفسه . وضع الورقات الأربع أمامه متجاورة ، أجرى عينه بينها ، استوعبها فى لحظات ، أراد أن يطمئن الثلاثة بابتسامة ، فجاءت باسرة مثل تكشيرة الاسد .

أحسّ بضرورة أن يتكلم حتى يعود إلى المذعور صوابه . أذن للجميع بالجلوس ، ثم سأله :

- هل عينتك مسؤولا عن ربع الأسواق وباب الشام ؟!

- لاسيدى القائد . لقد اقررتنى على هذا العمل .

- فمن الذى وضعك فى موضعك أول مرة ؟

- سلفك فى قيادة الشرطة ، المرحوم خالد السهلى .

- أتعرف المرأة التى حبستها في سجن درب البرازين . من تكون ؟

- لقد ادعت بأنها بنت خالد السهلى .

أوشك القائد أن يستبد به غضبه مرة أخرى ، راض نفسه على الهدوء ، إنهاء للامر. قال :

- دعنا من أنها « ادّعت » فقد استوثقت من صحة ادعائها ، ومع هذا حبستها مع الحثالة والطغام . كيف جرؤت ؟

- جرأت بانك أمرت يا سيدى . كبسنا البيوت المشبوهة ، وجدنا فيها عددا من النساء والرجال ، قدناهم إلى الحبس .

قال المصعبى :

ـ سأترك أمرك إلى زملاءك قادة الأرباع .

بادر صاحب الدالة يلقى اللوم على زميله ، لعل هذا يحفف غضب القائد ، ولا يسوق إلى صدام جديد :

ـ لقد وجدنا مثلما وجدت ، ولكن هذا الصنف من النساء لايعامل المعاملة العادية . بنات العلية ، وزوجات السادة ، حتى وإن وقعن فى خطأ ما ، حتى وإن زالت سلطة آبائهن وأزواجهن لسبب من الأسباب ، لا يوضعن فى الحبوس مع البغايا والمتلصصة . بل يكتم أمرهن ، ويوضعن فى حبس خاص ، ويرفع الامر إلى القائد .

صمت عميق . هز المصعبى رأسه ، راح يرمق قائده المذنب مغتاظا ، قال :

ـ كيف فاتك هذا رغم تجربتك الطويلة ؟ اذهبوا إلى مواقعكم . غدا يأتيكم أمرى فى شأنهن .

ما كاد الرجال يغادرون القاعة ، حتى عاد الرجل الهائل يحدّق فى الرقاع الأربع المرصوصة بين يديه ، يعيد قراءة أسماء النسوة من البيوتات الكبيرة ، اللاتى وجدن فى بيوت الشهوة . تحرك وسواسه فى اتجاه آخر ، حاول ان يصرفه عن نفسه ، لكنه كان مثل آلم الضرس المنخوب ، يشتد كلما تشاغلت عنه ، ولاشفاء له إلا بخلعه . ترددت يده بين صدره ، ومقبض سيفه ، راقب فراشة تقترب من المصباح ، ثم تسقط فى فوهته ، وفى ومضة استحالت إلى

شرارة ، فرماد ، تشاغل قليلا بمراقبة حاجبة الرابض فى مدخل القاعة ، فكر : لعله يتوق الآن إلى الانصراف والعودة الى بيته .

تصور بعين خياله بيت الحاجب امرأته تنتظره ، وطفلة فى الثامنة لعلها الآن تغط فى نوم هادئ لاتدرى ماذا يحمل لها الغد . وقديما أحسّ الناس بوطأة أن تنشأ في البيت فتاة ، وأن تساق إلى رجل آخر يفعل بها ما يشاء ، فاختصروا طريق الآلام : تزوجها واحد ، ووسدها الاخر التراب ، فأية محنة ، وأى بلاء ؟! وهل وقع أهل الجاهلية على مفتاح القوة ؟ وهل وضعه ما حدث الليلة امام اختيار محسوم النتيجة ؟ هل يفعل ذلك الآن فورا ، بسيفه ، قبل أن يتسرب التردد إلي نفسه الشفيقة على بناته ؟

قبضت يمناه على حمائل سيفه ، مضى يجره من ورائه لم يفطن لما فعل ، ترك السيف في السجاد الفاخر أثرا ، كشعبان زاحف علي الرمال ، دهش الحاجب لمنظر سيده ، تملكه الخوف ، اذ يمكن أن يفقد رأسه فى لحظة جنون متوقع ، رأى المصعبى عينى حاجبه ، وقرأهما ، فارتد إلى صوابه قليلا . التقط سيفه فى حركة رشيقة وكأنما كا يعبث عن عمد . كان قد بلغ دار الحريم. كانت امرأته تتناعس قريبا من مدخل غرفته تريد أن يراها قبل أن يخلد إلى النوم . لم تعجب من رؤية السيف ، فهو رفيقه حتى فى السرير ، لكن يده كانت على المقبض . استعاذت بالله . رأت جهامة وجهه . حوقلت . لفحتها حرارة جسده حين اقترب ، فتشهدت . غير أنه توقف أمام باب الغرفة كأنما يريد أن تبدأ بالكلام . قالت :

ـ هل ستقتل كابوسا ؟!

لم يدرك مرمى الدعابة . قال :

ـ صدقت ، ولكنى أخشى كوابيس أخرى تتوالد عنه.

قالت المرأة ، وهى لاتدرى أن قولها دفع به إلى مهب المغامرة:

ـ المصعبى لايخشى شيئا .

فكر مليا فيما يعانى . ثم همس :

ـ هذا قولك !!

ـ قول الناس جميعا .

قال بلهفة كأنما يلقى بنفسه من قمة جبل :

ـ أيتها المرأة التعسة ، أيقظى بناتك الأربع ، فقد استخرت الله ، وقررت ان اقتلهن بيدى الليلة .

صمت عميق . مخيف . مظلم ، مثل قاع بئر مهجورة ، بعد قليل ، من حنجرة جافة متوترة ، محترقة :

ـ ما هذا ؟

ـ هو ما سمعت .

ـ بناتى العفيفات الجميلات .. يقتلن ؟!

ـ لأنهن عفيفات جميلات .

- بيد والدهن - الذى رباهن أحسن تربية ؟

- نعم ، فيده بالسيف ، أحنى عليهن من يد صاحب ربع غبى ، يلقى بهن فى الحبس ، بعد فضيحة لا أستطيع دفعها .

لم تفهم المرأة شيئا ، عادت تسأل ملتاعة :

- ماذا حدث فى الدنيا ؟

- زلزلت الأرض زلزالها ، أيقظى البنات يتوضأن ويصلين ، ويستغفرن لى، قبل أن ينزل قضاء الله .

- قضاء الله !! تقتل بناتك وتقول قضاء الله !!

- كل ما يجرى فى الأرض هو من قضاء الله .

- اذاً اقتلنى قبلهن . واجعل هذا من قضاء الله أيضاً ، اذا كان قد عهد اليك بإبرام قضائه .

قفزت المرأة الى باب غرفة بناتها . أمسكت بعضادتيه ، قالت :

- لا أبارح حتى يمزقنى هذا السيف قبل بناتى .

حاول أن يصرخ فيها ، لكنه خشى أن تستيقظ البنات فيشيع الهرج ويفلت الأمر ، فأصدر صوتا مهددا كالفحيح :

- تنحى أيتها المرأة ، ليس لى فيك أرب .

- تقتلنى قبلهن .

ـ لم يعد فيك ما يمكن اكله ، لو كان بقى شئ لطهرته بهذا السيف .

لم يغب عن المرأة التى عايشته دهرا أن فى أعماق صوته رعشة تردد وخوف فليس بمستبعد أنه يتمنى عكس ما يعلن ، وينتظر أن يردعه أحد عن غيه ، وهى تعرف من طباعه انه يمكن ان يقدم على فعل أى شئ ، اذا لم يجد من يرده بطريقة ما ، فراحت تستلينه :

ـ اذا كان قد بلغك عنهن شئ ففى الصباح ..

ـ لم يحدث ، لكنهن سيفعلن . بعد أيام ، بعد أعوام سيفعلن . ليس انتظار الشر من فضائلى فاتركينى .

قالت متعجبة ، والامر يزداد غموضا :

ـ بعد أيام . بعد أعوام !! ما أدراك ؟

ـ حال الدنيا .

ـ ما دام لم يحدث شئ ، فلماذا لاتنتظر يوما حتى تفكر ، وتستشير .. ماندم من استشار .

ـ وهل يستشير رجل فى قتل نساء بيته ؟ واذا كان هذا الرجل هو المصعبى، ألا يعتبر طلب المشورة ضعفا لايليق به ؟ لا أجد من يستحق أن أشاوره .

ـ أبو عبيدة !!

- نديمك . انه سترك ، لا يجسر أن يبوح بسرك ، ولا يخطر له أن يعد نفسه مشيرا عليك ، ولعلك واجد عنده ...

- كفى ..

- إنه راجح العقل ، وظرفه لاينفى عنه نقاء السريرة ، لعله أن يرى فى النازلة ما لا نرى .

فى الهزيع الاخير من الليل ، كان أحد الطوافين يدق باب أبى عبيدة دقا مزعجا ، قام الرجل فزعا ، حين عرف ان المصعبى يطلبه فى هذه الساعة دون سبب معروف أيقن بالبوار ، فتشمّم عياله النائمين ، وودع النساء .. ووصى .

كان المصعبى جالسا فى إيوان بيته ينتظر حين ولج ابو عبيدة باب الدار سمع نحيب إمرأة وبكاء البنات ، فحمد الله على النجاة ، قبل ان تنبسط أخاديد وجهه كان قد واجه الرجل ، قطعة من الظلام البائس الرهيب . سلم ، ولم ينتظر جوابا اقترب ، ظل واقفا ، واجما لايدرى ماذا يفعل ، بعد لحظات قال الجالس :

- عزمت أن اقتل بناتى .

تمهل أبو عبيدة ، ثم استجمع نفسه :

- شدة يجعل الله تعالى لها فرجا ومخرجا .

- الفرج فى قتلهن .

ـ لايكون القتل فرجا الا اذا نزل بظالم لاسبيل الى دفعة الا بقتله ، وليس في بناتك من ذلك شئ .

ـ جاءت رقاع أصحاب الأرباع هذه الليلة بالقبض علي نسوة في بيوت مشبوهة .

ـ هذه محنة تعرفها البشرية من أقدم العهود .. وستبقى .

قال المصعبي :

ـ النسوة غير ما تظن : إنهن نساء كبراء ، وبنات كبراء ، كانت لهم دولة وصولة ، ثم ذهبت بموت الأولياء ، فانظر كيف آل الامر ، وكيف انتهى المصير؟

ـ لاتكون العصمة الا لنبى ، والنساء كالرجال ، كل شئ مرهون بأسبابه .

ـ بنت السهلى . هل تصدق . بنت خالد السهلى تضبط في بيت بغاء !! كان أبوها أسدا ، كان هامان بغداد في زمنه آه يا ابا عبيدة ، انني ارى مصير بناتي فيما حدث غدا أموت أو أعزل ، ويصيبني الوهن ، وأتحسر انني خلفت بناتا . بنت الطاهرى هل تصدق . بنت الشرف والمحتد ، كان ابوها صاحب ديوان الخراج ، يؤول امرها ان تعشق فتى بطالا ، يضرب على طنبور في حانة، وان تنفق عليه ، وتترضاه فلا يحجم أن يسرف في اذلالها على ملأ من رواد الحانة ، ثم تذهب معه الى مثل هذه البيوت ..

ـ انا أصدق هذا واكثر منه .

- وافقنى اذاً ، ضربة سيف تحمى شرفى أبد الدهر .

- يالها من موافقة نتلظى بها فى جهنم ، بعد ان يقتلنا الندم . أتراك حقا لاتجد سبيلا آخر ؟

- وهل ترى غيره ؟

- ليست هناك مشكلة لها حل واحد ، الا عند رجال الشرطة .

ندم أبو عبدة على جملته الأخيرة التى ساقة اليها طبع المسامر الظريف ، وإن كان الموقف لايحتمل ، ولهذا استدرك بسرعة :

- سيدى القائد ، ليس مثلى من يشير عليك ، ولكنى اسألك : حين تجد قتيلا أو جريمة سرقة ، كيف تبدأ بحثك عن الفاعل المجهول ؟

- أبحث عن الدوافع .

- آ ... هديت إلى الخير . الدوافع . لماذا زلت فلان بعد موته ، وانحرفت زوج علان بعد ذهاب دولته وسقوط هيبته ؟ لآن هؤلاء الاباء والازواج لم يصونوا نساءهن الصيانة الصحيحة . الفتاة يصونها زوجها ، فزوج بناتك فى حياتك ، وتخير لهن ، تطب نفسك وتأمن عليهن . إن النسوة اللاتى تحدثت عنهن كان آباؤهن متكبرين ، مغرورين بالسلطة ، لايرى أحدهم فى كل بغداد رجلا يستحق أن يعطيه ابنته ، ثم تغير الزمان فكان ما رأيت .

- اذاً هو ؟

ـ ولاشئ غيره .

ـ وماذا ترى يا ابا عبيدة ؟

ـ نزوج بناتك .

ـ وكيف ازواجهن ؟ انا .. اسحاق المصعبى ، أبحث لبناتى عن أزواج ؟!

ـ وماذا فى ذاك ؟ أو ليس البحث عن زوج للبنت ، اخف مؤونة من قتلها ؟ بعد قليل ، المصعبى :

ـ صدقت . ماذا ترى ؟

ـ الحل جاهز ، لديك أربع بنات بارك الله فيهن ، ولمساعدك أربعة فتيان ، ليسوا على ثراء ولكن تشتهى العين النظر اليهم .

ـ مساعدى ؟ أى مساعد ؟!

ـ صاحب ربع الأسواق وباب الشام .

ـ هذا بعينه ؟!

ـ ليسوا فى شرفك ، ولكنهم مهذبون ، وأهل علم وعمل ، وبدولتك ينبه ذكرهم وتجد منهم خير معين .

ـ ليس هذا موضع اعتراض .

ـ اذاً ، على بركة الله .

ـ لا ، تمهل ، مساعدى الذى تقصد ، كان فى موقف ضنك منذ ساعة ،

وسمع منى ما لن ينساه . هددته بتجريده ، وضربه بالمقارع ، لقد أوشكت أن أنفذ العقوبة لولا كلمة عرضت ، وهذا الهاجس الذى شغلنى عنه .

قال ابو عبيدة ، الذى يثق بأن لباقته قادرة علي اجتياز كل صعوبة :

ـ هذه قضية أخرى ، ومثل هذا الأمر يحدث بين الرؤساء ، فلا يفسد ما بينهم وينبغى أن نبدأ بردم هذه الثغرة .

قال المصعبى بحدة وكأنه يصد عن رأسه حجرا :

ـ أتريد أن أعتذر إليه ؟ هذا ما لن يكون .

ـ سامحك الله سيدى القائد ، اتظننى أحمق إلى هذه الدرجة ؟ بل يعتذر هو اليك ، ويطلب بناتك لأبنائه ، ولست أطلب غير موافقتك ،

ـ ماذا ستعمل ؟!

ـ اطمئن .. ودعنى اعمل .

حكاية بنت السفير

هذه البنت ولدت فى أنقره ، ودخلت رياض الأطفال فى بروكسل ، وقضت شطرا من التعليم الابتدائى بين الخرطوم وبكين ، وحصلت على الثانوية العامة وهى فى دبلن عاصمة ايرلندا .

يقول أبوها ضاحكا : هذا قدر ابنه السفير ، وضريبة العمل الدبلوماسى الذى لايعرف عنه الناس إلا واجهته البراقة .

تمصمص أمها شفتيها (بقايا لم تستطع التخلص منها ترجع إلى عصر زينهم والسيدة زينب) كان موظف صغيرا ، وليس لنا فى الخارجية ظهر ، فكثر تنقلنا بين العواصم ، وكلها من النوع الذى لايذهب إليه المحظوظون وتقول أميرة : دبلن مدينة جميلة .. وكتبت عنها روايات ومسرحيات عظيمة..

ويضيق الأب بإشارة زوجته إلى الموظف الصغير الذى كان ، والذى لايملك وسائل الحماية الوظيفية . فيؤكد :

ـ ميرا ابنه سفير ، قمة المجتمع فى أى مدينة ، على مستوى العالم . وتسحب أميرة الكلام إلى الموضوع الذى تحبه :

ـ دادى يقول إننى أخذت من كل مدينة عشت فيها شيئا من طباع أهلها.. بلغة التصريحات السياسية : أريد إيضاحاً لهذه النقطة .

قالت الأم ـ وداد هانم : كل الذى أعرفه أنك أخذت من مسقط رأسك ما يعرفه المصريون عن الأتراك : حسنة وأنا سيدك .. يعنى : فقر وعنطزة !!

انزعج سعادة السفير لطريقة كلام زوجته . ذكرها بمقامها وواجبها . قال :

ـ ميرا ذات جمال ارستقراطى . ابنه سفير ، هذه العيون الزرقاء الصافية وهذا الشعر الذهبى المنهمر كالشلال .. أوربى مائة فى المائة .. أما أنت يا هانم .. تذكرى أننا بعد ساعتين فقط ، يجب أن نكون فى الأوبرا لحضور حفل الافتتاح .

قالت متأففة وهى تنهض :

ـ ألا يمكن أن أطلب الرحمة ؟ أنا لا أحب الأوبرا .. لا أطيق الصراخ .. ياعالم .

قالت أميرة ضاحكة : أوبرا دبلن .. صراخ ؟!

ـ كل الأوبرا صراخ .. القراءة هى عندى المتعة الوحيدة ..

قالت الفتاة بشقاوة وهى تقفز :

ـ ليس المهم أنك تقرأ .. المهم .. ماذا تقرأ !!

ـ كل المجلات ، والروايات ، عربى وانجليزى .. ألا يكفى هذا ؟!

كان السفير قد أعطاهما ظهره ، واتجه لإعداد هندامه لحضور حفل الأوبرا ، متخيلا لقاءه بمن يرغب ، ومن يعرف من سفراء الدول لدى ايرلندا ، ولم ينسَ أن يلتفت إلي أميرة :

ـ ميرا .. أعرف أنه ليس عندك جامعة غدا ، من حقك السهر ، ولكن ليس إلى جانب التليفون ..

غادرت الفتاة جو مرحها منسحبة فى انطفاء . قالت :

ـ اطمئن يادادى .. أنا أيضا أحب القراءة .. مثل مامى ..

- أنت تعرفين ما أقصد !!

- اطمئن .. كلهم سمعوا صوتك ، ولم يريدوا تعقيد الوضع .. فذهبوا وتركونى !!

ذهنه الذى تعّود مطاردة الكلمات ، وتمزيقها ، أراد أن يتوقف عند «تعقيد الوضع » و « تركونى » ولكن وداد هانم التى شهدت فى الأشهر الأخيرة تكرار الصدام الحوارى بين ابنتها الوحيدة ، وزوجها ، خافت مايمكن أن تصل إليه هذه الدقائق المشحونة برغبة السفير فى الخروج . قالت بسرعة : جميل منك يا ميرا أن تضعى رغبة دادى فوق كل الرغبات .. هذا طبيعى ، ويليق بابنه سفير ..

التفت الأب فى شئ من الرضا لهذا التدخل ، وغادر القاعة ، وزفرت أمير بصوت مسموع ، وهى تهمس لنفسها :

- هل أهمية دبلن أن أردد اسمها وأروى حكايات عنها حين أعود إلى مصر، أم أن الأمر يتجاوز ذلك ، أتعلم منها ، وأعمل لها أيضا ؟!

السفير وحرمه :

فى المقعد الخلفى من السيارة السوداء الفارهة ، لمعت قطع الماس ، وفصوص اللؤلو فى جوّ من عطور باريس وكشمير انجلترا .. كان السفير يستجمع تركيزه - كما تعود بعد تدريب ذاتى طويل - لمواجهة الموقف القادم وما يتوقع على مدخل مبنى الأوبرا ، لكن توتره غلبه ، مخاوفه طاردته . همس لزوجته ، حتى لايسمعه السائق :

- أخشى ألا أجد مفرا من ترحيل ميرا .

- ترحيل !!

- أقصد .. أن تعود إلى القاهرة .. هذا ما حاولت تجنبه .. أن تعيش بعيدا عنى .. ولكن .. البنت كبرت .

- بنتى عاقله .

- أكثر مما هو مطلوب .. هذه مشكلة .. الولد أثرّ عليها ..

- بيتر !!

- زفت .

- إنه طيب جدا .. فى حياء البنت فعلا ... لاخوف منه على الإطلاق .

يفترض السفير عادة أن زوجته ينبغى أن تعرف مايريد قبل أن يتفوّه به ، ولكن وداد هانم لم تكن تغادر عالمها بسهولة . قال متضايقا :

- ليس هذا ما أعنيه .. هو مهذب فعلا .. من هذا الجانب ، وإن كان ليس عندك ضمان أن بقية الشلة على نفس المستوى ..

حاولت أن تعصر ذهنها لتصل إلى منابع مخاوفه . قالت :

- هل تعتقد أنه يشرب أو يدخن الماريجوانا مثلا ؟

- ليس هذا بمستبعد .. مصيبة .

- ولكن هذه الأشياء يا سامح ليست قاصرة على الأولاد فى هذه البلاد البنات أيضا ، تشرب وتدخن ..

- يعنى ..

- لانستطيع أن نضع ابنتنا فى قمقم ، وإذا وجدنا حجة لمنعها من الخروج

مع بيتر وجماعته .. لانكون منصفين ، ولا هى ستطيعنا إذا منعناها عن صداقة البنات ..

ـ أنا لا أمانع فى صداقتها للبنات ، والشبان .. ولكن .. ليكن من عائلات السفراء ..

ـ سفراء ؟!

ـ مستوانا .. طريقتنا .. وضعنا ومستقبلنا ..

ـ وما علاقة ميرا بهذا كله ؟ إنها مجرد شابه تبحث عن المرح والسعادة والصداقة . ليست موظفة فى السفارة .

ـ هنا يكمن الخلاف .. كل من له ارتباط بالسفارة .. هو ملتزم بها ، ويمثلها.. ابنتى لاتذهب إلي معسكرات الشباب ، ولا تغيب عن عينى أبدا ..

ـ خلاص .. اعتذرت لأصدقائها .. ولك أيضا ، وانتهى الأمر ..

ـ لا .. لا أظن أن الأمر انتهى .. مخاوفى تتحرك .. لابد من ترحيلها .

ـ ترحيلها ؟! وتكررها !!

ـ ولو .. كلنا نرحّل .. سأعيدها إلى القاهرة .. بعض الشر أهون من بعض

ـ ومخاوفك من حياتها المنفردة فى القاهرة ؟

ـ والدتك تعيش معها .

ـ معها ؟! من التى تعيش مع من ؟

ـ عبارتى دقيقة .. والدتك تغلق شقتها ، وتعيش معها فى الفيلا .. ظهر الألم على وجه وداد ، تذكرت أمها ، وظروفها ، وتعالى زوجها على التعامل

معها كأم ، وكيف يريد الآن أن يستخدمها . سيكون هذا فتحا للملفّ بذلت جهدا فى إغلاقه :

- أمى كبرت ، وبنتك شايفه حالها ، الإنسان لايجد راحته إلاّ فى بيته .

- وهل أمك غريبة فى ڤيلا ابنتها ؟ إنه بيتها أيضا !!

(الآن تقولها ، حين لاتجد مفرا ، لكن : لا ، لن تكون أمى خادمة لابنتك، حتى لو كانت حفيدتها).

هنا القاهرة :

لكن كل شئ تمّ فى سرعة عجيبة ، لم بفصح أبدا عن مخاوفه، كانت أيام الوداع ذاتها قاسية ، لم يسمح لها بتوديع بيتر والشلة إلاّ بعد تضرّع ، وصدام وقسم بأن اللقاء لن يزيد عن ساعة .. وفى هذا اللقاء .. ضحكوا ، وغنوا ، وتواعدوا على الاجتماع عند سفح الهرم ، وتحمست فأقسمت ، أنها إذا ضنّت ظروفها بأن تكون معهم ، فإنها ستدعو لأهدافهم ، وتعمل بها ، فى مصر .. صدقوها ، وصفقوا .. وغنوا ..

وعادت بصحبه والدها ، وجاءت جدتها لأمها لتقيم معها ، إنها حتى لاتعرف اسمها ، ولا أين تقيم .. إنها « تيته » وحسب . لم تشعر نحوها بأية رابطة من قبل ، كانت فترات الحياة فى القاهرة - بالنسبة إليها - متقطعة، متباعدة أو متعجلة للعودة ، وكانت العجوز تأتى لرؤية ابنتها فى أوقات غير مألوفة . الصباح الباكر ، أو مع غبش الغروب ، وتدخل كأنها غير مرغوب فى وجودها لهذا أخطأت أميرة ذات قمرة ونهرتها ، وقالت لها« أنت»!! بكت الجدّة يومها ، وانزعجت الأم جدا ، وعاقبت البنت وأجبرتها على الاعتذار ، ولكنها لم تستطع إجبارها على تقبيل اليد المعروقة

الطيبة ، وسارعت الجدة بتقبيل يد حفيدتها ، ووجهها ، وشعرها ، والبنت متأففة من وقع أنفاسها ولاتملك الاعتراض .. إن أميرة لم تنس هذا الموقف القديم .. الآن ، ولكن الجدة لم تنسه أبدا !! بل حددت به علاقتها بالڤيلا ، وإن لم تغفل وجود ابنتها بداخلها ، لهذا أحست بدبيب الموت حين أرسل زوج ابنتها من يخبرها ويحضرها إليه ، وحين حدد لها مهمتها فى صحبة ابنته ، تمنت أن ترفض ، وأن تهرب ، ولكن : هل تستطيع هى أن تقول لسعادة السفير : لا ؟! وهل يحق لجدة أن ترفض مرافقة حفيدتها ؟! ثم .. ما هذه النظرة فى عينى أميرة ؟! هل لأنها كبرت ؟! .. وعقلت ؟! أم أنها تستدرجها ؟! لعل الأمانى تلعب بها والبنت لم تتغير وإنما الجدّة هى التى تتوهم !!

حين غادر السفير مصر ، وعاد إلى مقر عمله ، وأحست أميرة أنها أصبحت وحدها فى مصر ، ألقت بنفسها فى أحضان « تيته » !! لم تصدق المرأة العجوز ، ولكن : قد تكذب العيون ، غير أن الأحضان لاتكذب ، وخفقات القلب لاتزيف . بقيت منزعجة بعض الوقت وكأن السفير يراقب الاقتراب الجديد بخوف واستعلاء ، ولكنها ما لبثت أن تعوّدت ، وأخذت تقوم، فى الجزء المسموح بالتعامل معه من الڤيلا الواسعة ، بدور سيدة البيت، وتضفى على حياة أميرة معهامشاعر الجدة الحقيقية .. وسمعت فى تلك الفترة الذهبية نداء « تيته» «وماما الكبيرة » و « جدتى » و « ستى » وكل مستويات الحب المصرية وطرائقه فى التعبير من أجمل شفتين ، وعينين ، رأتهما فى الواقع ، أو فى الأحلام .

لم يمض غير بضعة أسابيع على ارتفاع رايات الحب ، ورفرفتها فوق الجناح

المضئ من الڤيلا ، حتى أعلنت أميرة عن رغبة ، يمكن أن تنهدّ لها الدنيا :

- أريد أن أعرف أين تقيمن يا جدتى ؟

داخت العجوز .. قررت أن تراوغ :

هل هذا سرّ ؟ أقيم معك .

- تعرفين ما أقصد .. يادلوعتى الطيبة .

- آ .. فى قسم آخر من القاهرة .. بعيد جدا عن هنا ..

- هل أنت من الكفر الأخضر ؟

دهشت الجدّة لمعرفة حفيدتها موطن أبيها ، مع ما تعرف من حرصه على قطع كل علاقة بالماضى .. لكنها - بكل تأكيد - غير مسئولة عن تسريب هذه المعلومة ، بل وجدت فيها فرصة مواتيه للتهرب من الحديث عما يخصها قالت:

- ما أدراك بالكفر الأخضر ؟

- ما العجب ؟ أليس مسقط رأس أبى ؟

- هو نفسه نسى هذا .. لكن .. حقا .. كيف عرفت ؟

- بسيطة .. المبدأ العام .. لاشئ يخفى .. وهذا بالذات لمحته عينى فى شهادة جواز السفر .

- لو عرف والدك أنك عرفت ستكون حكاية ..

- لن يعرف . سيعتقد دائما أننى أعرف ما يريده فقط .. فقط .. قولى أين تقيمين .. ولن أطلب منك شيئا بعد هذا .

بداية الرحلة :

لكنها طلبت ، ولم تتوقف عن الطلب . والجدّة التى يرعبها شبح الأب الغائب ، وتخشى ساعة يعود ، ويحاسبها ، ويحرج ابنتها ، أو يوجه إليها إهانة بسببها ، قاومت أولاً ، ثم بدأت خطوات التراجع .. انتصر الحب على الخوف ، وتغلب الحاضر على الغائب ، وتحولت الجدّة العجوز إلى ابنه صغيرة تدللها حفيدتها ، حتى تقول لها :

- « تعالى يا صغيرتى الطيبة ، أيتها السيدة الرائعة .. المعتقة !! أيها الضمير الأخضر .. ياشاهد كل الاجيال .. أقبلى يا حفيدة حتشبسوت .. أول شعاع للشمس الذهبية ».

كل يوم كانت تبتكر لها مسميات ، ونداءات غريبة ، تشعر بأنها جميلة ، صادرة عن قلب نقى ، وعاطفة كبيرة ، حتى وإن لم تعرف بالضبط معناها . كانت الخطوة الأولى أن عرفت أن جدتها من شارع اسمه : زين العابدين ، ويعرفه الناس باسم : زينهم . ثم كانت الخطوة الثانية :

- أريد أن أرى زينهم ، وأقيم فى بيتك يوما واحدا .

وتشبثت الجدة بأن هذا مستحيل ، وأن البيت مهمل بسبب غيابها عنه ، وأن والدها لو عرف .

لكن أميرة أقسمت لها أن هذا الأمر مطلوب للدراسة ، وأنه يتوقف عليه نجاحها وتفوقها ، فهى تدرس الاجتماع ، وعلاقات عامة ،و ليست لها معرفة بالأحياء الشعبية ، وتريد أن ترى - مجرد رؤية - كل شئ حتى تستطيع أن تقدم ورقة البحث المطلوبة منها ..

كان فى أعماق الجدّة تداخلات بين مشاعر متضاربة .. وافقت .. سبقتها بساعات لتعدّ شقتها الصغيرة فى حدود ما يمكن ، ثم عادت لتصحبها .. وهى تشعر بأنها تستّرد حفيدتها بشكل نهائي .. لم يفسد عليها نقاء اللحظة غير شعور آخر بأنها تنتقم من سعادة السفير الذى حرمها من عواطف ابنتها من قبل ، وشعور متراجع بالخوف من احتمالات ما يحدث لو عرف الأب !!

امتد اليوم الواحد إلى ثلاثة أيام ، كأنها حلم ، والجدة لاتعرف هل تسعد بهذا التعلق الجارف أم تشقى .. اندمجت أميرة - منذ الساعات الأولى - مع بنات الجيران الطالبات ، والعاملات ، والموظفات الصغيرات .. طافت بمربع واسع تمتد أضلاعه ما بين ميدان السيدة ، وميدان الخليج ، وشارع السدّ ، ومنطقة طولون .. اشترت أشياء عديدة لا تحتاجها ، وفاصلت فى الأسعار ، لتجرى حوارا ، أو تختبر نتيجة ، أو تكتشف سببا .. أشياء كثيرة معكوسة صدمتها : الأحذية فى الفترينات بينما الخبز على الأرصفة . التسوّل حول الضريح بإظهار القبح وربما استخدام الإلحاح حتى التهديد ، وهو فى دبلن قرين الغناء والعزف والرسم ، ويتم تنظيف بيت وتوسيخ الأخر بكل بساطة ودون اعتراض ، الكليم أو السجادة تنظيف على السلم أو من الشرفة ، فيغبر عالم الجيران دون احتجاج ، وإذا حدث قام الكلام الجارح ، وأحيانا الضرب ، فقام العتاب والاعتذار !!

وحين قدمت بحثها تحت عنوان « بعض مظاهر التناقض فى الحياة المصرية » حصلت على درجة ممتازة ، مما أغراها بالاستزاده ، كما كتبت بهذا إلى بيتر وجماعته ، فاعتبروا هذا تحقيقا للوعد السابق بالدعوة إلى الأهداف، وردوا عليها بصور ورسائل مشجعة ، فعاودت زيارة « زينهم » وطلبت أن

ترى أقارب جدتها ، فهم أيضا أقاربها ، لتكتب من خلال المعاينة ، والخبرة الداخلية - عن البيت المصرى ، أو القاهرى تحديدا .. والقيم التى تحكم سلوكياته ..

مشوار لا أكثر:

انتخب دكتور علم الاجتماع عددا من البحوث الجيدة لمناقشتها علانية ، رأى أن تكون عن بيئات مختلفة . كان من بينها بحث عن حى زينهم كتبته أميرة، وبحث آخر عن أثر دخول الكهرباء والتليفزيون على أساليب الترفية واللعب فى القرية . وقال عادل الوشاحى ، وهو يستمع إلى تلخيص أميرة : البحث عن زينهم ، ومستوى اللغة والملابس ، وخلافه يفوق الزمالك ومصر الجديدة . وقالت أميرة وهى تستمع إلى تلخيصه : العيّنة التى اختارها من الكفر الأخضر ، بلد دادى .. ليته يتحدث معى بلا تكلف كما يكتب ، ولكن مظهره الريفى لن يساعده ، وأيضا : هل من اللائق أن يعرف من أنا ؟

تحركت خطواتهما فى اتجاهين متقابلين ، ولكنهما لم يلتقيا ، ظلت هناك مسافة لها أسباب شتى ، غير أن رحلة الفيوم وضعتهما وجها لوجه . كان عادل الوشاحى صاحب فكرة الرحلة ، وهو الذى يقوم بجمع الاشتراكات حين دفعت إليه الجنيهات العشرة وعرف اسمها كاملا لأول مرة كان يفقد صوابه . هل يعقل هذا ؟ لو تحقق الظن فإن التناقض بين موضوع البحث وصاحبته لن يكون التناقض الوحيد ، أو الأهم .. ولكن .. كيف يصل إلى استيضاح ما يريد ؟ مع هذا قد يقضى الوضوح على أمنية ولدت فى قلبه ، وتمناها ، حين كان يرمقها وهى تلخص بحثها .. من وجه آخر .. حتى بدون إيضاح .. سينكشف الأمر ونسير فى طريق مسدود !!

ألزمته الحيرة موقع الصمت ، والحياد السلوكى .. هى زميلة من عشرات ضمن الرحلة ، لكنها تكاد تتأكد من أنه يفكر فى الاقتراب منها .. فهل لأنه من الكفر الأخضر دخل لاشعورى فى هذا ؟ لم تستطع أن تلتزم الصمت ، وبخاصة بعد أن كشف ـ فى جملة واحدة ـ عن معرفته التى تتجاوز معرفتها ..

ـ بحثك ممتاز يا عادل فعلا ..

ـ وبحثك أيضا ..

ـ أنا أحكم على المنهج والتحليل ، وليس على المعلومات ، لأننى لا أملك أى قدر من الخبرة بالريف .

ـ خسارة .. الريف أكثر من نصف مصر . على كل حال البداية من زينهم تبشر بالخير ..

ـ هل اسم الكفر الأخضر رمزى ، قصدت به أى قرية مصرية ، أم هناك قرية حقيقية بهذا الاسم ؟

ـ سأجيبك إذا أجبتنى بصراحة .

ـ أنا دائما صريحة ..

ـ هل سامح خضر ، هو سعادة السفير سامح خضر ، أم تشابه أسماء ؟

ـ لا ، ليس تشابه أسماء .. ولكن : كيف تعرفه ؟

ـ بل كيف أجهله . هو لايزور القرية أبدا ، لظروفه العملية ، ولكن الكفر الأخضر يفخر به .. ويعرف اسمه ويفرح بصوره فى الصحف .. فى النهاية .. « نحن بلديات » !!

كان رأسه يدور بالاكتشاف ، وينبهر عقله حتى يكاد لايدرك ما حوله

وهويتصور احتمالات الغد وكانت هى لاتصدق الطريقة السهلة المواتية التى ستعرف من خلالها شيئا عن الكفر الأخضر بالذات . قالت له :

ـ عجيبة .. أنت فعلا من الكفر الأخضر ؟

ـ وما العجب ؟! ثلاثة أرباع أهل القاهرة من أصول ريفية .. أنت نفسك محسوبة على الكفر الأخضر مع أن والدك سفير ...ولم تعرفى ذلك ، أما أنا فلحم أكتافى من عيشه وجبنته .. وسريسه أيضا !!

لم تفهم معنى الكلمة الأخيرة .. لكنها استراحت لطريقته فى الكلام ، واشتاقت إلى المزيد . غير أنه قال لها :

ـ المشاهدة أفضل من الكلام .. وهل جئنا إلى الفيوم لنتكلم عن الكفر ؟ ننظم رحلة محدودة إليه .. أنتم ضيوفى فيها ..

ـ هل هو بعيد ؟

ـ ساعتين من القاهرة ..

ـ أوافق .. نرجع فى نفس اليوم طبعا ، سأحضر معى كاميرا وجهاز تسجيل . ربما أحصل على مادة علمية عن الريف أنافسك فيها ..

تساءل فى نفسه : كيف لم تخمن أن لها أقارب هناك ؟!

وكانت تتساءل فى نفسها : هل أصرح لجدتى بهذا الامتداد الجديد للمعرفة ، أم أتركها لحالها ؟

بعد تقليب سريع للأمر ، اقتنعت بأنه مجرد مشوار ـ كما وصفه عادل الوشاحى ـ مشوار لا أكثر ، ولا داعى لإقلاق جدتها ، ومادامت علاقات دادى بالكفر معدومة أصلا ، فإنه لن يأخذ علما بما جرى .

وجها لوجه :

لم تكن لدى عادل الوشاحى أية ميول عدوانية ، أو نيات شريرة ، أو حتى رغبة عابرة فى إيلام أحد .. إنه ابن الأمر الواقع ، وجد نفسه ابن العمدة ، وبيته فى الكفر يتميز بالضخامة، والثراء النسبى ، وأبوه يأمر فيطاع ، والناس تترضاه بأكثر من طريقه .. فاعتبر هذا طبيعيا . وحين اتجه بسيارة الاتوبيس التى تحمل زملاءه وزميلاته إلى طريق جانبى يدخل القرية من خلف، وتجنب المدخل الرئيسى فلأنه أراد أن يجنبهم رؤية المقابر التى تعترض الواجهة!!

مع هذا كانت أميرة تطل من نافذة ، وتوجه عدستها ، وتلتقط صورا كثيرة جدا لكل ما يبدو .. حتى قال لها :

- ما أهمية الصور وأنت تلامسين الحقيقة ؟

- أنت لاتعرف .. هى وثائق لبحث لأنال به الامتياز .

ضحك باعتزاز ، رفع يديه إلى السماء ، كأنما يؤمن على رغبتها . غير أنها قالت بعد تأمل قليل :

- إننى أخجل والله أن يكون هذا البؤس الفظيع مجرد وسيلة إلى درجات النجاح أو التفوق .

قال فى نفسه : وماذا رأيت من البؤس فى الريف ؟ إنه بشع ..

وقال لها : وماذا باستطاعتك أن تفعلى أكثر من هذا ؟ أنت تؤدين واجبك فى حدود الممكن لك .

قالت ساخرة : ياله من ممكن هزيل !!

(وهنا تذكرت بيتر وجماعته ، حين كانوا يقيمون معسكرهم على حافة الغابة أو فى سفح الجبل أو بين الأحراش فى مناطق المستنقعات ، يقدمون خدماتهم المجانية ، يبنون البيوت ، ويجففون المياة ، ويمدون الطرق ، ويساعدون المرضى والضعاف ، ويعلمون الصبيان الحرف واستخدام الآلات الجديدة ..هل من أجل هذا رحلها والدها إلى مصر ؟!) .

انطلق الشباب على راحتهم في حديقة متوسطه أمام دار العمدة ، أكلوا من ثمراتها الشتوية الربيعية : البرتقال واليوسفى والخسّ والجزر .. وحين تعبوا وشبعوا جلسوا فى انتظار الغداء . وجاء العمدة : الحاج عبدالحميد الوشاى سلم عليهم فردا فردا ، وكان عادل واضح الفخر بأبيه ، ولكن دون اغترار وحين صافح أميرة قال : أهلا بنت بلدنا .. يا مرحبا بالطيور المهاجرة . لم يعجبها أن يعرف ، وأن يعلن معرفته أيضا ، فلم ترد ، حتى تفكر فى الأمر ، ولعلها ندمت أنها جاءت ، وعولت على أن يكون أكثر زملائها وزميلاتها لم يفطن لما قيل . أحست بالنقمة على عادل ، وعادت باللوم علي نفسها ، ثم تملكها شعور مفاجئ باللامبالاة ، فقالت كأنما لتغيظ عادل وتؤنبه:

ـ ظروف ، ماذا أصنع .. كيف تجتمع العواصم العالمية والقرية فى عقل واحد ؟ غير ممكن ..

وتشاغلوا بالمشاركة فى توزيع الغداء الريفى (كان مناسبا دون سخاء) ثم بدأ توزيع الشاى والقهوة لمن يرغب ، وفجأة ، من بين الخفراء ، تقدم عجوز هزيل ، تلمع الرقعة النحاسية فى مقدمة طربوشة الأسود ، مادا يده نحو أميرة، ذعرت من المفاجأة ، غير أن العمدة « طمأنها » :

- سلمى على عمك يا أميرة هانم ..

- . . .

- فرحات الشحات ابن عمْ سعادة السفير .. سلمى عليه ..

- شحات ؟!

- أنا ابن عم سامح بيه ، سلمي عليّ ولاتخجلي .

قالها الرجل بمسكنة وذل ، هل هو مقهور أرغمه العمدة على هذا ؟

هل هو مدسوس قصد به إهانتها ؟ كيف غاب عنها أن مسقط رأس والدها لابد أن يضم أقارب لها لم تعرفهم من قبل .

بسرعة ، وحدة ، وقفت . مدت يدها ..

- أنت عمى حقا .. عمى فرحات ..

- الله أكبر .. طبعا .. الدم يحنّ .

- آسفة .. آسفة جدا أن الظروف باعدت بيننا ، المهم أننا التقينا وليس هنا موضع السلام ، مكانه ، وأنت خير من يعرف الواجب ، بيت عمى .. هيا لأسلم على الأسرة .

وتشرق الشمس من مغربها :

- يسموننا فى البلد « الشحايته) إذا أرادوا إغاظتنا أو عراكنا قالوا «الشحاتين » لأن جدنا اسمه الشحات .

- جدى اسمه خضر .

- وهل أجهل هذا ؟ اسمه خضر الشحات ، أبو لباس ..

ـ لباس ؟

كان مندفعا فقال الكلمة ، وندم عليها ، لكن : كيف رددتها وراءه ؟ ثم تبين له أنها لاتعرف معناها ، وحين سألته لم يجد ألفاظا مناسبة للشرح ، وإنما قال :

ـ جدى الشحات كان طيانا ، يخلط الماء بالتراب ليصبح طينا يصنع منه الطوب وطول نهاره ، وربما ليله ، يكتفى بلبس الصديرى وال ...

كان ينطلق بها فى أزقة القرية ، ينحدر من قمة دار العمدة ، إلى آخر داره حارة الشحايته . قال مباهيا :

ـ هذه حارتنا .. دار عمى خضر ، جدك الله يرحمه لاتزال فيها ، أبوك رفض مجرد الرد على جوابى ، وتركها خالية ، زوجنا فيها الولد والسلام ..

ـ يعنى حاولتم الاتصال ببابا ؟

ـ منذ عشرين سنة لم نحاول . عمى خضر حالته انتظمت لما اشتغل «قياس أراضى » وعلم سامح بيه .. شخصية عظيمة .. كل البلد تفاخر به ؟

لكنه لايتعرف على أحد ، حتى ولا الشحايته .. ومرة رفض يقابل العمدة لما راح له ديوان الوزارة عاوز واسطة .

ـ آ .. فهمت ..

ـ والدك علم نفسه بنفسه ، اشتغل موظف صغير ، وسافر ، ورجع دخل الجامعة ، وسافر ، ورجع درس من جديد ، وانقطع عن البلد وقطعها تماما .. وأصبحنا نرى صورته بين حين وحين .. شفناه السنة اللى فاتت فى التليفزيون .. جابها من بير السلم لحدّ السطوح .

كانت تسترق النظر إلى وجه مرافقها ، تبحث تحت الغصون والشعر النافر والجسد الهزيل عن ملامح مشتركةِ مع أبيها . لم تجد شيئا . فكرت كيف تنهى الموقف لكنها لم تعرف غير الاندفاع إلى الأمام . فكرت من جديد ماذا كان يصنع بيتر لو كان فى هذه الحارة التى تقع خارج حركة الزمان وكانت قد وصلت ..

- هذه دار عمى خضر .. يعنى داركم .

تطلعتِ إليها بألم ، هل كان يمكن أن تولد فيها ، وتلعب مع أولاد هذه الحارة ؟ ما الذى غيّر المصائر وفرّق بين الأهل ؟ ووجدت نفسها تفكر : كيف يمكن عبور الفجوة ؟ وماذا يقولون فى بيت العمدة الآن ؟ وبأى وجه ستعود إليهم ؟ وكيف تضبط احتمالات الكلام فى الكلية مستقبلا : وتلفتت تبحث عن بيتر .. وأشرف فى أفق خيالها وجه جدتها ، وبعض من قابلت فى زينهم.

جلست على المصطبة ، اجتمع من حولها الشحايته ، كان دفء الظهيرة فى هذا اليوم الربيعى قد ولّى ، وبدأت نسمة نشطة باردة تسرى . رأت أطفالا وعجائز وشابات ، ورجال .. فى كل منهم شئ من أبيها ، شئ ما تحت الجلد ، فى الروح ، فى نبرة الصوت ، فى طريقة المشى ، فى هيئة الرأس من الخلف .. لكن هذه خبرة من يعرف قرابة الطرفين ..

بدأ نفورها يخف ، وتحديها يتصاعد ، شربت الشاى ، واشتركت فى الحديث مع الفتيات والشبان ..

- ولكن .. لماذا حارة الشحايته ليست نظيفة ؟ ما كل هذه الزبالة ؟

- وماذا نصنع فى الزبالة .. إننا لانملك غير أيدينا ..

ـ وهل أيديكم شئ قليل ..

(وتحدث بيتر فى أعماقها ، آه .. إنها لابد أن تكتب إلى المجموعة بهذا كله) .

ـ أيدينا بدون إمكانيات عاجزة ..

ـ نجرهب .. هيا بنا

* * *

طال انتظار زملاء الرحلة لعودة أميرة .. أرسلوا فى طلبها خفيرا ، يذكرها بموعد العودة . لم تحضر .. خافوا على زعلها ، ذهبوا إليها .. كانت تحمل المقطف مملوء بالتراب والنفايات وتذهب به إلى بعيد .. وقفوا صامتين لايعرفون كيف يتصرفون . تطلعت إليهم وبحلقت فيهم دون خجل . كان عادل الوشاحى يقف بينهم لايدرى هل يتقدم أو يهرب . لمحته ، اشتعل غيظها ، ثم فكرت : من يدرى .. لعله ضحية حماقة .. ماجرى قد جرى والختام هو المهم .. الغيظ .. الحقد .. مزيد من الابتعاد .. لن يصلح الموقف .. هتفت :

ـ عادل .. هل تستمر فى الفرجة .. على الأقل .. لى عليك حق الزمالة !! أمسكت بالمقطف من جانب ، أشارت إلى الجانب الآخر .. شق الصف كالشهاب ، شاركها فى حمله .. انطلقا لتفريغه بعيداً ..

كانت قد نسيت تماما الكاميرا وجهاز التسجيل ..

إنها لاتشاهد تجربة عمرها ..

إنها تعيشها !!

المحتـــوى

•• صدر من هذه السلسلة

١- آلام صغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨

٢- يوميات عروبة - د. هانى الرفاعى

٣- ما رواه البحراوى - عبدالرحمن شلش

٤- أبناء نادى القصة - محمد محمود عبدالرازق

٥- زوجتى لا تريد أن تتزوجنى - فتحى سلامة

٦- الحى الراقى - فتحى مصطفى

٧- الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم

٨- حدائق السماء - محمد سليمان

٩- الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة

١٠- دلونى على السبيل - محمد الشريف

١١- الجدة حميدة - حسن الجوخ

١٢- فستان زفاف قديم - على عيد

١٣- بحر الزين - حسن نور

١٤- من أوراق العمر - محمد كمال محمد

١٥- إحراج - نادية كيلانى

١٦- البنات - هدى جاد

١٧- عاد الأسد.. أسداً نبيلا - عبدالمنعم السلاب

١٨- عراف السيدة الأولى - محمد القصبى

١٩- حكايات عن العربيد - صلاح عبدالسيد

٢٠- السلمانية - صلاح معاطى

٢١- الفائزون أول القرن الحادى والعشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.

٢٢- صبحى الجيار والمحنة المضيئة - مصطفى عبدالوهاب

٢٣- الرغبة الوحيدة - صوفى عبدالله

٢٤- الغزال فى المصيدة - محمود البدوى

٢٥- خراط البنات - صفوت عبدالمجيد

٢٦- القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع - حسين عيد

٢٧- حوار مع جنية - عصام الصاوى

٢٨- ليلة موت - عبدالحميد الفداوى

٢٩- حبيب حبيبى - درويش الزفتاوى

٣٠- لقاء غير متوقع - محمد صفوت

٣١- التوأم وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة

٣٢- أكثر من عمر - عبدالفتاح مرسى

٣٣- من حياة الحياة - رستم كيلانى

٣٤- فرحة الأجراس - عبدالعال الحمامصى

٣٥- أنا.. ونورا.. وماعت - رفقى بدوى

٣٦- الليلة الثانية بعد الألف - مختارات من القصة النسائية فى مصر - إعداد وتقديم يوسف الشارونى

٣٧- ثلاثية آدم وحواء - عماد الدين عيسى

٣٨- الأحلام تتمشى فى الذاكرة - محمد الفارس

٣٩- بين الحكى والنقد - نبيل عبدالحميد
٤٠- مواسم الشروق - أحمد الشيخ
٤١- السقف والناب الأزرق - فؤاد قنديل
٤٢- الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠٠٢
٤٣- خمس سنوات رملية - سمير درويش
٤٤- القصة والرواية فى السبعينيات - د. يسرى العزب
٤٥- الضوء والظلال - محمد قطب
٤٦- عين طفل - د. مرعى مدكور
٤٧- فنون روائية - محمود عبدالوهاب
٤٨- عطر المشمش - أمين بكير
٤٩- أولاد الأفاعى - خليل الجيزاوى
٥٠- رواية زوينة - محمد جبريل
٥١- التعدد والتباين - أحمد عبدالرازق أبو العلا
٥٢- فيل أبيض وحيد - د. محمد حسن عبدالله

الإصدار القادم

العذاب والصمت

لوسى يعقوب

دار النيـــــل
للنشر والطبع والتوزيـع
١٢ شـارع عبـده بدران
م. الباشـا - المنيـل - القاهـرة
ت: ٣٦٢٢٥٧٨

الترقيم الدولى:
977-5414-52-0